الجامعـــــة الإســـــلامية – غـــــزة
عمـــــادة الدراســـــات العليـــــا
كليــــــــــــــــــــــة الآداب
قســــــم اللغـــــة العربيـــــــة



فن الرسائل في العصر المملوكي
دراسة تحليلية

Letters Art in the Mamluk Era
An Analytical Study

إعداد الطالبة

رشا فخري النحال

إشراف الأستاذ الدكتور

عبد الخالق محمد العف

أستاذ الأدب والنقد – الجامعة الإسلامية – غزة

قدم هذا البحث استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في الأدب والنقد

2013 – 2014م

المقدمة

الحمد لله الذي علَّم بالقلم علّم الإنسان ما لم يعلم، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذي أوتي جوامع الكلم ، عليه وعلى آله و أصحابه أفضل صلاة وأتم تسليم وبعد:

كان النثر الأدبي – وما زال – فناً مهماً من فنون الأدب العربي، وقد أثبتت الدراسات كثرة المؤلفات التي تحدثت عن نشأة فنون النثر المختلفة ومراحل تطورها عبر العصور، حيث لم تخلُ ساحة القول والإبداع للشعراء وحدهم في المجتمع العربي عبر عصوره المتتابعة، فقد تمتع الخطباء والكُتّاب بمكانة مرموقة . وإذا كان الاهتمام في العصر الجاهلي بالخطابة أكثر من الكتابة، فقد بدأت الحاجة إلى الكتابة ترتقي منذ صدر الإسلام، وبدأت الدواوين تتحمل تدريجياً أعباء الدولة الإسلامية وتواكب توسعها، وأضحى الُكتّاب وزراء يديرون شؤون البلاد والعباد .

وقد اعتاد الدارسون القول: "بدأت الكتابة بعبد الحميد وختمت بابن العميد"، ورأوا أن قواعدها قد استقرت، وسماتها الفنية قد حَققت جودة لن يفوقها كل مًن جاء بعد ابن العميد، ليس ذلك فحسب بل معظمهم يرى تراجع سمات الجودة وتخلفها بعد ابن العميد، وما نكاد نصل إلى العصر المملوكي حتى نجدهم يصفون أدبه بشكل عام بالتخلف والانحطاط .

أهداف الدراسة:

–تقديم دراسة تحليلية لفن الرسائل في العصر المملوكي ، ومعرفة أنواعها.

– تقديم دراسة فنية لفن الرسائل في العصر المملوكي .

–معرفة أشهر كُتّاب الرسائل في هذا العصر.

دوافع الدراسة:

مما دفعني لهذه الدراسة الرغبة الشديدة في إعادة الصورة المشرقة لهذا العصر وأدبه،

وبُعد الدارسين عن دراسة فن الرسائل في هذا العصر .

الدراسات السابقة:

ومما مهد لي الطريق في بحثي هذا:

-نقد النثر في تراث العرب النقدي حتى نهاية العصر العباسي : نبيل خالد أبو علي. تتبعت في هذا الكتاب الحديث عن تصنيف الرسائل ومسمياتها "سياسية واجتماعية " ، كما وتتبعت فيه أيضاً الحديث عن نشأة فن الرسائل السياسية والرسائل الاجتماعية حتى العصر العباسي وذكر أنواعها وذكر نماذج لكل نوع .وقصر في استكمال نماذج الرسائل فيما بعد العصر العباسي لأن ذلك الكتاب اختص بالنثر حتى نهاية العصر العباسي، لكنه ساعدني في كيفية الاطلاع ودراسة أنواع الرسائل في العصر المملوكي . وتتبعت في ذلك الكتاب أيضاً الحديث عن بناء الرسالة وعناصرها والدراسة الأسلوبية للرسائل وموسيقى الرسائل .فقد كان هذا الكتاب خير جليس ومساعد لإنهاء الرسالة .

– عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي: محمود رزق سليم . قد كان هذا الكتاب سجلاً حافلاً بأنواع الرسائل السياسية والاجتماعية و العلمية في العصر المملوكي وقد أرشدني للعودة للمرجع الأول الذي أخذ منه النماذج .كما وساعدني في معرفة أشهر كتاب ذلك العصر، قد قصر في عمل دراسة فنية للرسائل ،وذلك لأن كتابه كان سجلاً اشتمل على نماذج الرسائل. ويعتبر هذا الكتاب مهماً لمن يريد دراسة النثر في العصر المملوكي .

-كتاب الادب العربي بين عصرين. المملوكي والعثماني نبيل خالد ابو علي. مهد لي الطريق في الحديث عن البيئة العامة في العصر المملوكي .البيئة السياسية والبيئة الاجتماعية والبيئة العلمية .

أهمية الموضوع:

ولمَّا لاحظتُ تسليم الدارسين المحدثين بما تقرر من وصف أدب العصر المملوكي بالضعف والانحطاط، وانصرافهم عن دراسة أدب العصر المملوكي بصفة عامة – غالباً – وعن دراسة فن الرسائل في العصر المملوكي بصفة خاصة، رأيت أهمية دراسة هذا الموضوع والتحقق من صدق هذه المقولة أو دحضها، وقد غلب عندي دحض هذه المقولة بعد أن تصفحت ما تيسر لي من تراث فن الرسائل .

ولكي أتمكن من تحقيق غايات هذا البحث التي منها معرفة أنواع الرسائل، ومعرفة السمات الفنية ،وتبيين موقعها على سلم الجودة الفنية ،ولكي يكون شاهداً على مكانة الأدب في هذا العصر ...

رأيت أن تتوزع هذه الدراسة على مقدمة تشتمل على الحديث عن أهمية الدراسة ومبرراتها، والدراسات السابقة، وخطة الدراسة ومنهجها . وتمهيد يشتمل على مبحثين: خصصت الأول منهما للحديث عن فن الرسائل في الأدب العربي قبل العصر المملوكي، والمبحث الثاني للحديث عن البيئة العامة للعصر المملوكي حيث سيتم الحديث عن البيئة :السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعلمية.

وقد خصصت الفصل الأول للوقوف على واقع فن الرسائل في العصر المملوكي معرفة أشهر الكتاب، ويشتمل على مبحثين؛ يختص الأول منهما بالحديث عن العوامل المؤثرة في فن الرسائل ومكانتها، ويتكفل المبحث الثاني بالحديث عن أشهر كتاب الرسائل في العصر المملوكي.

وخُصِص الفصل الثاني للحديث عن أنواع الرسائل وموضوعاتها، واشتمل على ثلاثة مباحث؛ و مهاد نظري يحاول التعرف على موضوعات الرسائل ومعانيها المتنوعة، ونظرات الدارسين وتصنيفاتهم لألوانها، ويهتم المبحث الأول بالرسائل السياسية، والمبحث الثاني بالرسائل الاجتماعية، والمبحث الثالث بالرسائل العلمية ... وخصصت الفصل الثالث للدراسة الفنية، وسأتناول في المبحث الأول بناء الرسالة، وفي المبحث الثاني السمات اللغوية والأسلوبية، وفي المبحث الثالث السمات الإيقاعية، وفي المبحث الرابع السمات التصويرية في فن الرسائل .

منهج الدراسة: وقد رأيت أن المنهج المتكامل هو أنسب المناهج لتحقيق غايات هذا البحث،

فن الرسائل في العصر المملوكي

دراسة تحليلية

المقدمة: وتشتمل على أهمية الدراسة ومبرراتها والدراسات السابقة وخطة الدراسة ومنهجها.

التمهيد.

المبحث الأول: الرسائل في الأدب العربي قبل العصر المملوكي.

المبحث الثاني: البيئة العامة للعصر المملوكي.

الفصل الأول :فن الرسائل في العصر المملوكي وأشهر كُتّابها.

المبحث الأول: العوامل المؤثرة في حياة فن الرسائل و مكانتها.

المبحث الثاني: أشهر كُتّاب الرسائل في العصر المملوكي.

الفصل الثاني :أنواع الرسائل وموضوعاتها.

مهاد نظري: تصنيف الرسائل رؤى تنظيرية.

المبحث الأول: الرسائل السياسية.

المبحث الثاني: الرسائل الاجتماعية.

المبحث الثالث: الرسائل العلمية.

الفصل الثالث: الدراسة الفنية.

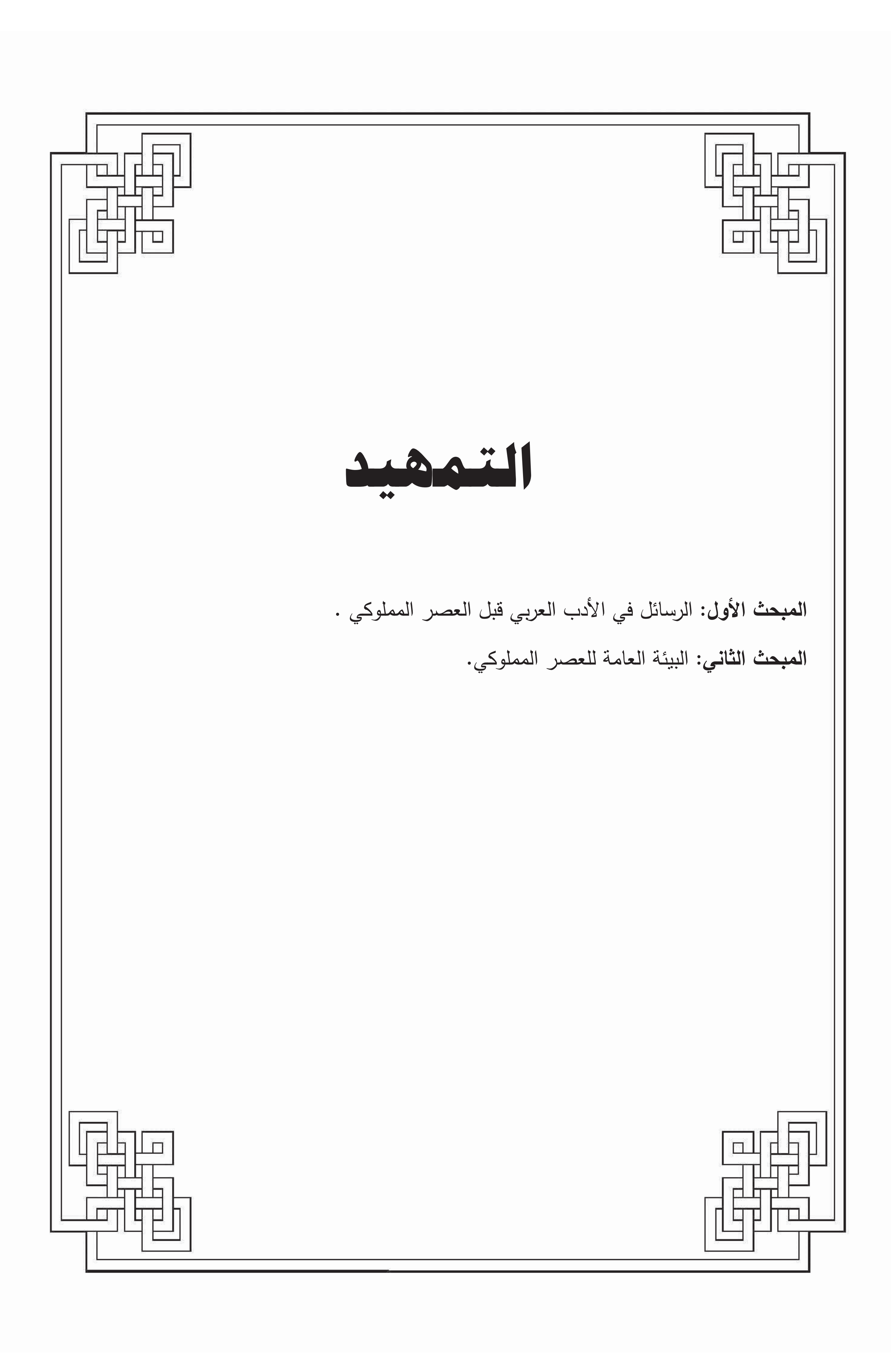
المبحث الأول: بناء الرسالة، وضوابطها الفنية.

المبحث الثاني: السمات اللغوية والأسلوبية.

المبحث الثالث: السمات الإيقاعية.

المبحث الرابع: السمات التصويرية.

الخاتمة: رصد أهم النتائج والتوصيات.



التمهيد

المبحث الأول: الرسائل في الأدب العربي قبل العصر المملوكي .

المبحث الثاني: البيئة العامة للعصر المملوكي.

المبحث الأول

نشأة فن الرسائل

لم تخل ساحة القول للشعر وحده في الأدب العربي، بل احتل النثر أيضاً مكانة متميزة فيه، وتم الاهتمام بأنواع النثر في عصر صدر الإسلام من خطب، ورسائل، ووصايا، حيث أصبحت وسيلة من وسائل الدعوة الإسلامية . وبداية لا بد من تعريف الرسالة لغة واصطلاحاً.

لغة :من الفعل رَسَلَ ، والاسم منه الرِّسالة والرَّسالة والرسول ، والإرسال بمعنى التوجيه ، تراسل القوم أرسل بعضهم إلى بعض.[1]

اصطلاحاً: "قطعة من النثر الفني تطول أو تقصر تبعاً لمشيئة الكاتب وغرضه وأسلوبه ، وقد يتخللها الشعر إذا رأى لذلك سبباً، وقد يكون هذا الشعر من نظمه، أو مما يُستشهد به من شعر غيره، وتكون كتابتها بعبارة بليغة وأسلوب حسن رشيق، وألفاظ منتقاة، ومعانٍ طريفة"[2] كما يتخلل رسائل هذا العصر آيات من القرآن ،أو أحاديث نبوية شريفة، أو أمثال.

نشأة فن الرسائل:

إن فن الرسائل كان شكلاً من أشكال النثر في الأدب العربي، وبعد الاطلاع على النثر في العصر الجاهلي وُجد أن فن الرسائل لم يكن موجوداً في ذلك العصر، ربما بسبب قلة استعمال الكتابة،[3] وصعوبة وسائلها[4]، يقول الدكتور شوقي ضيف: "العرب استخدموا الكتابة في العصر الجاهلي لأغراض سياسية وتجارية، لكنهم لم يخرجوا بها إلى أغراض أدبية خالصة تتيح لنا أن نزعم أنه وُجد عندهم لون من ألوان الكتابة الفنية"[5].وترى الباحثة أنه لا وجود لفن الرسائل كنوع من الكتابة الفنية في العصر الجاهلي ،ولكن وجدت ألوان أخرى كالقصة والمثل والخطبة.

---

(1) لسان العرب: جمال الدين ابن منظور، دار المعارف، القاهرة، تحقيق عبدالله على الكبير وآخرون، د.ت، 1644/2.

(2) الأدب العربي في الأندلس: عبد العزيز عتيق، دار النهضة العربية، ط2، بيروت، 1976، 448.

(3) ينظر :تاريخ الترسل النثري عند العرب في الجاهلية: محمود المقداد، دار الفكر، ط1، دمشق، سوريا، 1993م،209.

(4) العصر الجاهلي: شوقي ضيف، دار المعارف، ط10، مصر، د . ت،،398.

(5) الفن ومذاهبه في النثر العربي: شوقي ضيف، دار المعارف، مصر،ط5، د. ت، 19.

ومما يدعم رأيها ،قول شوقي ضيف: "إذا كنا نفتقد الأدلة المادية على وجود رسائل أدبية في العصر الجاهلي فمن المحقق أنه وجدت عندهم ألوان مختلفة من القصص والأمثال والخطابة وسجع الكهان"[1]، ويُظن أن عدم وجود فن الرسائل في العصر الجاهلي مع وجود ألوان أخرى من النثر كالقصة والمثل والخطبة وسجع الكهان، يرجع إلى طبيعة العصر، وطبيعة أهله، حيث كان لديهم شغفٌ وحبٌ كبيرين في عرض فروسيتهم، وشجاعتهم، في معاركهم ،ويقضون أوقاتاً كبيرة في سمرهم في الليل وحول خيامهم[2].

ومما يُدعّم رأي الباحثة مقولة الدكتور شوقي ضيف : "لا نتأخر بنشأة الكتابة الفنية عند العرب إلى العصر العباسي، عصر التأثر الواضح بالفرس، ولا نتقدم بها إلى العصر الجاهلي، بل نضعها في مكانها الصحيح الذي تؤيده المستندات والوثائق وهو العصر الإسلامي[3] .

وستتحدث الباحثة عن نشأة فن الرسائل السياسية و الرسائل الاجتماعية في الأدب العربي قبل العصر المملوكي.

أولاً: نشأة الرسائل السياسية:

مع ظهور الإسلام ونزول الوحي على سيدنا محمد- صلى الله عليه وسلم-، والدعوة للكتابة والقراءة، حيث قال جل في علاه: "اقرأ باسم ربك الذي خلق"[4] قد أصبح للكتابة اهتمام كبير جداً عند المسلمين، فاستخدمها الرسول -صلى الله عليه وسلم- في جميع مواثيقه وعهوده،[5]وهكذا فالميلاد الحقيقي لفن الرسائل السياسية كان في العصر الإسلامي عصر البعثة المحمدية[6]، كما يقول شوقي ضيف: "الكتابة الرسمية الفنية عند العرب لم تأتها من الخارج فقد نشأت في حجورهم بحكم حياتهم الإسلامية والسياسية الجديدة ومشاكلهم المختلفة"[7]، وتؤيد الباحثة رأي الدكتور شوقي في نشأة الرسائل

---

(1) العصر الجاهلي، 399.

(2) ينظر الفن ومذاهبه في النثر العربي، 15.

(3) ينظر: الفن ومذاهبه، 104.

(4) سورة العلق، أية 1.

(5) ينظر: العصر الإسلامي: شوقي ضيف، دار المعارف، ط6، القاهرة، مصر، د.ت، 130 .

(6) ينظر: نقد النثر: نبيل أبو علي، الهيئة المصرية العامة، د.ط،1993،269 .وأيضا الفن ومذاهبه،103، وأيضاً تاريخ الترسل النثري عند العرب في صدر الإسلام: محمود المقداد، دار الفكر، دمشق، سوريا،1993م، 72.

(7) ينظر الفن ومذاهبه، 111.

الرسائل في العصر الإسلامي ، حيث إنه من خلال الاطلاع على بعض كتب الأدب العربي، لم يُوجد فن الرسائل في العصر الجاهلي وإنما نشأ وترعرع في العصر الإسلامي، فقد كان هناك حاجة ملحة لكتابة كثير من شؤون المسلمين: كمكاتبة الأمراء والملوك ورؤساء القبائل لدعوتهم للإسلام(1)، كرسالة الرسول –صلى الله عليه وسلم– إلى هرقل عظيم الروم(2)، ورسالته إلى كسرى عظيم فارس(3)، ورسالته إلى النجاشي ملك الحبشة(4)، يدعوهم للدخول في الإسلام.

ومن رسائله أيضاً العهود والمواثيق كالعهد الذي أبرمه الرسول –صلى الله عليه وسلم– بين المهاجرين والأنصار واليهود في المدينة(5)، وكالمعاهدة التي وضعها الرسول بينه وبين قريش لوضع الحرب عشر سنين(6).

ومع ظهور الإسلام وتوطيد أركانه أصبحت أيضاً الحاجة ملحة من الرسول –صلى الله عليه وسلم– لإرسال رسائل تعميم ونشر تعاليم الدين الحنيف ومبادئه(7)، وتُعرّف بالإسلام(8)، ومن رسائله التي أرسلها الرسول أيضاً رسائل لعماله وأمرائه وأصحاب سراياه ومنها لتعميم تعاليم الجزية(9).

وترى الباحثة أن ما قام به الرسول من إرسال الرسائل لنشر تعاليم الإسلام والدعوة للدخول فيه ما كان إلا تعبيراً واضحاً يدل على عالمية الإسلام، وسماحة الرسول، فحقاً كان نعم الرجل القائد –صلى الله عليه وسلم–، ولقد سار الخلفاء الراشدون في رسائلهم على طريقة الرسول الكريم –صلى الله عليه وسلم–، كيف لا وهو خير معلم وخير مرشد للبشرية جمعاء، وكان من رسائلهم: الدعوة للاعتصام

---

(1) ينظر الفن ومذاهبه، 96 .

(2) ينظر جمهرة رسائل العرب: أحمد صفوت، مكتبة البابي ،ط2،القاهرة،1971م، 37/1، أيضا الوثائق الإسلامية، محمد حميد الله، دار النفائس، ط4، بيروت، 109.

(3) ينظر جمهرة رسائل العرب، 40/1،وأيضاً الوثائق الإسلامية،139.

(4) ينظر السابق، 40.

(5) ينظر: السابق،31.

(6) ينظر: العصر الإسلامي، 131، و أيضا جمهرة رسائل العرب، 35/1.

(7) ينظر: السابق، 65/1، 50. وأيضا تاريخ الترسل النثري عند العرب في صدر الإسلام،91، وأيضا العصر الإسلامي،131.

(8) ينظر: جمهرة رسائل العرب، 64/1 .

(9) ينظر: جمهرة رسائل العرب،45/1، 63، 66.

بحبل الله[1]، والدعوة للدخول في الإسلام، أو دفع الجزية[2]، أو لقادة الجيوش لإعطاء الأوامر كتولية القادة، وتسيير الجيوش والحث على الجهاد[3]، ورسائلهم لأمراء الجند في ساحات القتال[4]، وتزويد القادة بالتوجيهات والخطط الحربية[5]، والمحاسبة واللوم وإقامة الحدود[6]، ومن رسائلهم أيضاً العهود كالعهد الذي قُدم لأهل بيت المقدس[7]، ورسائلهم للدعوة إلى تقوى الله[8]، ورسائل لوضع خطط حربية[9]، ورسائل لتولية الأمراء على الحكم[10]، ورسائل لعمال الخلفاء في الأقاليم[11]، وهكذا فإن الرسائل في عصر الخلفاء تعمل على وضع أساس لمبادئ الدين وتوطيد وجوده والسعي لنشره في البلاد. حيث تميزت الرسائل في عهد الخلفاء بأنها تسعى لوضع وتأسيس مبادئ الدين الإسلامي، وإصلاح وتغيير المجتمع[12].

ومع بداية العصر الأُموي واتساع الفتوحات وتفرق الولاة والعمال في الأقطار، أصبحت الدولة في حاجة لتبليغ الولاة والعمال أموراً كثيرة تتعلق بالسياسة، أو الإدارة فوجبت الرسائل[13]، ووجب ظهور الديوان الذي يساعد على تنظيم الحياة السياسية، فانتشرت الدواوين في الأقاليم والأمصار وأصبح لكل والٍ كاتب، وتنوعت مهام الدواوين وأغراضها لتواكب الارتقاء والتطور في نُظم الحياة الاقتصادية

---

(1) ينظر: العصر الإسلامي، 132.

(2) ينظر: جمهرة رسائل العرب، 188/1، 176، 171.

(3) ينظر: السابق، 146/1، 133، 116.

(4) ينظر: تاريخ الطبري: تاريخ الرسل والملوك، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، إبراهيم، دار المعارف، ط4، القاهرة، مصر، د.ت ، 245/4. و أيضاً شرح نهج البلاغة: لابن أبي الحديد، تحقيق محمد ابو الفضل إبراهيم، ، دار الجيل،ط1، بيروت، 1987م، 2/ 117.

(5) ينظر: جمهرة رسائل العرب، 122/1.

(6) ينظر: السابق، 125.

(7) ينظر: العصر الإسلامي، 132، 133.

(8) ينظر: جمهرة رسائل العرب،148/1.

(9) ينظر: السابق، 122/1.

(10) ينظر: السابق، 121/1، 222.

(11) ينظر: تاريخ الطبري، 245/4، 244، 100.

(12) ينظر: الأدب في موكب الحضارة: شوقي ضيف: ط5، القاهرة، 1968م، 227.

(13) ينظر: تاريخ الأدب العربي: عمر فروخ، دار العلم للملايين، ط4، بيروت، لبنان، 1981م، 374/1.

والسياسية والعسكرية[1]، ومن ثَم كان الديوان عاملاً مهماً من عوامل وجود الرسائل مع وجود عدد كبير كبير من كُتاب الرسائل أصحاب الفصاحة والبيان، فقد كانوا كُتاباً محترفين[2].

وترى الباحثة أن تخصيص ديوان للرسائل في العصر الأموي دليل على ارتقاء الرسائل في هذا العصر [3].

ومن رسائل العصر الأموي: رسائل الدعوة لتقوى الله عز وجل[4]، وطلب الصلح[5]، والدعوة للعودة لصف المسلمين وتهديد من خرج عنهم[6]، ورسائل الخليفة لعماله[7]، ورسالة لأهل العلم[8]، ورسائل للجند[9]، وتقديم نصائح حربية[10]، ولقد ظهر في العصر الأموي نوع جديد من أنواع الرسائل مثل الرسالة الوعظية كرسالة إمام الرسائل الوعظية الحسن البصري إلى عمر بن عبد العزيز [11].

ومع بداية العصر العباسي نشطت الرسائل السياسية نشاطاً واسعاً، ومما ساعد على ذلك كثرة الدواوين، فديوان للجيش وديوان للرسائل و...[12]. مع حاجة الدولة للتواصل مع الرعية أو حاجتها لشرح موقفها من قضية عامة[13]، مع توافر مئات من أصحاب الأقلام ذوي المهارة الأدبية والعقلية الذين تقلدوا أرقى المناصب واعتُمد عليهم في تسيير أمور الدولة.

---

(1) ينظر: نقد النثر، 270.

(2) ينظر: الفن ومذاهبه، 103، 102.

(3) ينظر: السابق، 99.للاستزادة : الأدب الأموي: إبراهيم على أبو خشب، الهيئة المصرية للكتاب د.ط، الإسكندرية مصر ، 1977م، 169.

(4) ينظر: جمهرة رسائل العرب، 27/2، 12.

(5) ينظر: السابق، 2/2.

(6) ينظر: السابق، 31/2.

(7) ينظر: السابق، 304/2.

(8) ينظر: السابق، 306/2.

(9) ينظر: السابق، 307/2.

(10) ينظر: صبح الأعشى في صناعة الإنشاء: القلقشندي، وزارة الثقافة، المؤسسة المصرية العامة للتأليف،د. ت ، د . ط ،195/1.

(11) ينظر: العقد الفريد: ابن عبد ربه، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1404هـ، 44/1.

(12) ينظر: العصر العباسي الأول: شوقي ضيف، دار المعارف، ط.8 ،مصر: 1972م، 466، 465، وأيضاً فنون النثر في الأدب العباسي: محمود صالح، دار جرير، ط2عمان، الأردن: 2006م، 81.

(13) ينظر: الرسائل الفنية في العصر العباسي: محمد الدروبي، دار الفكر، ط1، عمان، الأردن،1999، 13، 14 .

مع توافر مقومات وأدوات الكتابة كالوضوح الجمالي الفني وعذوبة الأداء مع الاطلاع على طائفة من المعارف[1]. و الاهتمام والاحترام الذي حظيت به الكتابة لدى عامة الناس وخاصتهم[2]، ومن رسائل العصر العباسي: رسائل العهود والمبايعات[3]، ورسائل الأمان[4]، طلب الهدنة والمصالحة[5]، ورسائل الإنذار وطلب الطاعة[6]، ورسائل الخلفاء إلى الولاة والحكام والعمال في تصريف شؤون الدولة[7]، رسائل التهديد والوعيد[8]، رسائل الفتوح والتبشير بها[9]، رسائل الإصلاح[10]، الإصلاح[10]، وغير ذلك من الأغراض المتصلة بالجوانب السياسية الداخلية والخارجية[11].

ومما تقدم ذكره وُجد أن فن الرسائل في العصر العباسي له مكانة مرموقة بين فنون الأدب، وأهمية كبرى في الحياة السياسية والعسكرية.

وبالانتقال إلى العصر الأندلسي وُجد أن الرسائل هي من أهم فنون النثر في العصر الأندلسي، وذلك كون كُتّاب الرسائل من فرسان الشعر الأندلسي، حيث استخدموا مواهبهم الشعرية وذوقهم الأدبي للارتقاء بأساليب تعبيرهم والتفنن به، وتنوعت الرسائل في شتى المجالات منها الرسائل السلطانية التي كانت تصدر عن ديوان الخليفة موجهة للعمال والقادة والأعداء[12]، ورسائل الأمان[13]، والمبايعة[14]، والبشائر[15].

---

(1) ينظر: العصر العباسي الأول، 466، 465.

(2) ينظر: فنون النثر في الأدب العباسي، 81.

(3) ينظر: جمهرة رسائل العرب، 194/3.

(4) ينظر: السابق: 12/4، 13،وأيضاً: صبح الأعشى، 433/6.

(5) ينظر: السابق، 11/7.

(6) ينظر: جمهرة رسائل العرب، 277/3.

(7) ينظر: السابق، 206/3.

(8) ينظر: السابق، 277/3.

(9) ينظر: نقد النثر، 271.

(10) ينظر: السابق، 271.

(11) ينظر: السابق، 271.

(12) ينظر: الأدب العربي في الأندلس، 448، 449.

(13) ينظر: السابق،450.

(14) ينظر: السابق،451، 452.

(15) ينظر: السابق،452، 453، وأيضا: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ،أحمد بن محمد التلمساني، تحقيق إحسان عباس ،دار صادر، د. ط، بيروت لبنان،1988، 112/8، 113.

والفتوحات واستعادة البلاد[1]،ورسائل الاستغاثة [2]،والمعاهدات[3]، ورسائل الإمام الغزالي إلى أمير المؤمنين يوسف بن تاشفين[4]، رسائل تقريع القادة والجند عقب الهزيمة وأخذ المدن[5]، رسائل خاصة بشؤون المدن[6]، رسائل الأمير للفقهاء والوزراء[7]، رسائل الأوامر والوصايا[8].وقد ازدهر فن الرسائل الرسائل السياسية في العصر الأيوبي ازدهاراً ملحوظاً وكان من أشهر كتابها القاضي الفاضل ،ومن تلك الرسائل رسالة أرسلها صلاح الدين الأيوبي إلى الخليفة العباسي في بغداد [9]، ورسالة أخرى للقاضي الفاضل يصف الحروب والجيوش وأحداث المعركة[10]، وبشارة بفتح القدس كتبها القاضي الفاضل يبشر بذلك [11].

ثانياً : نشأة الرسائل الاجتماعية:

لقد نشأت الرسائل الاجتماعية في عصر الفتوحات الإسلامية[12]،حيث إن تفرق العرب في البلاد الإسلامية جعلهم يتكاتبون في مهامهم وشؤنهم الخاصة. كالتهاني والتعازي، والعظة والعبرة[13]. ومن عوامل نشأتها أيضاً انتشار الكتابة وتوافر أدواتها[14]، وتؤيد الباحثة ذلك، حيث وجدت رسالة

---

(1) ينظر: صبح الأعشى،47/7، 52 .و أيضاً: نفح الطيب، 112/8، 113.

(2) ينظر: الأدب العربي في الأندلس، 469.

(3) ينظر: نفح الطيب، 4/7، 5. وأيضاً الرسائل الديوانية :عبد الحليم الهروط ،دار جرير ،ط1،عمان الأردن،2006، الأردن،2006، 104.

(4) ينظر: دولة الإسلام في الأندلس: محمد عنان، مكتبة الخافجي، ط2، القاهرة، مصر، 1990م، 530.

(5) ينظر: السابق، 545، وأيضاً: نفح الطيب، 5/ 377، 382، 384، 251.

(6) ينظر: دولة الإسلام في الأندلس، 547.

(7) ينظر: السابق، 548.

(8) ينظر: السابق، 552.

(9) ينظر: صبح الأعشى،490/6.

(10) السابق 498/6،495.

(11) السابق: 502/6،501.

(12) ينظر: الفن ومذاهبه في النثر، 104، وأيضاً: تاريخ الترسل النثري عند العرب في صدر الإسلام، 73.

(13) ينظر: الفن ومذاهبه، 105.

(14) ينظر: نقد النثر، 276.

تعزية أرسلها الرسول –صلى الله عليه وسلم– إلى معاذ بن جبل معزياً له بابن مات له[1]، ورسالة مهاداة وطلب المودة[2]، ورسالة دعوة لصلة الرحم[3]، ورسالة للمصاهرة وطلب الزواج[4].

ورسائل اللوم والعتاب[5]، والحث على تعلم القرآن[6]. ومع ظهور العصر الأموي تطورت الرسائل الاجتماعية على نحو بارز، بحكم الوضع الاجتماعي السائد والذي يتطلب تهنئة أو تعزية أو عتاباً أو اعتذاراً[7]. مع وجود كُتّاب الرسائل الإخوانية في الحقب الزمنية التي أخذ البلغاء يهتمون بتنميق أساليبهم وإيداعها ضروباً من البيان والفصاحة[8]، ومن موضوعات رسائل هذا العصر التهنئة بالمولود[9]،

تهنئة بالزواج[10]، تهنئة العيد[11]، تهنئة بقدوم من سفر[12]، تهنئة بولاية[13] تهنئة بالصحة بعد السقم[14]، وترى الباحثة أن كثرة هذه الرسائل في العصر الأموي ما هو إلا دليل على اهتمام المسلمين بالرسائل الاجتماعية لتكوين العلاقات الاجتماعية وتوطيدها بينهم.

---

(1) ينظر: صبح الأعشى، 15/9، و أيضاً الوثائق السياسية للعصر المملوكي، محمد حمادة، مؤسسة الرسالة، ط1،سوريا،1980، 489، 490.

(2) ينظر: السابق، 76.

(3) ينظر: السابق، 75، 76.

(4) ينظر: طبقات ابن سعد فهرس الأعلام للمترجمين في الطبقات الكبرى لابن سعد، محمد الأدلبي ،بيروت مؤسسة الرسالة،1986م،259/1، وأيضاً الوثائق السياسية، 495، 294.

(5) ينظر: جمهرة رسائل العرب، 114/1، 115.

(6) ينظر: الوثائق السياسية، 510.

(7) ينظر: العصر الإسلامي، 463

(8) ينظر: الفن ومذاهبه، 111.

(9) ينظر: جمهرة رسائل العرب،55/3، وأيضاً صبح الأعشى، 59/9، وأيضاً يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر لأبي منصور الثعالبي ،تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ،دار الفكر، د. ط، بيروت،د.ت،286/1.

(10) ينظر: جمهرة رسائل العرب،107/3 وأيضاً صبح الأعشى، 54/9.

(11) ينظر: جمهرة رسائل العرب،305/4 .

(12) ينظر: جمهرة رسائل العرب،306/4، وأيضاً صبح الأعشى، 33/9.

(13) ينظر: السابق،16/9، 21، 22.

(14) ينظر: السابق، 63/9.

وفي العصر العباسي قد نمت الرسائل الإخوانية نمواً سريعاً، و مما ساعد على ذلك عدة أمور منها:

ظهور طبقة متميزة من الكُتّاب الذين يجيدون الكتابة الإخوانية إجادة رائعة كونهم كانوا من كتبة الدواوين و لديهم الثقافة المتنوعة التي تساعدهم على تنميق كتاباتهم، بالإضافة إلى مرونة النثر وقدرة الكاتب على الكتابة به أكثر من الشعر لعدم تقيدها بالوزن و القافية[1]، و الحياة الاجتماعية وعلاقاتها التي عاشوها كانت لهم دافعاً كبيراً لكتابة الرسائل الإخوانية[2]، وقد تجلت في العصر العباسي مظاهر اجتماعية كثيرة كالتهنئة و التعزية و الدعوة....، دفعت الكُتّاب للاهتمام بها وكتابتها[3]، ولقد كثرت الرسائل الإخوانية في العصر العباسي و تنوعت بشكل واضح و منها التهنئة[4]: تهنئة بمولود[5]، تهنئة بترقية أو منصب[6]، تهنئة بزواج[7]، تهنئة بعيد[8]، تهنئة بغرة السنة[9]، تهنئة قدوم من سفر[10]، رسائل الشكر[11]، رسائل الاعتذار[12]، رسائل تعزية[13]، رسائل الصفح[14]، رسائل للأصدقاء والإخوان[15]، رسائل الشوق[16]، رسائل اللوم والعتاب[17]، رسائل المهاداة وطلب المودة[18]، رسائل الوصايا[19]، و هكذا بعد هذه الأنواع يُلاحظ اهتمام الكُتّاب في العصر

---

(1) ينظر: العصر العباسي الأول، 491

(2) ينظر: نقد النثر، 276

(3) ينظر: العصر العباسي الأول ،502 ،وأيضاً الرسائل الفنية في العصر العباسي، 213

(4) ينظر: جمهرة رسائل العرب، 55/3، 308/4، وأيضاً: يتيمة الدهر، 286/4، أيضاً: صبح الأعشى، 59/9، 60 60

(5) ينظر: جمهرة رسائل العرب، 3/ 429، 339

(6) ينظر: صبح الأعشى، 22/9، 23

(7) ينظر: جمهرة رسائل العرب، 3/ 107

(8) ينظر: السابق، 4/ 305

(9) ينظر: صبح الأعشى، 9/ 39

(10) ينظر: السابق، 9/ 34 و ينظر أيضاً: جمهرة رسائل العرب، 306/4

(11) ينظر: السابق، 4/ 31، 116، وأيضاً السابق، 3 /72، 345، 377، وأيضاً صبح الأعشى، 184/9

(12) ينظر: جمهرة رسائل العرب، 4/ 145، 254، وأيضاً السابق، 3/ 160، 372، 378

(13) ينظر: السابق، 4/، 25، 28، 31، 255، 256، 306، 307، 262.و أيضاً: يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر ،أبو منصور الثعالبي ،تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ،دار الفكر ،بيروت ،د، ط د، ت ، 4/ 286

(14) ينظر: جمهرة رسائل العرب، 4/ 49.

(15) ينظر: السابق، 4/ 14، 247، 250، 251، 252، 287.

(16) ينظر: السابق، 15/4، 253، 310، وأيضاً: السابق، 3/ 380.

(17) ينظر: السابق، 3/ 101، 381، و أيضاً: السابق ، 4/ 41.

(18) ينظر: السابق، 4/ 51، 259.

(19) ينظر: السابق، 2/ 307، أيضا: السابق، 4 / 313، وأيضاً السابق، 430/3.

العباسي بالرسائل الاجتماعية لتوطيد العلاقات فيما بينهم . كما أن الرسائل الإخوانية لها وجود في العصر الأندلسي لا يقل أهميةً عن العصور السابقة، و لقد كثرت أنواعها و منها التهاني: كتهنئة باستعادة مدينة الإسكندرية من أعدائهم[1]، تهنئة بالشفاء من المرض[2]، رسالة عتاب صديق[3]، رسالة رسالة شكوى[4]، رسائل الشوق[5]، رسائل التعازي[6]، و قد ظهر نمط جديد و هو الرسائل النبوية التي التي كان يرسلها الأندلسيون إلى ضريح الرسول-صلى الله عليه وسلم- يستجيرون به من خطر النصارى و سقوط الأندلس بأيديهم[7]، وتهنئة بالولاية[8]، رسائل شكر بين الأصدقاء[9]، ورسائل الاعتذار [10].

وهكذا ومن خلال هذه الأنواع للرسائل نتعرف منها على الوضع الاجتماعي السائد في العصر الأندلسي وما فيه من ترابط ومحبة وإخاء ومجتمع متماسك اجتماعياً.

كما وازدهر فن الرسائل الاجتماعية في العصر الأيوبي بشكل ملحوظ ومن تلك الرسائل تهنئة بولد كتبها القاضي الفاضل لصلاح الدين يوسف بن أيوب[11].

---

(1) ينظر: صبح الأعشى، 8/ 108، و ريحانة الكتاب وتحفة المنتاب ،لسان الدين بن الخطيب، مكتبة الخفاجي،د.ط،القاهرة،1980، 1 / 295.

(2) ينظر: السابق، 1 /318.

(3) ينظر: الأدب العربي في الأندلس، 456

(4) ينظر: السابق، 456، 457.

(5) ينظر: السابق، 458.

(6) ينظر: ريحانة الكتاب ، 1 / 326.

(7) ينظر: ريحانة الكتاب، 1/ 57، و أيضاً: صبح الأعشى، 9/ 458.

(8) ينظر: ريحانة الكتاب، 1 /244.

(9) ينظر: السابق، 1/ 404.

(10) ينظر نفح الطيب، 1/ 71.

(11) صبح الأعشى :175/8.(11)

المبحث الثاني

البيئة العامة للعصر المملوكي

يعد العصر المملوكي فترة مفصلية في التاريخ الإسلامي، فهو من أجّل العصور، وقد تطور هذا العصر تطوراً حضارياً وعلمياً كبيراً، كيف لا وقد كان العصر المملوكي عصر الموسوعات العلمية، واتصف علماؤه ومصنفوه بالموسوعيين، فألفوا كتباً في الأدب والفقه والطب والتاريخ، فكثير من الكتب والموسوعات ترجع لذلك العصر.

بدأ العصر المملوكي حين تولت شجرة الدر مقاليد الحكم في القاهرة، بعد مقتل توران شاه ابن الصالح نجم الدين عام (648هـ – 1250م).[1] وقد قسّم المؤرخون العصر المملوكي إلى مماليك بحرية ومماليك برجية.

المماليك البحرية من (648 – 784 هـ) ومدتها 136 سنة والمماليك البرجية من (784 – 923هـ)ومدتها138 سنة .[2]

أصل المماليك:

يُعرّف المملوك لغة بأنه: "العبد الذي سُبي ولم يُمْلَك أبواه"[3] وفي التاريخ الإسلامي أُطلق اسم المماليك اصطلاحاً على "فئة من الرقيق الأبيض"، كان الخلفاء وكبار القادة والولاة في دولة الخلافة العباسية يشترونهم من أسواق النخاسة البيضاء، لاستخدامهم كفرق عسكرية خاصة، بهدف الاعتماد عليهم في تدعيم نفوذهم"[4].

---

(1) ينظر: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة: جمال الدين بن تغري بردى: تقديم وتعليق محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، لبنان، 1992م، 6/ 322.

(2) نهر الذهب في تاريخ حلب: كامل بن حسين الحلبي: دار القلم، ط2 حلب،1419هـ،191/3.

(3) لسان العرب، 4267/5.

(4) تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام: محمد سهيل طقوش: دار النفائس، ط1، ، بيروت، لبنان، 1997م، 150.

البيئة السياسية:

يرجع ظهور المماليك واستخدامهم في العالم الإسلامي إلى عهد الخليفة العباسي المأمون، ثم المعتصم؛ حيث اشتروهم من آسيا(1) وقد احتل المماليك مراكز عليا في عهدهما، ومما يؤكد ذلك ما ذكره الطبري في كتابه تاريخ الرسل والملوك أن مدينة طرطوس(2) قد عُمرت على يدي أبي سليم فرج الخادم التركي وذلك عام 170 هـ – 786م في عهد هارون الرشيد.(3)

وبعد وفاة المأمون تولى الخليفة العباسي المعتصم بالله الحكم، وبدأ بالاستكثار من وجود المماليك في العالم الإسلامي، وزاد عددهم، وبدأ الاعتماد عليهم في الدواوين، وقد ذُكر في كتاب السيوطي أن المعتصم: "هو أول خليفة أدخل الأتراك الديوان، وكان يتشبه بملوك الأعاجم، ويمشي مشيتهم، وبلغ غلمانه الأتراك بضعة عشر ألفاً..."(4)

وقد سار كثير من الخلفاء والأمراء على طريق المأمون والمعتصم لتقوية أنفسهم، حيث استخدمهم كل من الطولونيين والإخشيديين. ففي عصر الدولة الطولونية في مدة ولاية الأمير أحمد بن طولون على مصر عام (254هـ– 868م) بدأ الاعتماد على المماليك في الجيش، فالأمير أحمد هو"... أول من جلب المماليك الترك إلى الديار المصرية، واستخدمهم في عسكرها وقد استكثر من شرائهم حتى بلغ عددهم أربعة وعشرين ألف مملوك".(5)

وقد اعتمدت الدولة الإخشيدية على المماليك، كما اعتمدت عليهم الدولة الطولونية، حيث كان محمد بن طغج الإخشيد يمتلك ثمانية آلاف مملوك في مدة ولايته .(6)

---

(1) البداية والنهاية: إسماعيل بن عمر بن كثير: مكتبة المعارف، ط7، بيروت، 1988م، 10 /267، وينظر النجوم الزاهرة، 2/ 233.

(2) طرطوس: هي بلد تقع في بلاد الشام، تطل على البحر المتوسط قرب المرقب وعكا، ينظر: معجم البلدان: ياقوت الحموي، تحقيق فريد الجندي، دار الكتب العلمية،ط1، بيروت، لبنان، 1990م، 34/4.

(3) ينظر: تاريخ الرسل والملوك: أبو جعفر الطبري: تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم،ط6، دار المعارف، القاهرة – مصر، د. ت، 230/8.

(4) البداية والنهاية،297/10

(5) بدائع الزهور في وقائع الدهور: محمد بن أحمد بن إياس: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط2، القاهرة، 1982، 162/1.

(6) تاريخ الخلفاء: جلال الدين السيوطي: تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر، القاهرة، د. ت، 1/ 287.

وفي الدولة الأيوبيّة قد استكثر الأيوبيون من المماليك، الذين كان لهم فضل في استرداد بيت المقدس من الصليبيين سنة 1187م، على يد صلاح الدين الأيوبي.[1]

واستكثار المماليك زاد في العصر الأيوبي بعد وفاة صلاح الدين، حيث لم تتم المحافظة على الدولة وحكمها، بل نشأت الصراعات والحروب والاقتتال والتنافس على الحكم بين خلفائه، مما دفعهم لتكوين العصابات للمحافظة على الحكم، فقد سعوا لتحقيق ذلك بالإكثار من جلب المماليك ليقوّي كل واحد نفسه. [2] وفي عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب عام (644هـ – 1247م) رأى أن يثبّت مُلكه بجنود جدد، وبعد حكمه لمصر أكثر من شراء المماليك، حتى أصبح معظم جيشه من الأتراك، وقد حرص على تربيتهم تربية خاصة، واستغل المماليك بعد ذلك سطوتهم ومكانتهم عند الملك نجم الدين، فأخذوا بمضايقة الشعب، فضاق بهم الناس، واضطر لإسكانهم في قلعة الروضة وسماهم البحرية وقامت عليهم فيما بعد دولة المماليك الأولى.[3] وهم قبائل من منطقة بحر قزوين حتى جبال القوقاز.[4]

وتوفي الملك الصالح نجم الدين أيوب سنة 647هـ – 1249م، وقد لجأت شجرة الدر إلى إخفاء خبر وفاته، حتى لا تتأثر الروح المعنوية في البلاد، حيث كان الجند يحاربون الصليبيين في المنصورة فأرادت ألا يتفرق شملهم، وإذا سأل سائل ردت شجرة الدر:" بأن السلطان مريض ما يصل إليه أحد"[5]، وقد تولت هي الأمر واستدعت ابنه توران شاه. و بمجرد وصوله سلمته مقاليد الحكم، وقد استطاع الانتصار على الصليبيين ، وكان من المفروض أن يُقدّر توران ذلك الانتصار ويُكافئ

---

(1) ينظر: النجوم الزاهرة، 34/6،و ينظر: أيضاً: طومان باي آخر سلاطين المماليك في مصر: عبد المنعم ماجد، 1978 مكتبة الأنجلو، نسخة أخيرة، 12.

(2) ينظر: العصر المماليكي في مصر والشام: سعيد عبد الفتاح عاشور، مكتبة الأنجلو، ط3 ،1994م ، 9.

(3) ينظر: تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام: طقوش، 27/26.

(4) طومان باي، 27.

(5)السلوك لمعرفة دول الملوك: تقي الدين المقريزي، مطبعة لجنة التأليف والنشر ، ط2، القاهرة، 1957، 346/1.

المماليك على ذلك، لكنه أسَاء التصرف، وظن أن المماليك يريدون مقاسمته في الحكم[1] وعندما أساء معاملتهم تآمروا عليه وقتلوه وبموته انتهى حكم الأيوبيين في مصر.[2]

بعد مقتل توران شاه، فكر المماليك بالعمل الجدي للصعود إلى الحكم، فبدؤوا بتمهيد الطريق لذلك، وقرروا في البداية تتويج شجرة الدر حاكمة لمصر، وعز الدين أيبك التركي الأصل مقدم العسكر، وقد كانت شجرة الدر أول من حكم مصر من المماليك كما يقول المقريزي "... شجرة الدر أول من ملك مصر من ملوك الترك المماليك..."[3] وقد كانت شجرة الدر جارية الملك الصالح نجم الدين، وكانت تركية الجنسية وَلدت ابناً سمته خليل مات وهو صغير.[4]

وقد تولت الحكم بعد مقتل توران شاه لما عُرف عنها من حسن التدبير والحزم والعقل الرصين، حيث يقول ابن تغري بردى: "واتفقوا على ولايتها لحسن سيرتها ورصانة عقلها، وجودة تدبيرها"[5].

وظلت في الحكم إلى أن اعترض عليها الخليفة العباسي المستعصم ؛لأنها امرأة .حيث قال: "إن كان ما بقي عندكم رجل تولونه، فقولوا لنا نرسل لكم رجلاً"[6].

ولكي يستمر حكمها تزوجت شجرة الدر من عز الدين أيبك، ثم تولى مُلك مصر بعد أن كان قائداً للجيش.[7]

وبزواج عز الدين أيبك من شجرة الدر كانت بداية التدخل الواضح في الحكم من قبل المماليك، وقد كان موطدْ الأركان حازماً في سلطانه إلى أن تزايدت الوحشية بين الملك عز الدين أيبك وبين شجرة الدر فعزم على قتلها.[8]

---

(1) ينظر: العصر المماليكي، 15، 16.

(2) ينظر: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار: تقى الدين المقريزي، المكتبة الدينية الثقافية، ط2،القاهرة، 1987، 37، وأيضاً: السلوك، 361/1.

(3) السابق، 361/1

(4) الوافي بالوفيات: صلاح الدين الصفدي: تحقيق أحمد الأرناؤوط، تركي مصطفى، دار إحياء التراث، بيروت، لبنان، 2000م، 70/16.

(5) النجوم الزاهرة، 332/6.

(6) حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة: جلال الدين السيوطي: دار إحياء الكتب العربية، ط1، 1968،36/2.

(7) النجوم الزاهرة، 7/ 13.

(8) ينظر السلوك، 401/1.

لكنها سبقته في عزمه وقُتل على يد جواريها، بعد أن علمت عزمه على الزواج وأشيع خبر موته فجأة.[1]وبعد مقتل عز الدين أيبك اتهم مماليكه ومنهم سيف الدين قطز زوجته شجرة الدر بقتله، فقاموا بقتلها، وبإشارة من سيف الدين قطز ولى الأتراك الحكم، لنور الدين الملقب بالملك المنصور.[2]

وفي عام 656هـ ظهرت الفتنة في أهل بغداد، وكانوا في تناحر مستمر، كما قُتل الخليفة العباسي المستعصم على يد هولاكو بعد أن وعده بالأمان، وكان ذلك حدثاً جللاً، هز العالم الإسلامي، ويستغل المغول الفرصة ويندفعون حتى الحدود المصرية وقد عاثوا فساداً فقتلوا ونهبوا وسلبوا وحرقوا الكتب، وأرسلوا رسالة لسلطان المماليك يطلبون منه تسليم البلاد[3] .هنا تم الاتفاق على إعطاء منصب منصب السلطة للأمير قطز، ورأى أن الوقت قد حان للهجوم عليهم، فجهز نفسه لغزوهم، والتف حول عسكر الشام وتابعوه والتقى بجيشه مع التتار في عين جالوت وانتصر عليهم.[4]

بعد هذا الانتصار الذي حققه الملك قطز وهزيمته للتتار، فرح أهل دمشق به كثيراً واستقبلوه في موكب عظيم، واستمر المسلمون في تطهير بلاد الشام من المغول فاستردوا دمشق وحلب، ثم عاد الجيش إلى مصر، و قُتل السلطان قطز على يد الأمير بيبرس لمشكلة بينهما، ثم أصبح الظاهر بيبرس سلطاناً على البلاد.[5]

وعندما أقر ركن الدين بيبرس بقتله للملك المظفر قطز، صار الأمراء يخشون على تولية أنفسهم فيصيبهم ما أصاب غيرهم، ثم تربع الظاهر بيبرس سلطاناً على البلاد، وتم تجهيز مراسم فرح وزينة لمبايعته على الحكم.[6]

وبعد وفاة السلطان بيبرس تولى قلاوون الحكم، وكان من أعظم سلاطين المماليك، لما قام به من أعمال جليلة وفتوح، أهمها إخماد الفتن الرافضة الاعتراف بسلطنته والتي أثارها سنقر الأشقر نائب دمشق، وقام بعقد هدنة مع الصليبيين مدة عشر سنين ليتفرغ لهذه الفتن فأخمدها ثم بدأ يعمل على

(1) السلوك، 403/1.

(2) البداية والنهاية: اسماعيل بن كثير: تحقيق أحمد عبد الوهاب، دار الحديث، ط1، القاهرة، 1992، 203/13

(3)ينظر: النجوم الزاهرة، 22/7، 48.

(4) ينظر: الوافي بالوفيات، 189/24.

(5) ينظر: تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام، 83.

(6) ينظر: البداية والنهاية، 350/13، 353.

القضاء على المغول وهزمهم شر هزيمة.[1] وقد توفي المنصور قلاوون عام (689هـ – 1290م) بعد أن أذل التتار والفرنجة.[2]

وتبدأ الدولة المملوكية الثانية، وترجع أصول دولة المماليك الجراكسة _البرجية_ إلى الجيش الجركسي، حيث أُحضروا في عهد المنصور قلاوون من المناطق الواقعة شمال بحر قزوين بأسعار رخيصة، على الرغم من شجاعتهم وقوتهم فزاد الإقبال على شرائهم.[3]

وكان الملك المنصور قد أفرد من مماليكه ستة آلاف وسبعمائة مملوك من الأمراء الجراكسة، وجعلهم بالقلعة، وسماهم البرجية[4]، وفي عهد الظاهر برقوق، تَّم السماح للجراكسة بالنزول من القلعة إلى القاهرة والسكن فيها، فأثاروا حالات الشغب والسلب والنهب، فانهار الجيش وفقد السلاطين السيطرة عليهم مع عدم قدرتهم على إعادة الأمن للبلاد، مما أدى إلى تدهور سلطة الدولة بسبب عجز سلاطين الدولة عن ردعهم، والقضاء على الفتن والمنازعات بين طوائف المماليك. ومع ذلك حرص سلاطين المماليك الجراكسة على حصر صراعاتهم في الداخل ولم يسمحوا للقوة الخارجية أن تتدخل في شؤون بلادهم، وظلت المحاولات مستمرة للقضاء عليهم، وإنزال أقسى الضربات بهم[5].

كما خاض المماليك في بداية الدولة البحرية معركة عين جالوت و استطاعوا القضاء على الزحف المغولي، ثم مواصلتهم للقتال ضد الصليبيين والمغول إلى أن تمكنوا من تحرير الكثير من سواحل الشام، كذلك في دولة الجراكسة استطاع المماليك الجراكسة التصدي للحروب الصليبية المتواصلة، وتمكنوا من إخضاع الحجاز لسلطتهم.[6]

حكم الجراكسة حتى سقوط دولة المماليك عام (923هـ – 1517م)، واستعانوا في حكمهم بالمماليك المجلوبين كباراً؛ الذين لم يتم تقويمهم والعناية بتربيتهم، منذ الصغر كما كان مماليك الدولة

---

(1) ينظر: عصر سلاطين المماليك: التاريخ السياسي والاجتماعي، قاسم عبده قاسم: عين للدراسات، ط1، الهرم، 1998م، 117 ، 118.

(2) بدائع الزهور، 361/1.

(3) ينظر: صبح الأعشى، 58/4، وأيضاً: عصر سلاطين المماليك: قاسم، 142. وأيضاً طومان باي، 28.

(4) المواعظ والاعتبار، 2/ 214.

(5) ينظر: العصر المماليكي، 159 ،160.

(6) ينظر: حياة الحيوان الكبرى: كمال الدين الدميري، دار الكتب العلمية، ط2، بيروت، لبنان، 1424هـ، 3/1، 4.

الأولى، مما ساعد على سقوط الدولة، بالإضافة للفتن والمؤامرات الداخلية التي لم تتوقف طوال عصر المماليك وقد زادت حدتها في الدولة الجركسية.[1]

وينتهي العصر المملوكي عند أغلب المؤرخين بدخول السلطان العثماني سليم الأول القاهرة عام (923هـ - 1517م)، وانتصاره على طومان باي في معركة الريدانية.[2]

البيئة الاقتصادية:

إن البيئة الاقتصادية التي كانت سائدة في العصر المملوكي، تعكس الظروف السياسية السائدة، وبسبب الفتن والمؤامرات الداخلية والخارجية كان هناك حاجة ملحة لتنمية القوة العسكرية لمواجهة الأعداء، فاتجه المماليك لتقوية الجيش المملوكي عن طريق شراء المماليك الجدد بشكل واسع، وقد كانت الوسيلة لإعالة جيوش المماليك الاعتماد في إدارة البلاد على الإقطاعات، وذلك بتقسيم الأرض الزراعية في مصر على أربعة وعشرين قيراطاً، أما عن تقسيم الأرض فيقول ابن خلدون: " ... كانت مصر مقسمة على أربعة وعشرين قيراطاً أربعة منها للسلطان والرواتب، وعشرة للأمراء، والزيادات، وعشرة للأجناد، فصيّروها عشرة للأمراء والإطلاقات والزيادات والأجناد، وأربعة عشر للسلطان فضعف الجيش...."[3].

فقد ضعف الجيش بسبب تقليص الإقطاعات التي تُقدم له، مما ساعد على إثارة الفتن ومنع الحقوق، ثم انقسم المجتمع المصري إلى طبقتين:-

"طبقة من الحكام العسكريين لهم كل الامتيازات والحقوق ويملكون الأراضي الزراعية كلها، في مقابل الرعية التي اقتصر دورها على الإنتاج ودفع الضرائب، ولم يكن من حق أفرادها أن يشاركوا في

(1) ينظر: عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي: محمود رزق سليم: مكتبة الآداب، المطبعة النموذجية، ط2، 1962م، 1 /41.

(2) ينظر: جواهر السلوك في أمر الخلفاء والملوك: ابن إياس، تحقيق محمد زينهم، الدار الثقافية، ط1، 2006، القاهرة، 413،415وأيضاً: موسوعة التاريخ الإسلامي: العصر المملوكي، مفيد الزيدي، دار أسامة، عمان، الأردن، 2006، د. ط، 308.

(3) تاريخ ابن خلدون: ابن خلدون: تحقيق خليل شحادة، دار الفكر، ط2، بيروت، لبنان، 1988م، 470/5.

مسؤوليات الحكم والإدارة، وقد انعكس ذلك بطبيعة الحال على شكل النشاط اليومي في الحياة المصرية في ذلك الوقت.[1]

وكانت الزراعة أهم مصدر من مصادر اقتصاد الدولة المملوكية ؛وذلك بسبب اهتمام أصحاب الحكم في دولة المماليك بتطوير الزراعة، والعمل على زيادة الأراضي الزراعية. بالإضافة إلى أن البيئة كانت مناسبة لزراعة كثير من المحاصيل، وقد اعتمدت الزراعة على النيل فتزدهر بوفائه[2]، وكمية الضرائب تقدر تبعاً لحالة نهر النيل.[3]

أما عن الصناعة فقد ازدهرت الحرف والصناعات بأنواعها في العصر المملوكي، وتناسبت مع طبيعة النظام السياسي والعسكري، مما ساعد على نشأة الصناعات الحربية كصناعة المراكب والسفن والأسلحة من رماح وسيوف ومجانيق. كما تناسب مع النظام الاجتماعي الطبقي، حيث فرض ذلك النظام تطور صناعة الأطعمة والحلويات والملابس والزخارف، بما يتناسب مع مظاهر حياة الرفاهية التي كانوا يعيشونها.[4]

ولقد كثرت الأسواق نتيجة للنمو السكاني الذي ارتفع مع زيادة عدد الجنود المماليك المجلوبين إلى البلاد، وكان لكل مدينة أسواق واكتظت تلك الأسواق بالبضائع، [5] وتنوعت الأسواق في العصر المملوكي بتنوع البضاعة ومن تلك الأسواق : سوق باب الفتوح لبيع أنواع اللحوم، وسوق الدجّاجين لبيع الدجاج والطيور، دار الفاكهة، سوق الحلاويين، سوق الأباريين لبيع لوازم الخياطة، سوق الجوخيين لبيع الملابس الجوخ المستوردة من أوروبا، سوق المُرحَلين لبيع لوازم السفر، سوق الصنادقيين لبيع الصناديق، سوق الحارة فيه كل المستلزمات بما يغني عن الخروج من الحارة وغيرها كثير.[6]

---

(1) ينظر عصر سلاطين المماليك: قاسم، 314، 316.

(2) ينظر: المواعظ والاعتبار 270/1، وأيضاً: بدائع الدهور ، 363/1.

(3) ينظر: النيل والمجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك: قاسم عبده قاسم: دار المعارف، القاهرة، ط1، 1978، 21.

(4) ينظر السلوك526/1.وأيضاً: ينظر: عصر سلاطين المماليك، قاسم، 312.

(5) ينظر: السابق، 314.

(6) ينظر: أسواق مصر في عصر سلاطين المماليك: قاسم عبده قاسم: مكتبة سعيد رأفت، القاهرة، 1978م،7، 16.

وقد احتل التجار مكانة رفيعة عند السلاطين وقد ارتبطوا بطبقة الحكام، وقد كانت الدولة المملوكية همزة وصل بين التجار في الشرق والغرب وقد كانت هذه التجارة تجلب الأرباح الطائلة للدولة، لذا كانت معاملة التجار أفضل معاملة.[1]

وقد اهتم سلاطين المماليك بالنشاط التجاري، وشجعوا على جلب البضائع من الخارج، وقد شيدوا العمارات والقصور الفخمة، وأنشأوا المرافق التجارية ليستريح فيها التجار في حلّهم وترحالهم وقدّموا كافة التسهيلات للتجار.[2]

إن التطور التجاري انعكس على حياة الوزراء والأمراء والسلاطين؛ فشيدوا القصور الفخمة وزينوها، وأسرفوا في ذلك، وأكثروا من اقتناء الحلي والمجوهرات وأكثروا من عدد الجواري والخدم، وقد كثر الرخاء وأكثروا من الهدايا والعطايا والهبات.[3]

ومع اضطراب الأوضاع في أواخر الدولة المملوكية كان ذلك سبباً لكساد الأسواق وانهيار النظام الاقتصادي، ومما ساعد على ذلك أيضاً قيام الحكومة بخفض قيمة العملات المتداولة في الأسواق من أجل تحقيق مكاسب عالية للسلطان، [4] والضرائب الباهظة التي فُرضت على التجار، مما مما أدى إلى رفع الأسعار لتحصيل الضرائب الذي ساعد على كساد الأسواق، [5] بالإضافة إلى تدخل تدخل حكام المماليك ورفع أسعار البضائع من خلال احتكار السلاطين والأمراء للغلال، كان هذا سلاحاً ساعدهم في التحكم في الأسعار[6].

---

(1) ينظر: تاريخ المماليك في مصر والشام، طقوش: 551.

(2) ينظر: السلوك: 17/2، وينظر: العصر المماليكي في مصر والشام، عاشور: 298، وأيضاً موسوعة التاريخ الاسلامي، الزيدي241.

(3) ينظر: السلوك: 305/3، 322.

(4) ينظر: موسوعة التاريخ الإسلامي، الزيدي، 304، 306.

(5) ينظر: أسواق مصر في عصر سلاطين المماليك: قاسم: 41.

(6) ينظر: السابق: 40.

البيئة الاجتماعية:

انقسم المجتمع المملوكي إلى فئتين بارزتين هما: الفئة الخاصة التي شملت رجال الدولة كالملوك ومعاونيهم والوزراء وكبار موظفي الدولة، وقيادات الجيش والعلماء والفقهاء الذين اتصلوا بالسلطة الحاكمة. وقد نال الفقهاء والعلماء مكانة مرموقة.

أما الفئة الثانية فهي فئة العامة التي شكلت الطبقة الكبرى، وتضم التجار والصناع وأرباب الحرف الأخرى، والفلاحين الذين يعملون عند كبار رجال الدولة.[1]

وقد كانت فئة المماليك من أغنى طبقات المجتمع، حيث يعيشون في ثراء فاحش، مما دل على ذلك الأموال الطائلة والمماليك والخيول والبغال والجمال والثياب والأواني والفواكه التي كانت تقدم هديةً للبقاء في منصب أو الرغبة في الحصول على نيابة أو ولاية إحدى المدن.[2]

وفي ظل النظام الاجتماعي السائد، كان هناك أهم رابطتين تربطهم ببعضهم: رابطة الأستاذية، وهي تربط المملوك بسيده الذي اشتراه منذ صغره، وأعتقه في كبره ليشق طريقه، وأثبت نفسه على مسرح الأحداث. ورابطة الخشداشية، وهي رابطة الزمالة التي تربط المماليك ببعضهم وتعد من أقوى الروابط؛ لأنها تقوم على رباط العاطفة بين جميع المماليك الذين نشأوا في كنف أستاذ واحد نُسبوا إليه كالظاهرية نسبة إلى الظاهر.[3]ولم تشارك هذه الطبقة في حياة الشعب العامة إلا في المواكب والأعياد والاحتفالات الدينية.

وبعض أبناء المماليك الذين لم يمسهم الرق كآبائهم، فقد كانوا يمضون وقت فراغهم في ممارسة بعض الألعاب والرياضة كالفروسية ولعب الكرة ورمي الرماح، وقد جعلتهم الثروة التي تُركت لهم يعيشون حياة بعيدة عن حياة الطبقة الحاكمة، ومن هؤلاء الأبناء والذين شاركوا في الحياة الثقافية جمال الدين بن تغري بردى صاحب النجوم الزاهرة.[4]

---

(1) ينظر: صبح الأعشى، 14/4، 39، وأيضاً: ينظر: الأدب العربي بين عصرين المملوكي والعثماني: نبيل أبو علي، دار المقداد غزة، 2007، 28. وأيضاً: حياة الحيوان الكبرى، 4/1

(2) ينظر: النجوم الزاهرة، 11/ 196.

(3) ينظر: المغول بين الانتشار والانكسار: علي محمد الصلابي: دار الأندلس الجديدة، ط1، مصر، 2009م، 271.

(4) ينظر: السلوك280/3، وأيضاً: ينظر: العصر المماليكي: عاشور: 319، 320.

ومن الناحية الدينية حرص المماليك على الحفاظ على مظاهر الحياة الإسلامية كونهم مسلمين، فقد تربوا تربية إسلامية خالصة، فاهتموا بكتابة القرآن وتزيين صفحاته بزخارف ملونة، وأُبطلت الكثير من الملاهي، وأُغلقت أماكن الخمر، وحوربت المذاهب المناهضة للمذهب السُني، الذي تعرض لمكائد عديدة من أصحاب هذه الحركات الهدامة.(1) و قد اهتم المماليك بتقريب علماء الدين منهم، ليأخذوا الفتاوى منهم، وقد كانت لهم مكانة اجتماعية عالية في هذا العصر.(2)

وبالرغم من الازدهار الاجتماعي السائد في العصر المملوكي، إلا أنه لم يستمر، فقد تعرض لأوقات عصيبة أليمة أثرت على طبقات المجتمع، فبالإضافة للمنازعات والحروب التي فُرضت على السلطة، فقد انتشرت الأوبئة والكوارث الطبيعية التي أودت بالكثير من الناس، فاتجهوا للتضرع إلى الله عز وجل، ومن تلك الكوارث توقف نزول المطر؛ فزاد القحط والمجاعات.(3)

قد كان النيلُ عند عدم فيضانه ووفائه سبباً أساسياً في تفشي المجاعات بين أفراد المجتمع، وتزايد أعداد الفقراء، فيضطرون لبيع ممتلكاتهم من أجل الطعام والشراب، حيث إن توقف فيضانه ووفائه يؤدي إلى ارتفاع أسعار الغلال ويقل الخبز.(4)ومن ثم اضطربت حياة الناس وسادة الفوضى.

البيئة العلمية والثقافية:

شهد العصر المملوكي حركة علمية واسعة وازدهاراً ثقافياً في شتى المجالات، ومما ساعد على ذلك الظروف السياسية التي حلت بالعالم الإسلامي، وما أصاب بغداد من دمار وخراب نتيجة للغزو المغولي، فأصبح العلماء يتجهون لمصر والشام وتفاعلوا بالحركة العلمية فيهما، وأسهموا في إثراء المكتبة العربية بالموسوعات التي تم تأليفها في مختلف العلوم والفنون، وساعد النتاج العلمي والأدبي الذي ألفوه على تعويض الخسارة التي لحقت بالأمة على أيدي المغول.(5)

---

(1) ينظر: تاريخ الأدب العربي من مطلع القرن الخامس الهجري إلى الفتح العثماني: عمر فروخ: دار العلم للملايين، ط5، بيروت، لبنان، 1989م، 607/3، 608.

(2) ينظر عصر سلاطين المماليك: قاسم، 18، 19.

(3) ينظر العصر المماليكي: عاشور، 334، 335.

(4) ينظر النيل والمجتمع المصري: قاسم، 53، 55

(5) ينظر: الحركة الشعرية زمن المماليك في حلب الشهباء: أحمد الهيب، مؤسسة الرسالة، ط1، بيروت: 1986م، 73.

وقد اهتم سلاطين المماليك بتشجيع العلماء وتقريبهم من مجالسهم ومشاورتهم في كثير من القضايا، حيث كان الظاهر بيبرس يقرب منه العلماء وكان يميل للتاريخ وأهله ويقول: "سماع التاريخ أعظم من التجارب."[1]

وظهرت ثقافة سلاطين المماليك من خلال عنايتهم بأبناء جلدتهم من الناحية التربوية والثقافية والعلمية، وتنشئتهم تنشئة صارمة اعتمدت على التربية الدينية والتربية العسكرية. حيث يقول المقريزي في طرق تنشئتهم: "... إذا قَدم بالمملوك عرضه على السلطان ونزّله في طبقات جنسه وأول ما يبدأ به تعليمه ما يحتاج إليه من القرآن الكريم، وكانت كل طائفة لها فقيه، يحضر إليها كل يوم ويأخذ في تعليمها كتاب الله تعالى، ومعرفة الخط والتمرن بآداب الشريعة، وملازمة الصلوات والأذكار، وكان القانون إذ ذاك أن لا تجلب التجار إلا المماليك الصغار، فإذا شب الواحد من المماليك علمه الفقيه شيئاً من الفقه، فإذا صار في سن البلوغ أخذ في تعليمه أنواع الحرب من رمي السهام ولعب الرمح...، فيتسلم كل طائفة معلم حتى يبلغ الغاية في معرفة ما يحتاج".[2]

ويظهر اهتمام سلاطين المماليك بالعلم بفضل تقدير وإجلال العلماء وقد عُرف عن الملك الناصر محمد بن قلاوون أنه عارفٌ بالأمور يُعظم أهل العلم، ولا يقرر في المناصب الشرعية إلا من يكون أهلاً لها، ويتحرى لذلك ويبحث عنه ويبالغ.[3]

ولم ينس سلاطين المماليك ضمان الحياة الكريمة والدخل الذي يكفل للعلماء مستوى مرموقاً من العيش، حيث أنشأ الظاهر بيبرس مدرستين: شافعية وحنفية، جعل لكل مدرسة مدرساً له مائة وخمسون درهماً في الشهر، وجعل الملك المنصور قلاوون راتب المدرس في المدرسة مائتي درهم.[4]

وقد اتُخذت اللغة العربية لغة رسمية في عصر المماليك، على الرغم أن حكامها من الأعاجم إلا أنهم مسلمون، واهتمامهم بالدين الإسلامي، جعلهم يهتمون بلغة الإسلام، فأعطوا اللغة العربية عناية خاصة، واستعانوا بأبرع أهل اللغة: "المتعممين" ممن تخرجوا في المساجد وزاولوا المكاتبات

---

(1)النجوم الزاهرة: 7/ 182.

(2) المواعظ والاعتبار: 372/3 .

(3) حركة التأليف العلمي في مصر والشام في العصر المملوكي الأول: جلال يوسف العطاري: دار الفكر، ط1، الأردن، 2011م، 13.

(4)السابق: 14.

العربية في أعمال الدولة، مما ساعد على رواج العربية والفصحى داخل الدواوين، وظهور طبقة ممتازة من رجال اللغة والأدب والإنشاء.[1]وكثرت المدارس في عهد المماليك، وأُنشئت دور الكتب، واهتم سلاطين الدولة باختيار معلميها، واهتموا بالطلبة، فراج سوق التعليم واتسعت حركته.[2]

ويمتاز العصر المملوكي بأنه عصر الموسوعات العلمية والأدبية، فقد ظهرت طائفة من العلماء متخصصين في علوم مختلفة، ونشطت حركة التأليف في الكتب والموسوعات، ومن أشهر تلك الموسوعات :كتاب صبح الأعشى لأبي العباس القلقشندي، وكتاب مسالك الأبصار في ممالك الأمصار لابن فضل الله العمري، وكتاب نهاية الأرب في فنون الأدب لأحمد بن عبد الوهاب النويري، وقد أثرت التغيرات السياسية والفتن الداخلية والحروب على الحياة العلمية والثقافية. مع دخول اللغة العامية وقد اختلطت بالفصحى، ، ودخلت بعض الألفاظ الدخيلة، ومع هذا فقد شهد العصر المملوكي نشاطاً علمياً واسعاً في شتى الفنون والعلوم، حتى عُدت المؤلفات بعشرات الألوف في مدة زمنية لم تتجاوز ثلاثمائة عام، تعاقب خلالها على الحكم سلاطين أشداء، وجهوا هممهم إلى الحروب والجهاد، ولكنهم لم يغفلوا أبداً عن تشجيع العلوم وتقريب العلماء، فلا يخلو عصر أحد منهم من بناء جامع أو مدرسة أو مكتبة.[3]

---

(1) ينظر: الأدب العربي وتاريخه في عصر المماليك والعثمانيين والعصر الحديث: محمود رزق سليم، مطابع دار الكتاب العربي، 1957م، 13.

(2) ينظر الأدب العربي بين عصرين المملوكي والعثماني: أبو علي، 40.

(3) ينظر حياة الحيوان الكبرى، 1/ 6.

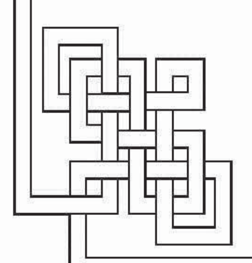


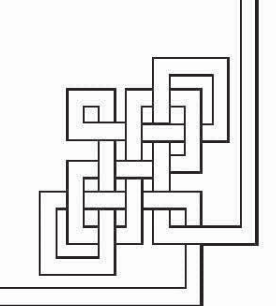
الفصل الأول

فن الرسائل في العصر المملوكي وأشهر كتابها

المبحث الأول: العوامل المؤثرة في حياة فن الرسائل و مكانتها.

المبحث الثاني: أشهر كتاب الرسائل في العصر المملوكي.





المبحث الأول

عوامل نشأة فن الرسائل ومكانتها

لقد تطور فن الرسائل في العصر المملوكي تطوراً ملحوظاً، ولامست رسائل هذا العصر مختلف مظاهر الحياة السياسية والاجتماعية والعلمية، وكانت مصدراً مهماً من مصادر النثر في هذا العصر. وقد قُسّمت عوامل نشأة فن الرسائل إلى عوامل سياسية وعوامل اجتماعية وعوامل علمية.

أولاً: العوامل السياسية:

1- اتساع أرجاء الدولة المملوكية، وكثرة الفتوحات التي حدثت في عهدها، كفتح طرابلس وأنطاكية وغيرها، فكانت الضرورة ملحة للرسائل لإرسالها، ونشر خبر الفتح والنصر والتبشير به، أو للتهكم والسخرية من العدو[1].

2- وظائف الدولة التي كانت متوافرة ويتنافس الأفراد للحصول عليها، فعند اعتماد شخص معين واختياره لوظيفة ما ، يتم كتابة رسالة حسب نوع الوظيفة، ويتم فيها تقليده هذا المنصب، وتقديم الوصايا له.[2]

3- كثرة الدواوين في الدولة، فمنها ما هو للجيش، ومنها ما هو للأموال، ومنها للإنشاء، فكانت الحاجة ملحة لاستخدام الرسائل لإنهاء أمورهم ومتطلباتهم وحاجاتهم.[3]

4- الحياة السياسية الرسمية التي عاشها السلاطين والأمراء والجند في حلهم وترحالهم، وسلمهم وحربهم، وحاجتهم الماسة لإصدار أوامر أو تعيين أمير أو عزل آخر، أو تهنئة بانتصار أو رسالة تهديد ووعيد فلم يكن لهم منفذ إلا عن طريق فن الرسائل.[4]

---

(1) ينظر الأدب في العصر المملوكي: فنون النثر، محمد زغلول سلام، منشأة المعارف، مطبعة المدني، الاسكندرية، د.ت، د. ط، 24، 28.

(2) ينظر: السابق، 29، 30.

(3) ينظر الأدب العربي وتاريخه: سليم ، 27.

(4) عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي، سليم، 80 .

5- وصول الملك أو السلطان إلى بلده بسلام بعد سفر، فتكتب البشائر تبشر بعودته وقدومه سالماً.[1]

6- طمأنة الملك على سير أمور الدولة على أكمل وجه، وقيام الأمير بمهام منصبه، وحاجة الملك لتنظيم أمور سلطانه من أمر أو نهي أو ترغيب أو ترهيب.[2]

7- الحاجة الملحة لإقامة علاقة طيبة مع ملوك البلاد الأخرى لتكوين السياسة الخارجية للدولة.[3]

ثانياً: العوامل الاجتماعية:

1- المكانة المرموقة والمنزلة العالية التي احتلها كُتّاب الرسائل عند سلاطين المماليك، حيث قاربت منزلة الوزراء وكبار القضاة.[4]مما دفع الكتاب للعمل الجاد والتنافس من أجل الحصول على وظيفة كتابة الرسائل.

2- كثرة المناسبات الاجتماعية والعلاقات الودية بين السلاطين والملوك والأحبة والأصدقاء وتبادل الهدايا.[5] وإرسال رسائل شكر على هدية أو تهنئة بمناسبة ما أو رسالة عتاب على موقف معين.

3- وفاء النيل على أهل مصر، دفع الكُتّاب لكتابة رسائل تهنئة بوفائه، حيث عدوا وفاء النيل عيداً ككل الأعياد، وبدؤوا يتبادلون فيه رسائل التهاني.[6]

4- الحياة الاجتماعية المرفهة وجمال البيئة والمباني التي يعيشون فيها، دعت الكُتّاب لهندسة ألفاظهم وزخرفة عباراتهم في الرسائل.[7]

5- بزوغ شمس أحد أبناء الملك بولادته ؛ فتكتب الرسائل تبشر بالمولود، وتُكتب التهاني لأهله.[8]

---

(1) ينظر نماذج رسائل البشارات: قهوة الإنشاء: ابن حِجة الحموي، تحقيق رودولف فيسيلي، دارالنشر،ط1،بيروت،لبنان،2005م ، 231.

(2) ينظر: عصر سلاطين المماليك، 126/5. وأيضاً: ينظر: صبح الأعشى، 39/1.

(3) ينظر: حسن التوسل إلى صناعة الترسل: شهاب الدين محمود الحلبي، المطبعة الوهبيّة، مصر، 1298هـ، 69.

(4) ينظر: الأدب في العصر المملوكي فنون النثر، سلام، 17

(5) ينظر: السابق، 18.

(6) ينظر السابق، 20، 23، وأيضاً، ينظر: حسن المحاضرة، 268/2.

(7) ينظر: الأدب العربي وتاريخه: سليم، 49.

(8) ينظر: عصر سلاطين المماليك،143/5.

6- الوظائف التي تُعطى لبعض الشخصيات في الدولة، فتُكتب لهم التهاني بذلك المنصب، وتُكتب أيضاً رسائل مدح لاستحقاقهم ذلك المنصب.

7- العودة من سفر أو حج، فتكتب رسائل التهنئة، تهنئ بالعودة سالماً غانماً ،أو الزواج فتكتب رسائل تهنئة به.

8- وفاة أحد الأشخاص، فتكتب رسائل التعزية لمواساة أهل الميت.

9- حدوث بعض المشاحنات أو الخلافات بين الأشخاص فتكتب رسائل العتاب فيما بينهم.[1]

ثالثاً: العوامل العلمية:

1- حرية الكلمة التي تمتع بها كُتّاب العصر المملوكي، فاستطاعوا أن يجولوا برسائلهم في كل مجال، ويعالجوا كل الموضوعات من قريب أو بعيد.[2]

2- الصفات العلمية التي كان يتحلى بها كُتّاب الرسائل في هذا العصر من ثقافة واسعة ومعرفة جيدة بدقائق اللغة وفنون البلاغة وإجادة الخط وقواعد الإملاء.[3]

3- طريقة القاضي الفاضل في الرسائل، فقد عُرف بطريقته الأدبية المنمقة المعتمدة على التزام استخدام ألوان البديع في رسائله، فكانت طريقته في الكتابة نهج الهداية لكُتّاب هذا العصر فساروا على دربه.[4]

5- ديوان الإنشاء وما وضع من قيود وشروط على من يريد أن يتخذ الكتابة صنعة له، مع كثرة المكاتبات التي كانت تخرج منه أو تعود له من تقاليد ومبايعات وعهود.[5]

---

(1) ينظر: نماذج الرسائل الاجتماعية في المبحث الثالث من الفصل الثاني،95،83 من هذه الرسالة.

(2) ينظر: الأدب العربي في الأندلس، 449 .

(3) ينظر: الغصون اليانعة في أدب العصور المتتابعة: حسن عبد الرحمن سليم، جامعة الامارات ط1، 2005م، 374.

(4) ينظر: الأدب العربي وتاريخه، سليم، 43 وأيضاً بلاغة الكتاب في العصر العباسي، 300 .

(5) ينظر: صبح الأعشى، 14 /126.

6- اهتمام المماليك وحرصهم على العلم، فمنهم من كان يحفظ كتاباً كاملاً أو أحاديث نبوية ويعرضها على شيخه أو أحد رجال العلم لطلب إجازة علمية للتدريس أو رواية الأحاديث.[1]

7- رغبة الكُتّاب في هذا العصر لإظهار براعتهم وثقافتهم وقدراتهم على الكتابة في فنون النثر المختلفة.

مكانة فن الرسائل:

ازدهر فن الرسائل في العصر المملوكي ازدهاراً ملحوظاً، واحتل مكانة مرموقة بين فنون النثر، وقد أخذ تلك المكانة بدايةً من ديوان الإنشاء، فكان كُتّاب الرسائل يعملون في ديوان الإنشاء ويهتمون بالمكتبات والرسائل، كما أخذ أهمية ومكانة من كُتّابها، فكان من يعمل في ديوان الإنشاء من أفضل كُتّاب البلاغة، حيث يقول المقريزي: "ديوان الإنشاء كان لا يتولاه إلا أجلّ كُتّاب البلاغة ويُخاطب بالشيخ الأجل، ويُسلم المكاتبات الواردة مختومة، فيعرضها على الخليفة من بعده وهو الذي يأمر بتنزيلها، والخليفة يستشيره في أكثر الأمور، هذا الأمر لا يصل إليه أحد".[2]

وقد اشتُرط على كاتب ديوان الإنشاء عدة شروط منها: حسن الخط.[3] والتفقه في علوم الإسلام ليساعده على الاستشهاد بكلام الله، [4]والعفاف والإخلاص وكتمان السر، وتقوى الله وصلاح النية[5] هذه المنزلة التي احتلها كاتب ديوان الإنشاء – كاتب الرسائل – تُعطي هيبةً واحتراماً وتقديراً، وقد كان للكلمة عند العرب أهمية كبيرة جداً، فالكلمة عندهم تعادل السحر؛ لذا اهتموا باختيار كُتّاب الرسائل اختياراً حَسناً واختاروا أهل الفقه والأدب والعقل الراجح والكياسة لأنهم عُدّوا عقول الأمة[6]

---

(1) ينظر عصر سلاطين المماليك، 5 /243.

(2) المواعظ والاعتبار، 402/2.

(3) ينظر: نهاية الأرب ، 12/7.

(4) ينظر: صبح الأعشى، 93/1، 94.

(5) ينظر: البرد الموشى في صناعة الإنشاء: موسى الموصلي، تحقيق عفاف صبرة، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، بيروت، لبنان، 1990م، 27، 30

(6) ينظر عصر سلاطين المماليك ،83/5. وأيضا: بلاغة الكتاب في العصر العباسي ، 98

حيث يقول عبد الحميد: "لو كان الوحي ينزل على أحد بعد الأنبياء لنزل على كتاب الرسائل".[1]

وقد كان للقاضي الفاضل دورٌ مهمٌ في إظهار مكانة الرسائل، حيث سار كتاب الرسائل على طريقته، فهو يعد أحد أهم أعمدة كُتّاب رسائل العصر الأيوبي، وتعتمد كتاباته على المعاني الخيالية والتزام السجع والمحسنات البديعية، كما تعد رسائله مرجعاً تاريخياً للأحداث في عصره. وقد سار كُتّاب العصر المملوكي على طريقته.[2] وذلك لا يعني تخبطاً وعشوائيةً وعجزاً، في فن الرسائل فكانت حية قوية تعبر عن جميع نواحي الحياة، وعكست الحياة السياسية والحياة الاجتماعية والحياة العلمية.

كما أخذت الرسائل أهميتها من الكتابة، فكانت الكتابة أشرف مهنة، حيث يقول القلقشندي: "الكتابة من أشرف الصنائع، وأرفعها، وأربح البضائع وأنفعها، وأفضل المآثر وأعلاها، و لاسيما كتابة الإنشاء التي هي منها بمنزلة سلطانها لا يلتفت الملوك إلا إليها"[3].

فهذه المكانة المميزة لكاتب الإنشاء وللكتابة تعطي الرسائل مكانة متميزة ومرموقة، وتعطيها إجلالاً وتعظيماً. من الملاحظ أيضاً أن الرسائل تتميز بأرفع مكانة بين فنون النثر في هذا العصر، هذه المنزلة تنبع أيضاً من أنواعها، فهي تعكس الحياة السياسية بما فيها من انتصارات وفتوحات وتولية السلطة وتقليد وظائف الدولة، والتبشير بوفاء النيل.[4] فكان وفاؤه عيداً عندهم فهي تعكس بجدارة الحياة السياسية التي عاشها المماليك، كما تعكس الحياة الاجتماعية والعلاقات الاجتماعية الوطيدة التي كانت سائدة في ذلك العصر: كتهنئة بزواج، أو بولادة ولد، أو عودة من سفر أو عودة من حج، وغيرها الكثير.[5] وهي انعكاس للحياة الاجتماعية المترابطة بين أفراد المجتمع. و تعكس تلك الرسائل الحياة العلمية البارعة التي تواجه من ادَّعى جمود علم هذا العصر وتخلفه، وهذه الرسائل تعكس جانباً من جوانب الحياة العلمية، ومنها إجازة التدريس وإجازة الرواية وإجازة العراضة.[6] والمكانة المتميزة التي

---

(1) ثمرات الأوراق: ابن حجة الحموي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية ،د. ط، بيروت، لبنان،2005م ، 128.

(2) ينظر: جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب: أحمد الهاشمي، مؤسسة المعارف، بيروت، 2/ 204.

(3) صبح الأعشى1/ 30.

(4) ومن تلك النماذج ينظر المبحث الأول من الفصل الثاني من هذا البحث،81،48.

(5) ومن تلك النماذج ينظر المبحث الثاني من الفصل الثاني من هذا البحث،95،82.

(6) ومن تلك النماذج ينظر المبحث الثالث من الفصل الثاني من هذا البحث.133،96

التي وصل إليها كُتّاب الرسائل جعلت الكتابة أفضل حرفة، حيث يقول القلقشندي: "لا بد للإنسان من حرفة يتعلق بها، ومعيشة يتمسك بسببها والكتابة هي الحرفة التي لا يليق بطالب العلم سواها ولا يجوز له العدول عنها إلى ما عداها"[1] ولها مكانة مرموقة كونها تعد وثائق يُرجع إليها عند الحاجة، تحفظ الأحداث التي حدثت في هذا العصر.

---

(1) صبح الأعشى، 126/14

المبحث الثاني

أشهر كتاب الرسائل في العصر المملوكي

- **صلاح الدين الصفدي:**

هو خليل بن أيبك بن عبد الله صلاح الدين الصفدي أبو الصفاء، الإمام الشاعر المشهور، المؤرخ الكبير.[1] قد كان محبباً للناس حسن المعاشرة جميل المودة. ولد سنة ست أو سبع وتسعين وستمائة في صفد في فلسطين[2]، وقد نشأ نشأة عربية خالصة، فحفظ القرآن وقرأ الحديث وتعلم الكتابة والرسم وبرع في الخط، ثم اتجه للأدب وأُولع به، ثم اتجه للتاريخ ونظم الشعر وأتقن النحو والبلاغة واللغة مما أهله لتولي كتابة بيت المال في دمشق، وكتابة الإنشاء بدمشق والديار المصرية وتولى كتابة السر في حلب، وقد تقلد أعلى المناصب[3].

شيوخه: [4]

أخذ الصفدي العلم على يد جمهرة من العلماء والأعلام في عصره ؛مما ساعده على صقل علمه، ومن أولئك الشيوخ: القاضي بدر الدين بن جماعة،. أبو الفتح بن سيد الناس، تقي الدين السبكي، أبو عبد الله الذهبي، أبو حيان الأندلسي، ابن نباتة المصري، شهاب الدين محمود، الحافظ يوسف عبد الرحمن.

---

(1) الدرر الكامنة في أعيان المائة الثمانية: ابن حجر العسقلاني، دار الجيل، د. ط، د.ت، بيروت، 88/2، 87 .

(2) الأعلام: خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، ط5، يوليو، 1980م، 315/2.

(3) ينظر، فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات: عبد الحي الكتاني، تحقيق إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، د. ت، د. ط، 711/2

وأيضاً ينظر تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون: خليل بن أيبك الصفدي: تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، 1969م، دار الفكر العربي، مطبعة المدني،5، 6. وأيضاً المنهل الصافي: يوسف بن تغري بردى: تحقيق نبيل عبد العزيز ،مركز تحقيق التراث، ،د. ط ،1988، 5/ 241.

(4) شذرات الذهب، في أخبار من ذهب: أبو الفلاح عبد الحي الحنبلي: دار الفكر، د. ت، د. ط، 6/ 200-201، وأيضاً: أعيان العصر وأعوان النصر: صلاح الدين الصفدي: تحقيق علي أبو زيد وآخرون، قدم له مازن المبارك، دار الفكر ، ط1،دمشق، 1998م، 9/1.

مؤلفاته: [1]

لقد كثرت وتنوعت مؤلفات الصفدي فهي شاهد على سعة ثقافته وكثرة رحلته في طلب العلم.

تلك المؤلفات التي تزخر بها المكتبة العربية، حيث "كتب ما يقارب مائتين من المجلدات"[2] ومنها:

- الوافي بالوفيات.
- أعيان العصر وأعوان النصر.
- لامية العجم.
- ألحان السواجع.
- جر الذيل في وصف الخيل.
- كشف الحال في وصف الخال.
- نكت الهيمان في نكت العميان.

مذهبه النثري:

لقد اهتم الصفدي برسائله واستخدم فيها أغلب ألوان البديع؛ فأكثر من السجع والجناس، واهتم بتضمين رسائله آيات قرآنية وأحاديث نبوية وأشعاراً وأمثالاً.

وفاته:

في ليلة الأحد العاشر من شوال سنة ستمائة وأربع وستين، توفي الشيخ صلاح الدين خليل بن أيبك، وصُلي عليه صبيحة يوم الأحد، ودفن بمقابر الصوفية في دمشق، وقيل إنه مات بالطاعون.[3]

- **محي الدين عبد الظاهر:**

هو القاضي محيي الدين أبو الفضل، عبد الله بن رشيد الدين أبو محمد عبد الظاهر ابن نشوان بن عبد الظاهر السعدي الرومي المصري[4]، ولد القاضي محي الدين بن عبد الظاهر في

---

(1) البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع: محمد بن علي الشوكاني، دار المعرفة، بيروت، 1/ 243، 244.

(2) لاستزادة والاطلاع على مؤلفاته ينظر: كتاب الصفدي وآثاره في الأدب والنقد، محمد عبد المجيد لاشين: دار الآفاق العربية، ط1، 2005م، 93، 355.

(3) البداية والنهاية، 14/ 379. وأيضاً: بدائع الزهور، 7/1.

(4) الوافي بالوفيات، 17/ 135، وأيضاً: حسن المحاضرة، 1/ 570.

القاهرة، في التاسع من المحرّم سنة عشرين وستمائة، في بيت علم ودين؛ فبدأ بحفظ القرآن الكريم، ودرس الفقه والحديث والتاريخ والسير، وأُولع بالأدب، [1]وقد برع في الكتابة النثرية، وأصبح شيخ الترسل، وتقلد عدة وظائف منها كاتب السر وصاحب ديوان الإنشاء، فكان يقرأ الرسائل الواردة للسلطان[2]، وقد تقلد ذلك المنصب بجدارة كما يرى القلقشندي، حيث يقول: "يقال إنهم كانوا في أيام الظاهر بيبرس ثلاثة نفر، أرفعهم درجة القاضي محيي الدين عبد الظاهر"[3]، وقد تولى ديوان الإنشاء في عهد بيبرس وقلاوون وابنه الأشرف خليل، وكان له فضل في وضع مصطلحات ديوان الإنشاء، وأشاد معاصروه بذلك، وشهد له بذلك النويري: "كان محيي الدين أجلّ كتاب العصر وفضلاء المصر وأكابر أعيان الدولة، وافتخر بوجوده أبناء عصره.[4]

مؤلفاته: [5]

كثرت مؤلفات محي الدين عبد الظاهر ومنها:

1. الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر.
2. تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور.
3. الألطاف الخفية من السيرة الشريفة السلطانية الأشرفية.

مذهبه النثري:

يعد محي الدين عبد الظاهر، من كبار كُتّاب النثر في العصر المملوكي، فقد اشتغل في ديوان الإنشاء، وقد حرص على التزام السجع والجناس والطباق، والاقتباس من القرآن الكريم والشعر، وتميزت رسائله بسهولة ألفاظها وعذوبة أسلوبها.

---

(1) فوات الوفيات، محمد شاكر الكتبي، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة بيروت، لبنان د. ط، د.ت، 179/2 وأيضاً: شذرات الذهب ، 5/ 421.

(2) ينظر: النجوم الزاهرة، 32/8

(3) صبح الأعشى، 1/ 104.

(4) نهاية الأرب في فنون الأدب: شهاب الدين النويري: دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ط1، 101/8

(5) الأعلام، 4/ 98.

شيوخه: [1]

تعلم من عدة شيوخ منهم:

جعفر الهمذاني، وعبد الله بن إسماعيل بن رمضان يوسف بن المخيلي.

وفاته:

كانت وفاة القاضي محيي الدين عبد الظاهر في القاهرة، يوم الأربعاء أو الخميس من رجب سنة اثنتين وتسعين وستمائة هجرية، فكانت حياته اثنتين وسبعين سنة.[2]

- **ابن حِجة الحموي:**

هو أبو بكر بن علي بن عبد الله، تقى الدين الحموي الحنفي الأزراري، المعروف بابن حجة بكسر الحاء.[3] ولد في حماة سنة 767هـ[4]، ونشأ فيها وحفظ القرآن وعمل في الحرير، وعقد الأزرار ولقب بالأزراري، ثم اتجه للعلم والأدب. ثم ارتحل إلى دمشق وزار القاهرة، وفيها راج اسمه وعظم قدره، أصبح منشئ ديوان الإنشاء، فاشتهر وبَعُد صيته، وأصبح أحد خاصة الملك، فقد كان إماماً عارفاً بفنون الأدب متقدماً فيه، طويل النَفس في النظم والنثر، وحَسَن الأخلاق والمروءة[5]، وقد احتل مكانة أدبية وثقافية بارزة بوصفه شاعراً وأديباً وناقداً.

شيوخه: [6]

من أشهر من تعلم منهم ابن حجة الحموي.

الشيخ عز الدين الموصلي، والشيخ ناصر الدين البارزي.

---

(1) شذرات الذهب، 5 /421.

(2) بدائع الزهور، 1/ 372، وأيضاً: البداية والنهاية: ابن كثير، دار أبو حيان، ط1، 1996م، القاهرة، 427/13

(3) الأعلام، 2 /67.

(4) البد الطالع، 1 /165

(5) ينظر: الضوء اللامع لأهل القرن التاسع: شمس الدين السخاوي، منشورات دار الحياة، بيروت، لبنان، 11 /53، وينظر: إنباء الغمر بأبناء العمر: أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، تحقيق حسن حبشي، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، مصر، 2011م، 522/3.

(6) شذرات الذهب، 220/7

آثاره الأدبية: [1]

لابن حجة الحموي مجموعة من مؤلفات، تدل على سعة اطلاعه وغزارة إنتاجه و طول باعه في النظم والتأليف، ومنها :

- خزانة الأدب وغاية الأرب.
- ثمرات الأوراق.
- كشف اللثام.
- بروق الغيث أو شرح لامية العجم.
- بلوغ المرام من سيرة ابن هشام
- بلوغ المراد من الحيوان والنبات والجماد.
- الثمرات الشهية من الفواكه الحموية.
- تأهيل الغريب.
- أمان الخائفين من أمة سيد المرسلين.

مذهبة النثري:

يعد ابن حجة الحموي من أشهر كتاب الرسائل في هذا العصر. ومن خلال دراسة بعض رسائله لوحظ حرصه على استخدام السجع والجناس والطباق والمقابلة بشكل فيه رقة وانسجام. مع اقتباس من القرآن الكريم، والحديث الشريف، والشعر، والأمثال. والبدء بالبسملة أحياناً وبالحمد والتشهد والصلاة، والختم بـ"منّه" و "وكرمه" و "إن شاء الله" واستخدام الصفات: المقر، والمقام، الجناب، الصاحب، الشريف.

---

(1) خزانة الأدب وغاية الأدب: ابن حجة الحموي: شرح عصام شعيتو، دار الهلال، ، ط أخيرة، 2004م، 15/1، 16. وأيضاً: البدر الطالع، 165/1.

وفاته:

ظل بالقاهرة يمارس أعماله حتى عاد إلى حماة مسقط رأسه، وتوفي فيها في الخامس والعشرين من شعبان ،سنة سبع وثلاثون وثماني مائة هجرية..[1]

- **القلقشندي:**

أحمد بن علي بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن إسماعيل شهاب الدين الفزاري من قبيلة فزارة، القلقشندي القاهري الأصل الشافعي[2]، ولد في قلقشندة ،وهي قرية قرب القاهرة سنة سبعمائة .[3]

قد نشأ نشأة حسنة، وتربى تربية علمية صحيحة ؛نشأ في قلقشندة وتعلم فيها، فحفظ القرآن الكريم ثم بعد مدة سافر إلى الإسكندرية للاستزادة في العلم والتفقه في الدين، وحصل منها على إجازة بالتدريس، وإجازة بالرواية؛ فعُرف بالذكاء والجد في التحصيل والشغف بالكتابة، وعدّها أشرف مهنة، ثم استقر، وعكف على التأليف والتصنيف، وجلس للتدريس، واستفاد منه كثير من طلبة العلم، حيث كانوا يعرضون عليه ما حفظوه، ثم اختير ليكون مُنشئ ديوان الإنشاء بالديار المصرية، وقد استمر في كتابة الإنشاء مدة طويلة وله عدد من الرسائل[4].

شيوخه: [5]تتلمذ القلقشندي على يد عدة من الشيوخ منهم:

- ابن الملقن: سراج الدين أبو حفص عمر بن أبي الحسن.
- الليث بن سعدة.

مؤلفاته: [6]

قد كثرت وتنوعت آثاره و منها:

- صبح الأعشى في صناعة الإنشاء .
- حلية الفضل وزينة الكرم في المفاخرة بين السيف والقلم.

---

(1) شذرات الذهب، 219/7.

(2) الضوء اللامع، 7/1

(3) الأعلام، 177/1.

(4) ينظر: تاريخ الأدب العربي: العصر المملوكي، عمر موسى باشا، دار الفكر دمشق، ط1، 1989م، 542، 547.

(5) ينظر السابق ، 544، 545

(6) الأعلام، 177/1.

- قلائد الجمان من قبائل العربان.
- ضوء الصبح المسفر.
- نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب.

مذهبه النثري:

من الملاحظ على رسائله أنه كان يلتزم المحسنات البديعية من سجع وجناس وتورية ؛سائراً على طريقة القاضي الفاضل.

وفاته:

توفي القاضي شهاب الدين القلقشندي ليلة السبت العاشر من جمادى الآخرة سنة إحدى وعشرين وثمانمائة، عن عمر ناهز خمسا وستين سنة.[1]

- **ابن فضل الله العمري:**

أحمد بن يحيى بن فضل الله بن المجلي بن دعجان بن خلف بن أبي الفضل بن منصور بن عبيد الله القرشي العدوي العمري القاضي شهاب الدين، أبو العباس بن القاضي أبو المعالي محيي الدين[2]، ولد في الثالث من شوال سنة سبعمائة.[3]

نشأ في بيت علم ودين، فقد كان يتوقد ذكاءً وفطنة، ويتدفق بحره بالجواهر كلاماً، ويقطر كلامه فصاحة وبلاغة، واهتم بالأدب واللغة والكتابة، حتى استوت بديهته وارتجاله، فكان يكتب من رأس قلمه بديهاً .وقد عرف بأنه الإمام الفاضل المفوّه، الحافظ، حجة الكُتّاب، إمام أهل الأدب، أجدر رجالات الزمان كتابة وترسلاً[4] مما أهله ليكتب الإنشاء بدمشق، فقد أنشأ كثيراً من التقاليد والمناشير والتواقيع عندما تولى والده كتابة السر في دمشق.

وعندما تولى والده كتابة السر في مصر، كان أحمد هو من يقرأ البريد على السلطان الناصر محمد بن قلاوون وينفذ المهمات.[5]

---

(1) شذرات الذهب، 149/7.

(2) فوات الوفيات، 157/1.

(3) النجوم الزاهرة، 334/10 .

(4) الوافي بالوفيات، 163/8 وأيضاً: الدرر الكامنة، 331/3 .

(5) أعيان العصر وأعوان النصر، 419/1، 420، وأيضاً: النجوم الزاهرة، 235/10.

شيوخه:[1]

تنوع علمه وثقافته، فتعلم الفقه والعروض والبلاغة والشعر والأدب من عدة شيوخ منهم:

- الشيخ كمال الدين ابن قاض شهبة.
- قاضي القضاة شمس الدين بن مسلم.
- الشيخ برهان الدين.
- الشيخ تقى الدين بن تيمية.
- الشيخ شمس الدين الصائغ.
- العلامة شهاب الدين محمود.
- الشيخ كمال الدين الزملكاني.

مؤلفاته:[2]

تنوعت المؤلفات بتنوع الثقافة منها:

- مسالك الأبصار في ممالك الأمصار.
- مختصر قلائد العقيان.
- النبذة الكافية في معرفة الكتابة والكافية.
- ممالك عباد الصليب.
- التعريف بالمصطلح الشريف.
- يقظة الساهر.
- نفحة الروض.
- دمعة الباكي.

مذهبه النثري:

كان يلتزم ألوان البلاغة في رسائله، ويُكثر من الجناس والطباق والسجع والموازنة، والتشبيه ويُضَمّن رسائله أبياتاً من الشعر، حيث كان "يشبه القاضي الفاضل في زمانه".[3]

---

(1) أعيان العصر 418/1. وأيضاً فوات الوفيات، 1/ 159.

(2)السابق، 160/10 و أيضاً الأعلام، 268/1.

(3) شذرات الذهب، 6/ 160.

وفاته:

مات في ذي الحجة سنة تسع وأربعين وسبعمائة، ودفن عند والده وأخيه بدر الدين محمد بالصالحية في دمشق.[1]

- **ابن نُباتة المصري:**

محمد بن محمد بن محمد بن الحسن بن أبي الحسن بن علي بن يحيى بن ظاهر بن عبد الرحيم جمال الدين أبو بكر ابن نباتة المصري[2]، ولد في شهر ربيع الأول سنة ستمائة وست وثمانين في القاهرة.[3] نشأ بالديار المصرية، وتأدب فيها واشتغل بفني النظم والنثر، فاق أهل زمانه فيهما، وبرع في عدة علوم فهو الأديب الناظم الناثر، وقد عُرف بلطافة نظمه وعذوبة لفظه وجودة معانيه وجزالة كلامه وانسجام تراكيبه، وعُرف بحسن خطه ؛فهو أغلى قيمة من الدرر. وقد رحل إلى الشام وتردد بين حماة وحلب ومدح رؤساءهما.[4]

شيوخه:[5] تتلمذ ابن نباتة على يد عدة من الشيوخ منهم:

- بهاء الدين ابن النحاس.
- عبد الرحيم الدميري.
- شرف الدين ابن نباتة.
- الفخر ابن البخاري.

مؤلفاته:[6]

كثرت تصانيف ابن نباتة ومنها:

- القطر النباتي.

---

(1) شذرات الذهب ، 160/6.

(2) الدرر الكامنة، 216/4.

(3) طبقات الشافعية: تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب السُبكي، تحقيق مصطفى عبد القادر، وأحمد عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1999م، 153/5. وأيضاً: حسن محاضرة، 571/1 .

(4) الوافي بالوفيات، 324/1. وأيضاً النجوم الزاهرة، 95/11.

(5) الدرر الكامنة، 216/4

(6) البدر الطالع، 253/2.

- سوق الرقيق.
- مطالع الفوائد.
- سجع المطوق.

مذهبه النثري:

اهتم في نثره باستخدام ألوان البلاغة من جناس وطباق وسجع وتشبيه وغيرها؛ فقد سلك طريق الفاضل، حيث إنه "الغاية في الفصاحة سلك منهج الفاضل وحذا حذوه".[1]

وفاته:

توفي ابن نباتة المصري في الثامن من صفر من سنة ثمانٍ وستين وسبعمائة.[2]

- **شهاب الدين محمود الحلبي:**

هو محمود بن سلمان بن فهد، شهاب الدين أبو الثناء الحلبي العلامة الإمام البارع البليغ الكاتب الحافظ الحلبي الدمشقي[3]، ولد في حلب سنة أربع وأربعين وستمائة[4]، نشأ فيها وتأدب وتفقه على يد عدد من العلماء والشيوخ، وسمع الحديث ونسخ الكثير، ثم سلك طريقه في النظم والكتابة. ثم سافر إلى دمشق وتولى منصب كاتب السر فيها، وكان كاتباً في ديوان الإنشاء بحلب والقاهرة، وقد استمر في دواوين الإنشاء بالشام ومصر نحو خمسين عاماً، حيث كان شيخ صناعة الإنشاء في عصره[5] .وقد كان كثير الفضائل بارعاً في علم الإنشاء نظماً ونثراً، وكان مليحاً جداً، بل من خيار عباد الله طِباعاً، كثير التواضع لم يغيره المنصب. وقد أحبه معاصروه كثيراً[6].

---

(1) الوافي بالوفيات،234/1 (2) النجوم الزاهرة، 95/11 وأيضاً: حسن المحاضرة، 1/ 571. وأيضاً شذرات الذهب، 6/ 212.

(2) النجوم الزاهرة، 95/11 وأيضاً: حسن المحاضرة، 1/ 571. وأيضاً شذرات الذهب، 6/ 212.

(3) فوات الوفيات، 82/4، .وأيضاً: الدرر الكامنة، 224/4 .

(4) شذرات الذهب، 69/5.

(5) ينظر النجوم الزاهرة، 190/9، 191. وأيضاً: البداية والنهاية، 152/14، وأيضاً السلوك، 180/2

(6) الوافي بالوفيات، 66/1.

آثاره:[1]

- ذيل على الكامل لابن الأثير.
- مقامة العشاق.
- منازل الأحباب ومنازه الألباب.
- حسن التوسل إلى صناعة الترسل.

مذهبه النثري:

من الملاحظ على رسائله استخدامه للجناس والسجع والتشبيه والاستعارة وتضمين رسائله آيات قرآنية. ويهتم أيضاً ببراعة الاستهلال بذكر الرتب والألقاب ويراعي المناسبة وما يقتضيه الحال. ويتخير الكلام والمعاني[2].

شيوخه:[3]

تتلمذ وسمع من عدة شيوخ، مما ساعده في نظمه ونثره، ومن أشهر من تعلم منهم، الرضي بن البرهان، يحيى بن عبد الرحمن الحنبلي، جمال الدين بن مالك، ابن المنجا.

وفاته:

قد توفى شهاب الدين محمود الحلبي ليلة السبت في شعبان سنة خمس وعشرين وسبعمائة، عن إحدى وثمانين سنة[4].

---

(1) الإعلام: الزركلي، 172/7.
(2) للاستزادة: ينظر حسن التوسل إلى صناعة الترسل 15،61.
(3) الدرر الكامنة، 224/4.
(4) شذرات الذهب، 69/5.

- **جلال الدين القزويني:**

محمد بن عبد الرحمن بن عمر، أبو المعالي، جلال الدين القزويني الشافعيّ، المعروف بخطيب دمشق. من أحفاد أبي دلف العجليّ، قاض، من أدباء الفقهاء. أصله من قزوين، ومولده بالموصل.

ولي قضاء دمشق سنة 724 هـ ،ثم قضاء القضاة بمصر سنة 727 ،ونفاه السلطان الملك الناصر إلى دمشق سنة 738 ثم ولاه القضاء بها [1].

مؤلفاته [2]:

- تلخيص المفتاح :في المعاني والبيان.
- الإيضاح في شرح التلخيص.
- السور المرجاني من شعر الأرجاني.

شيوخه [3]:

- شمس الدّين الأيكي.
- عز الدّين الفاروثي.

مذهبه النثري:

عرف القزويني بأنه كاتب في العصر المملوكي، عرف بحبه الشديد للأدب وقد اعتاد على تدبيج كتاباته بفنون شتى من البلاغة العربية حيث له كتاباً في المعاني والبيان .وكان حلو الكلام واللسان. واهتم بالسجع والجناس في رسائله .

وفاته:

توفّي فِي منتصف جُمَادَى الأولى، وَدفن بمقبرة الصُّوفِيَّة فِي سنة تسع وثلاثين وَسبع مائة، وشيع جنَازَته خلق عَظِيم إِلَى الْغَايَة وَكثر التأسف عَلَيْهِ ؛لما كَانَ فِيهِ من الْحلم والمكارم وَعدم الشَّرّ وَعدم مجازاة الْمُسِيء إِلَّا بِالْإِحْسَانِ[4].

---

(1) البداية والنهاية،215/14.

(2) الاعلام ،192/6.

(3) الوافي بالوفيات ،199/3.

(4) النجوم الزاهرة 318/9

- **علاء الدين بن عبد الظاهر:**

عَليّ بن مُحَمَّد بن عبد الله بن عبد الظَّاهِر بن نشوان الجذامي الْمصْرِيّ الصَّدْر الرئيس النَّبِيل الْكَبِير عَلَاء الدّين ابْن القَاضِي فتح الدّين ابْن القَاضِي محي الدّين، ولد سنة ستّ وَسبعين وست مائَة وَكتب فِي الدولة المنصورية وعمره إِحْدَى عشرَة[1].

شيوخه[2]:

- شمس الدّين من ابْن الخلاّل.
- فتح الدين عبد الظاهر.
- محي الدين بن عبد الظاهر.
- نجم الدين بن الأثير.

مذهبه النثري:

عرف علاء الدين بأنه كاتب رسائل له العديد منها. في عدة أنواع، والتي استخدم فيها فنون البلاغة المختلفة لاسيما السجع والجناس والتشبيه.

وفاته [3]

توفي فى الثالث والعشرين من شهر رمضان سنة 717هـ ، قد توفي هو و الأمير أرسلان الناصرىّ الدّوادار، فقد كانا صديقين فمرضا فى وقت واحد بعلّة واحدة وماتا فى شهر واحد.

- **عمر بن الوردي:**

أبو حفص زين الدين عمر بن مظفر بن عمر بم محمد بن أبي الفوارس، الإمام الفقيه الأديب الشاعر، ولد في معرة النعمان سنة 689هـ، نشأ في حلب وتفقه فيها، وتتلمذ على يد شيوخها.[4] وقد برع في الأدب والنحو، وشارك في علوم الدين واللغة. قد كان أحد فضلاء العصر و أدبائه و فقهائه وشعرائه وأجاد المنثور والمنظوم[5].

---

(1) الوافي بالوفيات، 36/22.

(2) أعيان العصر وأعوان النصر 148/3.

(3) النجوم الزاهرة، 241/9.

(4) فوات الوفيات، 157/3.

(5) السابق 157/3.

شيوخه[1]:

- شرف الدين البارزي.
- الفخر خطيب جبرين.
- صدر الدين محمد بن زين الدين عثمان.

مؤلفاته [2]

- البهجة الوردية.
- شرح ألفية أبن مالك.
- لامية ابن الوردي.

مذهبه النثري

قد شارك ابن الوردي في فنون النثر المختلفة ، وقد حرص على بناء تلك الفنون ،وقد سار ككتاب عصره واستخدم ألوان البلاغة المختلفة ،وكان يهتم اهتمام شديد بالسجع ويحاول أن يوازن بين طول السجعات .واهتم كثيراً بالشعر وكان يستشهد به كثيراً في كتاباته.

وفاته [3]

توفي ابن الوردي في حلب بمرض الطاعون سنة 749هـ ، دفن بالصالحية بجوار أخيه جمال الدين.

---

(1) الدرر الكامنة، 272/3.

(2) أعيان العصر وأعوان النصر 677/3.

(3) إعلام النبلاء ،13/5.



الفصل الثاني

أنواع الرسائل وموضوعاتها

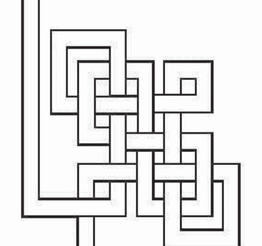
ويشتمل على مهاد نظري و ثلاثة مباحث:

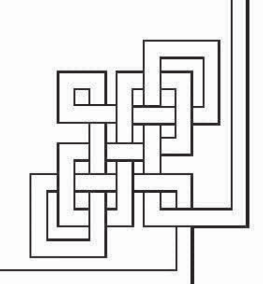
مهاد نظري: رؤى تنظيرية: تصنيف الرسائل.

المبحث الأول: الرسائل السياسية.

المبحث الثاني: الرسائل الاجتماعية.

المبحث الثالث: الرسائل العلمية.





مهاد نظري

رؤى تنظيرية تصنيف الرسائل

لقد تعددت تصنيفات الرسائل وكثرت المسميات عند الدارسين ومن تلك المسميات: "ديوانية وإخوانية و أدبية"[1]"سلطانية وإخوانية وديوانية"[2] "رسمية و شخصية"[3] "سياسية واجتماعية ودينية"[4].

ومن خلال الاطلاع على فن الرسائل منذ العصر الإسلامي حتى العصر المملوكي، وجدت أن كثيراً من الدارسين عرّفوا الرسائل الديوانية بأنها الرسائل التي كان يدبجها كتاب ديوان الإنشاء في المناسبات الرسمية للدولة ، جارية على لسان السلطان أو بأمر منه. وتتعدد وتتنوع الرسائل بتعدد المناسبات، وما أكثرها وما أوفرها. [5] وقد عرّفها آخر: بأنها الرسائل التي كانت تصدر عن ديوان الإنشاء في بلاط الخلفاء والأمراء، تُرسل إلى العمال والولاة، وكان يتولى كتابتها كُتاب متخصصون[6] وعرفها آخر بأنها رسائل الديوان الرسمية متعددة الموضوعات والمناسبات، منها ما يتبادله الملوك والسلاطين فيما بينهم من مهام الأمور وجلائل الأحداث في السلم والحرب .ومنها رسائل صداقة وسلام، وتبادل الود، والتحيات، والهدايا، والتهاني، ويعبرون فيها عن أطيب الأمنيات والرغبات في أن يسود السلام بينهم، ومنها رسائل الوعيد والإنذار بالحرب الطاحنة[7].

ومن خلال دراسة فن الرسائل، فإن تسمية الرسائل الديوانية لم تكن تسمية دقيقة؛ وذلك لأنه ليست كل الرسائل قد أصدرت من الديوان، بل قد كانت هناك رسائل من القائد في أرض المعركة إلى الخليفة أو الملك: كرسالةٍ من أبي عبيدة إلى عمر بن الخطاب بعد انتصار المسلمين على الروم

---

(1)العصر الإسلامي، 456، 465، وأيضاً، العصر العباسي الأول، 465، 91 ، وأيضاً، العصر العباسي الثاني، 550، 562 .

(2) نقد النثر، 267.

(3) بلاغة الكتاب في العصر العباسي، 95.

(4) الفن ومذاهبه، 102.

(5) عصر سلاطين المماليك، 112/5.

(6) مختارات من النثر العربي القديم: توفيق أبو الرب، دار الأمل، الأردن، إربد: 79 وأيضاً بلاغة الكتاب في العصر العباسي، 54

(7) الأدب في العصر المملوكي: فنون النثر، محمد زغلول سلام، 18، وأيضاً: الأدب العربي في الأندلس، 49

وقتالهم قتالاً عظيماً قد أرسل له رسالة يعلمه بذلك[1]، ورسالة أخرى من أبي عبيدة إلى عمر بن الخطاب بعد دخوله لحمص وطلب أهلها الصلح والأمان، أرسل إليه رسالة يخبره بذلك[2]،وهناك رسائل من ملك دولة إلى سلطان أو ملك دولة أخرى ومن ذلك رسالة طلب الصلح أرسلها ملك التتار محمود غازان إلى الناصر قلاوون[3].

وكذلك تسمية الرسائل بالسلطانية لم تكن تسمية موفقة أيضاً، وذلك لأنه لم تكن كل الرسائل قد صدرت عن السلطان، فهناك ما صدر عن القضاة أو أشهر كتاب الديوان ومن ذلك: رسائل البشارات بعودة السلطان من سفر يكتبها القاضي، أو أحد الكتاب المشهورين إلى الشعب يبشره بعودة السلطان من السفر[4].

وبشارة أخرى يكتبها للسلطان أحد أشهر الكتاب يبشره بميلاد مولود له أو لولده[5]، وهكذا يرى الدكتور نبيل أبو علي أن الرسائل التي تتعلق بأمر سياسة الدولة، وكيفية إحراز نصر، أو توطيد أركانها فالأولى أن تسمى رسائل سياسية[6].وتسير الباحثة مع رأي الدكتور أبو علي بأنها رسائل سياسية أفضل من رسائل ديوانية .

ويرى أيضاً أن تسمية رسائل المدح والهجاء باسم رسائل أدبية، تسمية فيها ظلم لباقي أنواع الرسائل[7] وترى الباحثة أن هذا رأي صائب؛ وذلك لأن معظم الرسائل منذ النشأة إلى العصر المملوكي كانت تتميز بطابع أدبي رائع جداً حتى السياسية منها، وفيها من ألوان البلاغة ما كثر ومن ذلك تقليد كتبه علاء الدين بن عبد الظاهر[8].

---

(1) جمهرة رسائل العرب، 155،113/1.

(2) السابق، 1/ 160

(3) النجوم الزاهرة، 111/8

(4) قهوة الإنشاء، 79

(5) السابق، 274

(6) ينظر: نقد النثر، 268

(7)السابق ، 268

(8) نهاية الأرب، 135/8

ونسخة مرسوم بنيابة قلعة مصر كتبها بن فضل الله العمري[1]، كما أن الرسائل الديوانية لا تسير على وتيرة واحدة، ولا تلتزم نمطاً معيناً، بل تتفاوت بتفاوت الأغراض والأحوال، حيث عندما يكون موضوع الرسالة الإنذار والوعيد يستخدم الكاتب أسلوباً مشبعاً بالوعيد، مع جزالة التراكيب والاستعارات والكنايات. وفي بعض الرسائل كالمبايعات تتطلب استخدام الألفاظ والمعاني الحقيقية لأن هذا لا يحتمل التأويل والتحويل[2].

أما بالنسبة للرسائل الإخوانية قد تعددت المسميات ومنها:

الرسائل الإخوانية: وهي التي تصور عواطف الأفراد ومشاعرهم من رغبة ورهبة ومديح وهجاء واعتذار وعتاب واستعطاف وتهنئة ورثاء وتعزية[3].

ومنها أيضاً الرسائل الخاصة: وهي الرسائل الشخصية التي لا تتعلق بشؤون الدولة العامة، وجرى تسميتها بالرسائل الإخوانية[4].

وتعد تلك الرسائل أفسح مجالاً، وأخصب خيالاً لعرض ذوق الأديب، فالكاتب حر طليق فيها، إن شاء كانت ألطف من الهواء، وإن شاء كانت أقسى من الصخر وأصلب من الحديد[5]، وهي رسائل تضمنت العتاب والشكوى وتبادل الآراء والتهنئة والتعزية ...ومن خلال ما سبق تعتقد الباحثة أن تسميتها بالإخوانية أو الخاصة لم تكن تسمية موفقة؛ وذلك لوجود رسائل لا تحمل الطابع الأخوي كالهجاء أو الذم، أو الشكوى ومن تلك الرسائل رسالة هجاء كتبها محي الدين عبد الظاهر [6]، لذا فُضل تسميتها بالرسائل الاجتماعية لتكون أكثر دقة وشمولية[7] فهي لم تخرج عن إطار العلاقات الاجتماعية، حيث تصورها بين الأدباء والسلاطين وأصدقائهم وأحبابهم كالتعزية والتهنئة والشكر وغيرها

---

(1) صبح الأعشى، 208/12.

(2) ينظر الأدب العربي في الأندلس، 453.

(3)العصر العباسي الأول، 491.

(4) بلاغة الكتاب في العصر العباسي، 59.

(5) السابق، 99.

(6) تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون، 415، 404.

(7) نقد النثر ، 268.

مـن المعـاني الاجتماعيـة التـي تـربط المجتمـع ببعضـه .كمـا تتميـز الرسـائل الاجتماعيـة بالبسـاطة واستخدام عبارات المجاملة والتعظيم والمدح[1].

ومن خلال البحث والدراسة والاطلاع لاحظت الباحثة وجود رسائل علمية[2] وهي على ثلاثة أنواع: إجازة التدريس، وإجازة العراضة، وإجازة بالرواية الأدبية، ونظراً لعدم وجود اختلاف في مسميات هذا النوع من الرسائل فضلت الباحثة أن تُورد كل نوع وتُعرف كل واحدة وتذكر نماذجها في المبحث الثالث من هذا الفصل .

(1) ينظر: الغصون اليانعة: 375، وأيضاً: النثر عند لسان الدين الخطيب: عبد الحليم الهروط، دار جرير، د. ط ، عمان،2010م ، 56 وأيضاً: الأدب العربي في الأندلس، 454

(2) عصر سلاطين المماليك، 183/5

المبحث الأول

الرسائل السياسية

تعد الرسائل من أهم الفنون النثرية التي عُرفت في العصر المملوكي وما قبله، فقد استعملت لفظة الرسالة منذ القدم ولكنها ارتبطت بالنثر أكثر من الشعر، ولقد شهدت الرسائل بأنواعها نهضة جلية في الأدب المملوكي، وازدهرت في هذا العصر ازدهاراً ملحوظاً، وقد وصل كتابها منازل رفيعة عند سلاطين المماليك قاربت منزلة الوزراء.

وتنوعت الرسائل في العصر المملوكي، فكان منها السياسية والاجتماعية والعلمية، وكل نوع من هذه الأنواع ينبثق منه أقسام أخري. وستبدأ الباحثة بالحديث عن الرسائل السياسية والتي تُعرف بأنها: "الرسائل الخاصة بشؤون الدولة في الداخل والخارج"[1] ولقد تعددت الرسائل السياسية بما يخدم سياسة الدولة الخارجية وسياستها الداخلية: فمنها ما وُجه من الخليفة للسلطان، ومنها لملوك البلاد الأخرى، ومنها لموظفي الدولة الكبار والعاديين، ومنها ما هو للشعب، ومنها ما هو للجيش، وهكذا كانت الرسائل السياسية تهتم بحق بشؤون الدولة الخارجية وشؤونها الداخلية.

ومن الرسائل السياسية:

أولا: الرسائل الملوكية.

فهي تعد أهم الرسائل السياسية كونها لها صلة للتعبير عن السياسة العليا للدولة، كصلح أو هدنة أو إنذار بحرب للأعداء ...

وتُعرف الرسائل الملوكية" بأنها المكاتبات التي كانت ترسل على لسان السلطان إلى غيره من الملوك والسلاطين والأمراء في أمر ذي بال، مبادأة بها أو رداً على مثلها"[2] وقد كانت الرسائل الملوكية تتعلق بالسياسة الخارجية للدولة غالباً.

ومن تلك الرسائل: كتاب السلطان الظاهر بيبرس، قد كتبه محيي الدين عبد الظاهر إلى بوهمند السادس[3]، في الرابع من شهر رمضان المعظم قد زحف العساكر إلى طرابلس وطافوا بالمدينة

---

(1) بلاغة الكتاب في العصر العباسي، 54

(2) عصر سلاطين المماليك، 113/5، وأيضا: الأدب العربي وتاريخه في عصر المماليك والعثمانيين والعصر الحديث، 30

(3) بوهمند: أحد أمراء الصليبيين بالشام، وكان أمير أنطاكية، السلوك لمعرفة دول الملوك،1/ 966

والقلعة وقاتلوا أهل المدينة قتالاً شديداً . وشرع العساكر بالقتل والنهب والأسر ثم انتقلوا إلى أنطاكية وتم الاستيلاء عليها في شهر رمضان من عام666هجري، وكان بوهمند وقت فتح أنطاكية مقيماً بطرابلس ، فبعث السلطان يبشره بفتح أنطاكية[1] وكان في هذه البشرى من التهكم والاستهزاء الكثير، حيث وجدت الباحثة أن السلطان صور ما أصاب طرابلس وأنطاكية من خراب ودمار مع استخدام العبارات والألفاظ الدالة على ألوان التهديد والوعيد.

ومن ثَم تعد هذه الرسالة وثيقة تسجيل خبر الفتح، حيث وُجد في نهاية الرسالة ما نصه": **لما وصل هذا الكتاب إليه اشتد غضبه ولم يبلغه خبر أنطاكية إلا من هذا الكتاب**"[2] ولقد بَدأ الرسالة بمقدمة لمّح فيها لموضوع الرسالة وهو فتح أنطاكية، ثم بدأ يتهكم بالمرسل إليه ويُحدثه كيف تم الاستيلاء على أنطاكية، والسيطرة على كل ما فيها، ثم أخبره بيوم الفتح وشهره وساعته، ثم انتقل لوصف فتح أنطاكية وما عانته خيالة بوهمند من صرع تحت سنابك الخيل، ووصف ما جرى لحرائرها ولرجالها من هولِ وذل، وما لحق بالمدينة من ألوان الخراب والدمار .

ومن نص الرسالة :" **قد عَلِمَ القومص[3] الجَليل المُبجل، المُعزز الهُمام، الأسد الضُرغام بوهمند، فخر الأمة المسيحية، رئيس الطائفة الصليبية، كبير الأمة اليسوعية المُتنقِلة مخاطبته بأخذ أنطاكية منه، ... ألهمه الله رشده، وقرن بالخير قصده، وجعل النصيحة محفوظة عليه، ما كان من قصدنا طرابلس و غزونا له في عُقر الدار، وما شاهده بعد رحيلنا من إخراب العمائر وهدم الأعمار،...وكيف دارت الدوائر على كل دار ، ... ولا زرع إلا وهو محصود، ولا موجود لك إلا وهو منك مفقود، وفتحناها بالسيف في الساعة الرابعة من يوم السبت رابع شهر رمضان، وقتلنا كل من اخترتَه لحفظها والمحاماة عنها، ... فلو رأيت خيّالتك وهم صرعى تحت أرجل الخيول، ودِيارك والنّهابة فيها تصول، والكسّابة فيها تجول، وأموالك وهي توزن بالقنطار، ... ولو شاهدتَ النيران وهي في قصورك تَخترق، والقتلى بنار الدنيا قبل نار الآخرة تَحترق، وقصورك وأحوالها قد حالت، وكنيسة بولص وكنيسة القسيان وقد زلت وزالت، لكنت تقول، يا ليتني كنت تراباً ويا ليتني لم أوت**

---

(1) السلوك، 966/1.

(2) السابق، 969/1.

(3) القومص: تعريب حرفي للفظة اللاتينية (Comes)، أي الأمير، ومعناها الأصلي في اللاتينية: (الرفيق)، لأنه كان في بادئ الأمر يرافق الملك في حروبه وتنقلاته، ثم سُمِّيَ بالأمير. السابق،1/ 969.

بهذا الخبر كتابا،... لتَيَقّنْتَ أن الإله الذي أعطاك أنطاكية منك استرجعها، والربّ الذي أعطاك قلعتها منك قلعها، ومن الأرض اقتلعها."[1]

ومن تلك الرسائل: رسائل طلب الصلح: "وهي الاتفاقات الموقعة بين ملكين "[2] ويُبدي كل ملك استعداده للصلح إذا صدقت النية وإلا فالحرب سجال بينهما ، ومن ذلك رسالة أرسلها ملك التتار محمود غازان[3] مع وفد إلى الناصر قلاوون. وتجمع هذه الرسالة في معانيها بين الوعد والوعيد المصالحة، وذكر فيها ما قام به جنود الناصر قلاوون من عبث وفساد في مارِدِين[4]، وأعلن محمود غازان الحرب عليهم بسبب استغاثة أهل ماردين به، وقد فعل ذلك بدافع الإسلام، ثم أرسل الرسالة يطلب الصلح ويستهدي السلطان، ومنها: " **بسم الله الرحمن الرحيم، ونُنْهِى بعد السلام إليه أنّ الله عزّ وجلّ جعلنا وإياكم أهل ملّة واحدة، وشَرّفنا بدين الإسلام وأيّدنا، ونَدبنا لإقامة مناره وسَدّدنا؛ وكان بيننا وبينكم ما كان بقضاء الله وقدره، وما كان ذلك إلّا بما كسبتَ أيديكم، وما الله بظلّام للعبيد! وسبب ذلك أنّ بعضَ عساكركم أغاروا على مَارِدِين وبلادها في شهر رمضان المعظّم قدرُه، ... فطرقوا البلاد على حين غفلة من أهلها، وقتلوا وسَبُوا وفسقوا وهتكوا محارم الله بسرعة من غير مُهلة؛ وأكلوا الحرام وارتكبوا الآثام، ... فأَتَونا أهل ماردين صارخين ...فَهزّتنا نخوة الكرام، وحركتنا حَميّة الإسلام،... ودخلنا البلاد وقدّمنا النّية، وعاهدنا الله تعالى على ما يُرضيه عند بلوغ الأمنية؛ وعلمنا أنّ الله تعالى لا يرضى لعباده الكفر بأن يسْعَوا في الأرض فساداً [والله لا يحبّ الفساد]، فما كان إلا أن لقيناكم بنيّة صادقة، وقلوب على الحميّة للدين موافِقة؛ فمزّقناكم كلّ مُمَزّق، ثم رفعنا عنكم حُكم السيف البتّار؛ وتقدمنا إلى جيوشنا ألّا يسعوا في الأرض كما سعيتم، وأن ينشروا من العفو والعفاف ما طويتم،... فنرجع الآن في إصلاح الرعايا، ونجتهد نحن وإيّاكم على العدل في سائر القضايا فقد انْضَرّتْ بيننا وبينكم حال البلاد وسكانِها، ومنعها الخوف من القرار في أوطانها؛**

---

(1) السلوك، 966/1.

(2) صبح الأعشى، 91/14.

(3) هو محمود غازان بن القان أرغون بن أبغا بن هولاكو، تولى عرش المغول عقب مقتل "بايدو" في ذي الحجة سنة(694هـ)، وبعد أن اعتنق الإسلام تبعه جميع الأمراء والجنود المغول، وأسلم بإسلامه أكثر من مائة ألف شخص منهم في مدة وجيزة، ولقب نفسه باسم السلطان «محمود غازان»، وأعلن الإسلام دينًا رسميا للدولة، الدرر الكامنة، 248/4.

(4) مارِدِين، بكسر الراء والدال، قلعة مشهورة على قمة جبل الجزيرة، وتشرف على دارا وهي من أحسن القلاع وأعظمها. معجم البلدان، 39/5.

وتعذّر سَفَرُ التجار، ...وأنت تعلم أيّها الملك الجليل، أنّني وأنت مطالبون بالحقير والجليل؛ ...وأنّ مصيرنا إلى الله؛ وأنّا معتقدون الإسلام قولاً وعملاً ونيّةً، عاملون بفروضه في كلّ وصيّة... فإذا عاد من المَلِك الجواب فليُسَيِّر لنا هديّة الديار المصرية، لنعلم بإرسالها أن قد حصل منكم في إجابتنا للصلح صدق النيّة؛ ونهدي إليكم من بلادنا ما يليق أن نهديه إليكم، والسلام الطيّب منا عليكم. إن شاء الله تعالى"[1]

وتعد هذه الرسالة من الرسائل التي كانت بين الملوك، بعد دخولهم في الإسلام[2]، ولقد رد الملك الناصر على رسالة الملك محمود غازان برسالة، تبين من خلال دراستها أنها مليئة بالوعيد، مع شكه في رغبة الملك محمود غازان بالصلح، وقد ذَكّره ما قام به الجنود المصريون من إذلال لآبائه وأجداده، وأبدى استعداده للصلح إذا صدقت النية وإلا فالحرب سجال، ويسوغ عدم انتصار جيشه في ماردين أن جنوده علموا بدين جنود غازان فلم يقاتلوا لأنه لا يحل لمسلم سفك دم أخيه المسلم .وفي نهاية الرسالة اعتذر عن إرسال هدية، ورأى أن الأولى أن محمود غازان هو البادئ بإرسال الهدية ليعبر عن رغبته الصادقة بالصلح وليس بخلاً منه. ومن تلك الرسالة :"**بسم الله الرحمن الرحيم، عَلِمنا ما أشار المَلكُ إليه، وعوّل في قوله وفعله عليه؛ فأمّا قول الملك: قد جمعتنا وإياكم كلمة الإسلام! وإنه لم يَطرُق بلادنا ولا قصدها إلا لِما سبق به القضاء المحتوم، فهذا الأمر غير مجهول بل هو عندنا معلوم؛ وإنَّ السبب في ذلك غارةُ بعضُ جيوشنا على مَارِدين، وإنهم قتلوا وسَبُوا وهتكوا الحريم وفعلوا فعل من لا دين له؛ فالمَلِكُ يعلم أن غارتنا ما برحتْ في بلادكم، مُستمرّةً من عهد آبائكم وأجدادكم؛ وأنّ مَنْ فعلَ ما فُعِل من الفساد لم يكن برأينا ولا من أمرائنا ولا الأجناد؛ بل من الأطراف الطامعة ممّن لا يُؤْبَه إليه، ولا يُعوّل في فعل ولا قول عليه؛ ... فإن كنتم تريدون الصلح والإصلاح، وبواطنكم كظواهركم متتابعة في الصلاح؛ وأنت أيها الملك طالب الصلح على التحقيق، وليس في قولك مَيْنٌ ولا يشوبه تنميق؛ نقلّدك سيف البغي، ومن سَلّ سيف البغي قُتل به، ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله؛ فيُرسَل إلينا من خواص دولتك رجلٌ يكون منكم ممّن إذا قطع بأمر وقفتم عنده، ... لنتكلّم معه فيما فيه الصلاح لذات البين، وإن لم يكن كذلك عاد بخفّي حنين. وأمّا ما طلبه الملك من الهديّة من الديار المصريّة فليس نبخل عليه، ... وإنّما الواجب أن يُهدي أوّلاً من استهدى؛ لتُقابَ**

---

(1) النجوم الزاهرة، 111/8

(2) صبح الأعشى، 65/8

هديتـه بأضعافها، ونتحقّق صدق نيّتـه، وإخـلاص سريرته؛ ونفعل مـا يكون فيـه رضـا الله عزّ وجلّ ورضا رسوله في الدنيا والآخرة..."[1]

ورسالة أخرى من إيلخـان أحمد تكدار[2] ملك المغول بفـارس إلـى السلطان الملك المنصـور قلاوون سنة 681هجري، أرسلها إليه ليخبره فيها باعتناقه الإسلام هو ومن معه من التتار، وقد بدأها بمقدمة حمد الله عز وجل، وأقر بنبوة محمد، وصلى وسلم عليه أفضل صلاة وأتم تسليم، ولمّح في مقدمة الرسالة عن موضوع رسالته وهو الرغبة في الصلح، وطلب من السلطان قلاوون أن يتفقا معاً على ما فيه صلاح المسلمين، وعبر عن عمله الجاد من إصدار أوامره لإطفاء الفتن حقناً للدماء، وأثنى أحمد تكدار على شيخ الإسلام وقدوة العارفين كمال الدين عبد الرحمن[3] فقد ساعد إيلخان وقواه على الصلاح ، وكان عوناً له في أمور الدين، وكرر رغبته في التمسك بالإسلام حتى تتعمر البلاد والمدائن، وفي نهاية الرسالة يأمل من الله التوفيق والسداد . ومن تلك الرسالة :"**بسـم الله الـرحمن الرحيم...أما بعد، فإنّ الله سبحانه وتعالى، بسابق عنايته، ونور هدايته، قد كان أرشدنا في عنفوان الصّبا، وريعان الحداثة، إلى الإقرار بربوبيّته، والاعتراف بوحدانيته، والشهادة لمحمد، عليه أفضل الصلوات والسّلام، بصدق نبوّتـه، ... وألا تُصدر أوامرنـا مـا أمكننـا إلّا مـا يُوجب حقن الـدّماء، وتسكين الدّهماء، وتجري بـه فـي الأقطار نسائم الأمن والأمان، ويستريح بـه المسلمون فـي سائر الأمصار،... تعظيماً لأمر الله، وشفقة على خلق الله، فألهمنا الله تعالى إطفاء تلك النـائرة ، وتسكين الفتن الثائرة،...وقَوّى عزمنا على ما رأيناه من دواعي الصّلاح، وتنفيذ ما ظهر لنا بـه وجـه النجاح، أذكار شيخ الإسلام قدوة العارفين كمال الدين عبد الرحمن، الذي هو نعم العون لنا فـي أمور الدين، فأصدرناه رحمـة مـن الله تعالى لمـن دعـاه، ونقمـة علـى مـن أعرض عنـه وعصـاه... وقابلنـاه بالصّفح وقلنا عفا الله عمّا سلف، وتقدّمنا بإصلاح أمور أوقاف المسلمين من المساجد والمشاهد والمدارس، ...وأمرنا بتعظيم أمر الحج وتجهيز وفده ، وتأمين سبله وتسيير قوافله، وإنا أطلقنا سبيل التّجار المتـردّدين إلـى تلـك البلاد ليسـافروا بحسـب اختيـارهم علـى أحسـن قواعدهم، وحَرّمنـا علـى العساكر ... التّعرّض لهم فـي مصادرهم ومواردهم...فإن وفّق الله سلطان مصر إلى ما فيـه صلاح**

(1) النجوم الزاهرة، 113/8

(2) أحمد بن هولاكو قان بن تولى قان بن جنكيز قان، أحد ملوك التتار، توفي سنة 683. النجوم الزاهرة ، 362/7

(3) كمال الدين عبد الرحمن بن عبد المحسن بن ضرغام الكناني المصري خطيب جامع المقسية. مات في شهر ربيع الآخر سنة عشرين وسبعمائة، وله ثلاث وتسعون سنة، حسن المحاضرة، 391/1

العَالَم، وانتظام أمور بني أدم، فقد وجب عليه التّمسك بالعروة الوثقى، وسلوك الطريقة المثلى، بفتح أبواب الطاعة والاتّحاد، وبذل الإخلاص بحيث تنعمر تلك الممالك وتلك البلاد، وتسكن الفتنة الثائرة... والله تعالى الموفِّق للرّشاد والسّداد، وهو المهيمن على البلاد والعباد، وحسبنا الله وحده"[1]

ولقد رد السلطان المنصور قلاوون على رسالة إيلخان أحمد تكدار، فبعد البسملة، وحَمد الله عز وجل، والصلاة على رسوله الكريم، أظهر الملك قلاوون سعادته بدخول إيلخان في الإسلام، ودعا الله أن يثبّته على ذلك، كما أثنى عليه ومدحه لإطفائه نار الفتنة معتبراً ذلك الرأي الثاقب، وأثنى على شيخ الإسلام كمال الدين ومدحه وعده من الصالحين، ونبَّه قلاوون على أن الأعمال التي يُقام بها من إصلاح للبلاد والعباد هي واجب من واجبات المَلِك الذي يريد لملكه الدوام، ولقد كان إيلخان قد مد يد الصلح والصلاح لما فيه من خير للمسلمين، وقد كان المنصور قلاوون من السَباقين لمد يد الصلح معتبراً أن الصلح سيد الأحكام، وقد وضع بعض الشروط لذلك :منها عدم اعتداء أي منهما على أرض الآخر وتعيين مكان للقاء. ومن الرسالة:" ... **ولما فُتح هذا الكتاب بهذا الخبر المُعْلَم، والحديث الذي صُحّح عند أهل الإسلام إسلامه، وأصحّ الحديث ما رُوي عن مسلم، تَوجّهت الوجوه بالدعاء إلى الله سبحانه في أن يُثبّته على ذلك بالقول الثابت، وأن يُنبت حَبّ حُبّ هذا الدين في قلبه كما أنبت أحسن النّبت من أخشن المنابت... فالحمد لله على أن شرح صدره للإسلام، وألهمه شريف هذا الإلهام...أما حكاية الملك إذا كان قصده الصلاح ورأيه الإصلاح وأنه أطفأ تلك الثائرة، وسكّن تلك النائرة؛ فهذا فعل الملك المُتّقي، المشفق من قومه على من بقى؛ ...والرّجاء ببركته وبركة الصالحين أن تصبح كلُّ دار للإسلام دار إقامة، حتّى تتمّ شرائط الإيمان، ويعود شملُ الإسلام مجتمعاً كأحسن ما كان؛ ... ومن العدل والإحسان، بالقلب واللسان، والتقدّم بإصلاح الأوقاف والمساجد ، فهذه صفات من يريد لملكه الدوام؛ على أنها وإن كانت من الأفعال الحسنة، والمثوبات التي تستنطق بالدعاء الألسنة؛ فهي واجبات تُؤدّى، ... وأما الإشارة إلى أن باتفاق الكلمة يكون صلاح العالَم، وانتظام شمل بني آدم؛ فلا رادّ لمن فتح أبواب الاتّحاد، و جنح إلى لسلّم فما جار ولا حاد ....، والصّلح وإن كان سيد الأحكام فلا بدّ من أمور تُبنى عليها قواعده، ويُعلم من مدلولها فوائده... إنه قد أعطاه الله من العطاء ما أغناه به عن امتداد الطَّرْفِ إلى ما في يد غيره من أرض**

(1) السلوك، 977/1

ومال، فإن حصلت الرغبة في الاتفاق على ذلك فالأمن حاصل... فنُعيّن مكاناً يكون فيه اللّقاء، ويُعطِي الله النصر لمن يشاء"(1)

ورسالة أمان أرسلها المنصور قلاوون للتجار الذين يصلون إلى مصر. من الصين والهند والسند واليمن والعراق وبلاد الروم .كتبها فتح الدين بن عبد الظاهر . وتُعَرّف رسالة الأمان بأنها:

"ما يُكتب عن الملوك لكلّ من خاف سطوتهم، لا سيّما من خرج عن الطّاعة، وخيف استشراء الفساد باستمرار خروجه عن الطاعة"(2) وقد بدأ رسالته هذه بدعوة التجار من أي بلد كانوا لدخول مصر، وأعطاهم الأمان لدخولها ، ثم وصفها بأروع الأوصاف، وقد كانت ألفاظه وعباراته التي استخدمها لا تدل إلا على إعطاء الأمان لهم والاطمئنان على المال والنفس. ثم حثّ في رسالته على جلب المماليك والجواري وَوَعَد بشرائهم ودَفْع ما يزيد على ما يريده التاجر رغبة منه كما صَرّح بتكثير جيش الإسلام. ومن الرسالة:" **أعلى الله الأمر العالي لا زال عدلُه يحلّ الرعايا من الأمن في حصن حصين، ويستخلص الدعاء لدولته الزاهرة من أهل المشارق والمغارب فلا أحد إلا وهو من المَخْلِصين، ويُهيئُ برحابها للمُعْتَفين جنّة عدن من أيّ أبوابها شاء الناس دخولاً: من العراق، من العجم، من الرّوم، من الحجاز، من الهند، من الصّين- أنه من أراد من الصّدور الأجلّاء الأكابر التّجّار وأرباب التّكسّب، وأهل التّسبّب، من أهل هذه الأقاليم التي عُدّدت والتي لم تعُدّد، ومن يؤثر الورود إلى ممالكنا إن أقام أو تردّد...، فليعزِم عَزم من قدّر الله له في ذلك الخير والخيرة، ...، إذ أصبحتْ دارَ إسلام بجنود تسبقُ سيوفُهم العَذَل؛ وقد عَمّر العدل أوطانها، وكثّر سُكّانها، واتّسعتْ أبنيتها إلى أن صارت ذات المدائن... فمن وقف على مرسومنا هذا من التّجار المقيمين باليمن والهند، والصّين والسّند، وغيرهم، فليأخُذ الأُهبَة في الارتحال إليها، والقدوم عليها، ليجد الفَعَال من المَقَال أكبر، ويرى إحساناً يقابلُ في الوفاء بهذه العهود بالأكثر، ويَحُلَّ منها في بلدة طيّبة وربٍ غفور، وفي نعمةٍ جزاؤها الشّكر- وهل يُجازى إلا الشّكور- وفي سلامةٍ في النّفس والمال، وسعادةٍ تُجَلّي الأحوال وتُمَوّل الآمال... ومن أحضر معه مماليك وجواري فله في قِيمتهم ما يَزيد على ما يُريد، ... فلْيستَكْثر من يَقدر على جلبهم، ويعلم أن تكثير جيوش الإسلام هو الحاثّ على طلبهم؛ لأنّ الإسلام بهم اليوم في**

---

(1) السلوك، 981/1

(2) صبح الأعشى، 328/13

عزّ لواؤه المنشور، وسلطانه المنصور، ومن أُحضر منهم فقد أُخرج من الظلمات إلى النّور، وذمّ بالكفر أمسه وحمد بالإيمان يومه، وقاتل عن الإسلام عشيرته وقومه." (1)

ورسالة أخرى وهي هدنة عقدت بين السلطان الظاهر بيبرس وملكة بيروت، وقد كتبها محيي الدين عبد الظاهر .وتُعرّف الهدنة بأنها: " صلح يقع بين زعيمين في زمن معلوم بشروط مخصوصة"(2) وتكون بين ملكين؛ وأكثر ما تكون بين الملوك أصحاب الحكم والنفوذ ؛ وتكون إلى أجل معلوم يهادن بها أحدهما الآخر على نفسه، وعساكره، وبلاده، ورعاياه، وما يدخل في دائرته"(3).

إن انتصارات المماليك قد حطمت معنويات أعدائهم بشكل كبير مما دفع الملوك للمسارعة لعقد هدنة معهم، ومن ذلك هذه الهدنة التي وقعت سنة 667 هـ، وتم تحديد مدتها بأنها عشر سنين، حُدد تاريخ بداية الهدنة، وقد تم تحديد المدن التي ستشملها الهدنة. وبهذه الهدنة ظهرت قوة سلطان الظاهر بيبرس وجيشه، ومن تلك الهدنة: " **استقرّتْ الهدنة المباركة بين السّلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس وبين الملكة الجليلة المصونة الفاخرة، فلانة ابنة فلان، مالكة بيروت وجميع جبالها وبلادها التّحتية مدّة عشر سنين متوالية، أوّلها يوم الخميس سادس رمضان سنة سبع وستين وستمائة الموافق لتاسع أيار سنة ألف وخمسمائة وثمانين يونانية- على بيروت... وأماكنها المضافة إليها: من حدّ جُبيل ، ... وجميع ما في هذه الأماكن من الرّعايا والتّجّار، ومن سائر أصناف الناس أجمعين، والصّادرين منها والواردين إليها من جميع أجناس النّاس، والمتردّدين إلى بلاد السلطان فلان، وهي: المملكة الأنطاكية وقلاعها وبلادُها، وجَبَلة واللّاذقيّة وقلاعها وبلادها، وحمص المحروسة وقلاعها وبلادها، وما هو مختصّ بها، ومملكة حصن عكّا وما هو منسوب إليه، والمملكة الحمويّة وقلاعها وبلادها وما هو مختصّ بها... وما سيفتحه الله تعالى على يده ويد نوّابه وغلمانه يكون داخلاً في هذه الهدنة المباركة، ... . وكذلك رعيّة الملكة فلانة وغِلمانها يكونون آمنين على أنفسهم وأموالهم وبضائعهم مِن السّلطان ومن جميع نوّابه وغلمانه ومن هو تحت حُكمه وطاعته: برّاً وبحراً، ليلاً ونهاراً، وجميع بلاد السلطان، ...**"(4)

---

(1) صبح الأعشى، 340/13

(2) التعريف بالمصطلح الشريف، ابن فضل الله العمري، تحقيق محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، ط1،بيروت، لبنان، 1988م، 211

(3) صبح الأعشى، 5/14

(4) صبح الأعشى، 40/14

ثانيا: العهود والمبايعات.

لقد كثرت العهود والمبايعات في العصر المملوكي، تبعاً لحاجة الدولة لها. ويُعرف العهد بأنه: "رسالة من خليفة أو سلطان إلى من اختاره لولاية منصبه من بعده[1] ابناً كان أو غير ابن لولاية العهد"[2].

وتُعرف المبايعة بأنها: " رسالة ديوانية تكتب للخليفة أو الملك عند قيامه أول مرة بأعباء منصبه إقراراً له ورضاً عنه "[3] وكُتب العهود كانت تتضمن العهد بالإمارة أو القيادة أو القضاء. وكلها تشير إلى مهام الأمور التي سيقومون بها والآمال المعلقة عليهم لما فيه من خير البلاد والعباد[4].

والعهد هو نمط من أنماط الرسائل السياسية .وغالباً ما يَبدأ بخطبة تتضمن حمد الله عز وجل، والثناء عليه وشكره، والصلاة على رسوله الكريم، وإظهاراً لعظمة السلطنة، ومدح وتمجيد وذكر مناقب وصفات الملك المعهود إليه بالخلافة، تلك الصفات التي أهلته وساعدته على أخد هذه المكانة وهذا المنصب، ثم يسرد العهد مع توصيته بعدة وصايا منها تقوى الله والعمل بشرعه الإسلامي وإنصاف الرعية.

ومن تلك العهود عهد الملك الناصر محمد بن قلاوون، عن الحاكم بأمر الله أحمد بن أبي الربيع سليمان[5]، وقد كتبه القاضي شمس الدين إبراهيم بن القيسراني.

وقد افتتح العهد بخطبة حمد الله وأثني عليه، وصلى على رسوله الكريم، وذكر العاهد والمعهود إليه، مع نعت الأخير بصفات جلية، ثم أبرز صفاتٍ وأسباباً جعلت محمد قلاوون أولى الناس بالخلافة من غيره، ويستمر في ذكر الصفات والمناقب التي ساعدت على حصوله على هذا المنصب، ثم ينتقل لذكر نص العهد، يستشف من نص العهد منه قوة حكم المماليك، حيث عُهدت وفُوضت إليه الخلافة

---

(1) الأدب العربي وتاريخه: سليم، 30

(2) عصر سلاطين المماليك، 125/5

(3) السابق، 126/5

(4) بلاغة الكتاب في العصر العباسي، 98

(5) هو أحمد بن علي بن الحسن الهاشمي أبو الربيع بن الحاكم بأمر الله العباسي ولد سنة (683هـ) وتوفي سنة (740هـ).البداية والنهاية، 219/14 وأيضاً الموالاة والمعاداة في الشريعة الإسلامية: محماس بن عبد الله بن محمد الجلعود، ط 1، 1987 م، 2/ 687

براً وبحراً وشاماً ومصرًا وقرباً وبعدًا، وما سيفتحه الله عليه من البلاد، ومن نص العهد تَعَرّفَ السلطان محمد قلاوون الأماكن التي سيقع حكمه عليها، والأعمال المنوطة به من تقليد الملوك والوزراء وتجهيز عساكر، ومحاربة أو مهادنة أعداء، ثم دعاء له بتأييد ونصر وإعانة من الله، وفي نهاية النص قد أوصى الحاكم بأمر الله السلطان محمد قلاوون بعدة وصايا تكون له معينة في حكمه، ثم ختم العهد بحمد الله والصلاة على رسوله الكريم.

ومن نص العهد: "**من عبد الله ووليّه الإمام الحاكم بأمر الله أبي العبّاس أحمد أمير المؤمنين، إلى السلطان الأجلّ، العالم، العادل، ...أبي الفتح محمد قسيم أمير المؤمنين أعز الله سلطانه، ولد السلطان الشهيد الملك المنصور سيف الدين قلاوون، قدّس الله روحه... الحمد لله الذي اجتبى سيدنا محمداً صلّى الله عليه وسلم من أشرف بيت وقبيلة، ومنح الأمّة برسالته من خيري الدنيا والآخرة الوسيلة، ... وكنتَ أيّها السيد، ... أولى الأولياء بالملك الشريف... مع حاجة المسلمين لتعمير الأوطان، ... ؛وأعلنت ألسنة الأقدار بأنه لم يبق عن تقليدك الممالك الإسلاميّة بحمد الله تعالى عذر؛ فاختارك على علم العالمين، ...وعَهد إليك في كلّ ما اشتملتْ عليه دعوة إمامته المعظّمة، ... وفوَّض إليك سلطنة الممالك الإسلاميّة برّاً وبحراً، شاماً ومصراً؛ قرباً وبعداً، غوراً ونجداً؛ وما سيفتحه الله عليك من البلاد، ... وبشراك! أنّ الله أبرم سبب تأييدك إبراماً لا تصل الأيدي إلى نقضه، وأنك سُئلت عن أمر طالما أتعب غيرك سؤاله في بعضه؛ وأن الله يُحسن لك العون وبك الصّون، فقد قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: «يا عبدَ الرّحمن بن سمرة! لا تسأل الإمارة فإنّك إن أُعْطِيتها عن مسألةُ وكِلتَ إليها، وإن أُعْطِيتها عن غير مسألة أُعنت عليها» ...والوصايا كثيرةِ وأولاها تقوى الله ...وأما العدل فإنّه للبلاد عِمارة، وللسّعادة أمارة، وللآخرة منجاة من النّفس الأمّارة؛ فليكن له شِعاراً ودثاراً، والحدود الشرعيّة فليحلّ بإقامتها لسانه، ولا يتعدّها بنقص ولا زيادة وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ... الحمد لله وحده؛ وصلواته على سيدنا محمد وآله وسلامه، حسبنا الله ونعم الوكيل**"[1]

وهذا عهد آخر من المنصور قلاوون لابنه الملك الأشرف صلاح الدين خليل[2]، ولقد كتبه محيي الدين عبد الظاهر .ولقد بدأ العهد بمقدمة حمد الله عز وجل على سلطانه الثابت الأركان، ثم بدأ

(1) صبح الأعشى، 59/10

(2) السلطان الأشرف صلاح الدين خليل– ابن المنصور قلاوون – وكانت ولايته من سنة 689–693هجري.. البداية والنهاية، 385/13

بعرض صفات ومناقب ابنه الأشرف صلاح الدين، ثم أورد نص العهد، وأدخل السلاطين والأمراء والنواب ومقدمي الجيوش والرعية والعساكر في هذا النص الميمون بضرورة العمل ولانصياع له، واختتم العهد بعدة وصايا منها تقوى الله، والعدل، ومضاعفة الخير ، والاهتمام بأمراء الجيوش، والدعوة للجهاد، وقتال الأعداء، والاهتمام بموسم الحج، ومن ذلك العهد :"**الحمد لله الذي لم يزل له السّمع والطاعة فيما أمر...نحمده على أن جعل سلطاننا ثابت الأركان، ... ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة تزيد قائلها تفويضاً وتجزل له تعويضاً، ... ونشهد أن محمداً عبده ورسوله ... فَأَطلعْنا في أفق السلطنة كوكباً سعيداً كان لحسن الاستخلاف مُعدّاً، ومن لقبيل المسلمين خير ثواباً وخير مَردّاً، ومن يبشّر الله به من الأولياء المتّقين وينذر من الأعداء قوماً لدّاً، ولم يبق إلا به أنْسُنا بعد ذهاب الذين تحسبهم (كالسيف فردا) والذي ما أمضى حدّه ضريبة إلا (قدّ البيض والأبدان قدّا) ...وهو الذي بقواعد السلطنة أدرى وبقوانينها الأعرف، وعلى الرّعايا الأعطف وبالرّعايا الأرأف، ... وهو الذي ما برح النصر يتنسّم من مهابّ تأميله الفلاح، ويتبسّم ثغره فتتوسّم الثغور من مبسمه النّجاح، ...وآتاهم من نفاسة كرمه وحراسة سيفه وقلمه تأميناً وتأميلاً، فسمّته الأبوّة الشريفة ولداً وسمّاه الله «خليلا»، ... اقتضى حسن المناسبة لنصائح الجمهور، والمراقبة لمصالح الأمور، ... والمقاربة من فواتح كلّ أمر ميسور، أن نفوّض إليه ولاية العهد الشريف بالسلطنة الشريفة المعظّمة، المكرّمة المفخّمة المنظّمة، وأن يبسط يده لمصافحتها بالعهود، وتحكّمها في العساكر والجنود، وفي البحور والثّغور وفي التّهائم والنّجود، ..ا لا وكلٌ داخل في قَبول هذا العقد الميمون،...وأمّا الوصايا...فعليك بتقوى الله عز وجلّ فإنها ملاك سدادك، وهلاك أضدادك، ...والعدل فهو مثمّر غروس الأموال، ... ؛وكثّر لمن حولك التموين والتّمويل، وأمراء الجيوش فهم السّور الواقي بين يدي كلّ سور، ...وهم ذخائر الملوك، وجواهر السّلوك، ...؛ فكن لجنودهم متحبّباً،...**"[1]

وعهد آخر وهو عهد الملك المنصور "حسام الدين لاجين "عن الخليفة الحاكم بأمر الله أحمد بن أبي الربيع سليمان، وقد كتبه شهاب الدين محمود الحلبي وكالعادة بُدئ العهد بخطبة وضح فيها العاهد والمعهود إليه، وحمد الله عز وجل، وصلى على رسوله الكريم، ثم أورد العهد الذي عُهد فيه للملك لاجين بالأمانة وبمصالح الناس وإعلاء كلمة الشرع وإقامته وعهد إليه بمصالح الحرمين وثالثهما، والاهتمام بالحجيج وغيرها من مصالح الإسلام والمسلمين، كما لم ينس الوصايا فمدحه وأثني عليه وأوصاه بالهدى والتقى و الاستناد للسند الأقوم والسبب الأقوى ومن ذلك العهد:" **هذا عهد**

---

(1) النجوم الزاهرة، 341/7

شريف تشهد به الأملاك لأشرف الملوك، وتسلك فيه من قواعد العهود المقدّسة أحسن السّلوك؛ من عبد الله ووليّه الإمام الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين، للسلطان الملك المنصور حسام الدنيا والدين؛ أبي الفتح لاچين المنصوريّ، أعزّ الله سلطانه.

أما بعد، فالحمد لله مُؤتي الملك من يشاء من عباده، ومُعطي النصر من يجاهد فيه حقّ جهاده؛... ويشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له،... وأن محمدا عبده ورسوله.... ويساله أن يصلي عليه ويسلم تسليما كثيراً...وإنّ أمير المؤمنين لِمَا اختصّه الله به من البرّ المودع في قلبه، والنّور الذي أصبح فيه على بيّنة من ربّه؛... لم يزل يرغب إلى الله سبحانه ويستخيره في إقامة من ينهض في ملك الإسلام حقّ النّهوض، ويفوّض إليه الأمانة إلى من يرى أداء الأمانة فيهم من الفروض؛ ... ...؛ وفي إعلاء منار الشرع الشريف والانقياد إليه، والمسارعة إلى نفوذ حكمه فيما له وعليه، ... وتفويض الحكم إلى كلّ من يتعيّن لذلك من أئمة الأمّة، وإقامة الشرع الشريف على قواعده الأربعة، فإن اتفاق العلماء حُجّة واختلافهم رحمة؛ وفي مصالح الحرمين الشريفين وثالثهما الذي تُشدّ الرحال أيضا إليه، وفي إقامة سبل الحجيج الذين دعاهم الله فلبّوه واستدعاهم فقدموا عليه؛ وفوّض إليه كلّ ما هو من لوازم خلافته لله في أرضه: ما ذُكر وما لم يُذكر، تفويضاً لازماً، وتقليداً جازماً، وعقداً محكماً، وعهداً في مصالح الإسلام والمسلمين مُحكّماً، واكْتفى عن الوصايا بما جُبل عليه خُلقه الشريف من التقوى، وهدى نفسه النفيسة إليه من التمسك بالسند الأقوم والسبب الأقوى؛ فما يُنبّه على حسنة إلّا وهو أسبق إليها، ولا يُدلّ على خَلّة إلا وفِكره الشريف أسرع من فِكر الدالّ عليها؛ ..." (1)

ونسخة عهد أخري للسلطان الملك المنصور قلاوون عن الخليفة الإمام أبي العباس أحمد الحاكم بأمر الله . وقد كتب هذا العهد القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر.

وقد بدأ العهد بخطبة حمد الله عز وجل، وشهد له بالوحدانية، وصلى على رسوله الكريم، ثم بدأ بمدح المنصور، ثم أورد العهد وفوضه بكل الامور كالمدائن والخزائن، وكل عطاء وهبة وكل عزل وتولية وكل اتفاق وكل ولاية . وكالعادة قدم للمعهود عدة نصائح تكون له ذخراً وذكراً، ومعينة له في حكمه، فنصحه بالعدل، والاهتمام بالرعية، وعدم تفضيل أحد، وأخذ الحق ووضعه في أهله، والجهاد والقتال ضد أعداء الدين و... من ذلك العهد: "**الحمد لله الذي جعل آية السيف ناسخة لكثير من الآيات، وفاسخة لعقود أولي الشّكّ والشُّبهات، الذي رفع بعض الخلق على بعض درجات، ... ونشهد**

---

(1) صبح الأعشى، 53/10

أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة يتلذّذ بذكرها اللّسان، وتتعطّر بنفحاتها الأفواه ... ونصلّي على سيدنا محمد الذي أكرمنا الله به صلّى الله عليه وعلى آله ... وبعد الحمد الله على أن أحمد عواقب الأمور، وأظهر للإسلام سلطاناً اشتدّت به للأمة الظّهور وشفيت الصّدور، ... وخرج أمر مولانا أمير المؤمنين– شرفه الله– أن يكون للمقرّ العالي ، السلطانيّ، الملكيّ، ... كلّ ما فوّضه الله لمولانا أمير المؤمنين من حكم في الوجود، وفي التّهائم والنّجود ، وفي المدائن والخزائن، وفي الظّواهر والبواطن، وفيما فتحه الله وفيما سيفتحه، ... وفي كل جود ومنٍ...، وفي كل تفرّد بالنّظر في أمور المسلمين بغير شريك، وفي كلّ تعاهد ونبذ، وفي كلّ عطاء وأخذ، وفي كل عزل وتولية... ولاية عامة تامّة منظمة، لا يتعقّبها نَسْخٌ من خلفها ولا من بين يديها، ولا يعتريها فسخ يطرأ عليها،... فالواجب أن يعمل بجزئيّات أمره وكلّيّاته. وأن لا يخرج أحد عن مقدّماته. والعدل، فهو الغرس المثمر، والسّحاب الممطر، والروض المزهر... وزمام كلّ صلاح يجب أن يشغل به جميع أوقاته، هو تقوى الله، قال الله تعالى :"يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ "فليكن ذلك نصب العين، وشغل القلب والشّفتين، وأعداء الدين من أرمن وفرنج وتتار، فأذقهم وبال أمرهم في كل إيراد للغزو وإصدار...، واعلم أنّ الله نصيرك على ظلمهم وما للظّالمين من أنصار. وأما غيرهم من مجاوريهم من المسلمين فأحسن باستنقاذك منهم العلاج، وطبّهم باستصلاحك فبالطّبّ الملكيّ والمنصوريّ ينصلح المزاج؛ والله الموفّق بمنّه وكرمه"[1]

ثالثاً: التقاليد.

والتقليد هو "أمر تعيين يصدر إلى أحد موظفي الدولة الكبار يُسند إليه وظيفةٌ ما ،مثل رئيس ديوان الإنشاء أو قاضي القضاة، وفيه تُضفى عليه أثواب الثناء ويبين سبب اختياره، ويوضح له اختصاصه ويوصيه بالعدل، وقد يُقرأ التقليد في مسجد أو بين جمهور على حسب أهميته"[2].

ويُعرف أيضاً بأنه: "أمر تعيين يصدر إلى موظف من كبار موظفي الدولة، أو تسجيل لهذا الأمر، وإيذاناً به، يُكتب على لسان السلطان بقلم صاحب ديوان الإنشاء، أو أحد منشئي الديوان المتميزين"[3].

(1) النجوم الزاهرة، 338/7

(2) الأدب العربي وتاريخه: سليم، 30

(3) عصر سلاطين المماليك، 132/5.

ولقد عدد الدكتور محمود رزق سليم الوظائف التي من أجلها تكتب التقاليد: ومنها صاحب ديوان الإنشاء، قاضي القضاة، والوزراء، ونواب السلطنة، كُتاّب السر وغيرها من الوظائف. والتقاليد تشبه في هذا الزمن المراسيم والأوامر التي يصدرها رئيس الدولة لتعيين كبار الموظفين كالوزراء والسفراء وشيوخ الأزهر ومديري الجامعات ومفتي الديار وأكابر النواب[1].

فالتقليد نوع من أنواع الرسائل السياسية وغالباً ما يُبدأ هذا التقليد بخطبة يُحمد الله عز وجل على إحسانه وكرمه، ويُصلى على رسوله الكريم، ثم يبدأ بمدح المُقلَد وذكر صفاته ومحاسنه من خلال اختيار ألفاظ التعظيم والإجلال، ثم يعرض التقليد والعمل الموكل إليه، وفي بعض التقاليد يتم ذكر سبب اختيار هذا الشخص لتقليد هذا المنصب والمؤهلات والأسباب التي دفعت لاختياره، ثم يوصيه شيئاً مما يكون له معيناً في هذه الوظيفة، ويختم التقليد بدعاء له وأمل بالإصلاح والإحسان.

ولقد لوحظ أن التقليد والعهد رسائل سياسية بينهُما تشابه كثير وتوافق كبير، غير أن الاختلاف أن العهد هو رسالة من السلطان أو الخليفة لولاية الخلافة أو السلطنة أو الحكم، أما التقليد فهو أمر تعيين إلى أحد موظفي الدولة لتسلُم منصب أو وظيفة معينة.

وستورد الباحثة مجموعة من التقاليد ومنها:

تقليد كتبه ابن حِجة الحموي لتقليد الإمام محمد الرازي الشافعي[2] وظيفة النظر في دواوين الإنشاء الشريف بالممالك الإسلامية المحروسة، حيث بدأ التقليد بخطبة حمد الله، فيها عز وجل، وصلى على نبيه محمد أفضل الصلاة وأتم التسليم، ثم اتبع الخطبة بمدح الإمام محمد الرازي الشافعي، ثم أورد التقليد الذي فوضه فيه وظيفة النظر في دواوين الإنشاء بالممالك الإسلامية، ثم مدحه مرة أخرى ، ثم أورد سبب اختياره لهذا المنصب، كما لم ينس الوصايا فأوصاه، وختم التقليد بدعاء له بالتوفيق والصلاح .ومن نص التقليد :"**بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الذي أزال بالشمس المحمدية عنا كل ظلمة ... نحمده على أن أَطْلع في أفق ملكنا الشريف شمساً في سعد سعودها زاهرة، ... ونشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له .شهادة تشرق بنور بهجتها طلعة الشمس، ونشهد أن محمداً عبده ورسوله الذي تعبدت ألسن الأقلام بالصلاة عليه، ، صلى الله عليه وعلى آله**

---

(1) عصر سلاطين المماليك ، 5/ 132 وأيضاً: التعريف بالمصطلح الشريف، 119.

(2) هو محمد بن محمد الرازي الشافعي – توفي سنة 766. بدمشق عن عمر ناهز سبعين عاماً. وكان بحراً في جميع العلوم لا سيما في العلوم العقلية، الدرر الكامنة، 99/6

وأصحابه...فما شك عالم أن الإمام الرازي أفضل من الفاضل، جهلوا قدره في غير أيامنا الأشرفية وكان الزمان نعم المُجازى ...، وقد أصبح أفق ديواننا الشريف مُقمراً ومُشمساً،...ولما كان الجناب الكريم العالي محمد الرازي الشافعي _ضاعف الله نعمته _هو رأس العلماء الذي هام إليه تاج مصر من سبعة وجوه، ... ولو أدركه الخوارزمي رجع عن ترسله واهتدي بأنواره الشمسية، ...فلذلك رُسم بالأمر الشريف العالي السلطاني الملكي الأشرفي لازالت شموس دولته الأشرفية في غاية الشرف ...، أن نفوض للجناب الكريم المشار إليه وظيفة النظر في دواوين الإنشاء الشريف بالممالك الإسلامية المحروسة... فلينظر في ذلك فانه أمس الناس قديماً وحديثاً بتدبير الدول، وفي حسن تدبيره بحمد الله ما يجمع لنا بين العلم والعمل .ويقابل جمل هذه النعمة بتفاصيل شكره المتزايد...وقد أجمع الناس على أن الرازي هو شيخ الإسلام الذي أتي بتحصيل الحق...، وشاهد شمسنا التي أتت من المشرق (فبُهت الذي كفر) وقال آمنت بمحمد ورسائله وصحابته... والوصايا كثيرة ولكن "لا يهدى التمر إلى هجر" ولا يهدى النور إلى الشمس ولا إلى القمر ...والله تعالى يزيد هذه الشمس في أفق ملكنا الشريف شرفاً ويشيد بها رَبْع هذه الوظيفة فإنه كان قد عفا ،ويحسن ختامنا بكفاءة هذا الإمام، وها نحن قد قلنا حسبنا الله وكفى"[1].

وتقليد آخر كتبه فخر الدين بن لقمان، حيث كان هذا التقليد من السلطان الظاهر بيبرس لولده السعيد[2]، حيث عرض السلطان بيبرس على الأمراء أمر تفويض ولده الملك السعيد لولاية السلطنة، فأجابوه بالسمع والطاعة، وقد بدأ الكاتب التقليد بخطبة حمد الله عز وجل على نعمائه وعطاياه وشهد بوحدانيته، وصلى على رسوله الكريم، ثم بعد تلك الخطبة تحدث عن سبب اختيار السعيد لولاية السلطنة، مع مدحه وذكر محاسنه، واتبع ذلك بالتقليد والأعمال التي سيقوم بها، و دعا له بالنصر والتمكين والتوفيق، ولقد أُعطي هذا التقليد أهمية كبرى حيث تم تعميمه على الشعب لضرورة الامتثال له ولأوامره وطاعته والنهوض على خدمته وقد قُرئ بالإيوان بحضور الأمراء وأعيان الدولة . ومن ذلك التقليد: "**الحمد لله الذي أجزل العطاء والمواهب، ... وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة يبلغ بها يوم الإشهاد قاصية المُنى، وتجعل كل صعب هيناً. وأشهد أن محمداً عبده الذي صدع بالحق معلناً، صلّى الله عليه وعلى آله الذين شيدوا من المعالي البنا، وأصحابه الذين أحسنوا والله يحب من كان محسنا.**

(1) قهوة الإنشاء، 418.

(2) الْملك السعيد نَاصِر الدّين مُحَمَّد بركَة قان، ولد فِي صفر سنة ثَمَان وَخمسين وسِتمِائَة، السلوك، 107/2.

وبعد: فإنا لما... شد اللهُ أزرنا بولدنا الملك السعيد الأجل الكبير العالم العادل ناصر الدين بركه خاقان، أمتع الله الإسلام ببقائه، ... رأينا أن نفوّض إليه حكم كل ما أمضى الله فيه حكمنا من البلاد، .... وقلدناه أمر الديار المصرية والبلاد الشامية والقلاع والحصون، ... وأطلقنا تصرفه وحكمه في الخزائن والأموال، وتعيين الإقطاعات في الغيبة منا والحضور. وأمرنا أن لا يُرد أمره في جميع ما يقتضيه رأيه الشريف من الأمور. فبيديه الحل والعقد، وإلى أبوابه ينتهي القصد. فقد أضحى بحمد الله حلية للمجد، والأيام تزهو به كما تزهو الدرر بواسطة العقد، وإليه في الأمور النقض والإبرام. وعليه المعتمد في فصل الأحكام. وإليه ترجع الولاية والعزل، وهو الفرع الذي زكا، ولا يزكو الفرع إلا إذا كان طيب الأصل. ...وإلى الله نرغب أن يُوفقه لمراضيه، ويُلهمه رشده فيما يُستقبل من أموره، ويؤيده بالنصر الذي تُروى أحاديثه وتُتلى، ... .ونسأل كل واقف على هذا التقليد أو من يسمع به من الأمراء والنواب والعساكر المنصورة- أيدهم الله تعالى- امتثال أمره، والقيام بما يجب عليه من طاعته في سره وجهره، والنهوض في خدمة ركابه، والاجتهاد في تسهيل ما يصعب من طلابه، ... "[1].

وهذا تقليد آخر كُتب للقاضي شهاب الدين بن فضل الله وهو لتقليده بكتابة السر، حيث بُدئ بخطبة حُمد الله عز وجل فيها وشُهد له بالوحدانية، وصُلي على رسوله الكريم، ثم أُورد بعد الخطبة حاجة الدولة لكاتب السر، وبدأ الكاتب يمدح شهاب الدين، ثم أورد سبب اختياره لهذه الوظيفة من سعة العلم، وقدرة وقوة النظر ثم أورد التقليد، وعرّفه بالأعمال التي أُوكلت إليه، ولم ينس الكاتب الوصايا فأوصاه بالتقوى فهو الذخيرة النافعة ودعا له بالقوة والنور .ومن نص التقليد: "**الحمد لله على عناية حَفَظت ملكنا الشريف ... نحمده حمداً يَهُبُّ مع الأنفاس في هبّاتها، ... ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة تَملأُ الصّحف بحسناتها... ونشهد أنّ سيدنا محمداً عبده ورسوله الذي أدّى الرسالة بما تحمّله من أماناتها، ... صلّى الله عليه وعلى آله ... وسلّم تسليماً كثيراً.**

وبعد، فإنّ المُلك عمود بِناؤه بِسرّه، وارتفاعه بالتأسيس لمستقرّه، ... بكاتب ...يقاتل في الحرب والسّلم بنفّاذ رأيه ونفّاث سحره، ... إذا جادل فبالحجّة البالغة، وإذا جاوب أبطل الأهوال الزّائغة، وإذا أمرنا بالعدل والإحسان سيّرهما عنّا كالشمس البازغة... إنه المجلس العاليّ، القضائيّ، الأجليّ... رئيس الأصحاب، ملاذ الكتّاب... ، لسان السلطنة، مدبّر الدّول، مشيّد الممالك... فإنّا

---

(1) السلوك، 969/1.

خطبناه لهذه الوظيفة... وتعيّن علينا أن نحكم له بهذا الاعتبار ونَحمِله على هذا المقتضى، وأن نطلعه في سماء دستنا الشريف شهاباً أضا، وأن نقلّده مُهمّا ما زال هو القائم بتنفيذ أشغاله... فرُسم بالأمر الشريف العاليّ، السلطانيّ، الملكيّ، الناصريّ، ... أن يستقلّ المجلس العاليّ، القضائي، الشّهابيّ «أحمد بن فضل الله» المشار إليه بصحابة دواوين الإنشاء الشريف بالممالك الإسلامية المحروسة... التصرّف في المهمّات الشريفة والتصريف؛ وهو المنفرد بتقديم البريد وعَرضه، ومباشرة ختمه وفضّه، وقراءته بين أيدينا، واستخراج مراسمنا الشريفة في كل مناب، ومشافهة وخطاب، وابتداء وجواب، وملطّف ومكبّر...ونحن نختصر له الوصايا لأنّه الذي يُمليها، ونقتصر منها على التقوى فإنها الذخيرة النافعة لمن يُعانيها، والباقية الصالحة خير لمن يقتفيها، والله تعالى يقوّي أسبابه، وينير شهابه"[1].

وتقليد آخر بنيابة السلطنة بصفد وهو لسيف الدين الناصري[2]، وكتبه الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي، وكعادة التقاليد بدأه بخطبة حمد الله فيها على نعمه وشهد له بوحدانيته وصلى على رسوله الكريم، ثم وضح سبب اختياره لتولى هذا المنصب مع مدحه بألفاظ الإجلال والتقدير، ثم أورد التقليد الذي فُوض لتولى السلطنة الشريفة بصفد المحروسة، و في نهاية التقليد قدم له نصائح ووصايا ومنها الاهتمام بمصالح المسلمين ونشر العدل ومن ذلك التقليد:" **الحمد لله الّذي صان الثّغور المحروسة... نحمده على نعمه الّتي جعلت سيف الجهاد رائد أوامرنا، وقائد جيوشنا إلى مواقف النّصر وعساكرنا، ... ونشهد أن لا إله إلّا الله وحده لا شريك له شهادة يَستظل الإيمان، تحت لوائها، ... ونشهد أنّ محمداً عبده ورسوله خاتم الأنبياء، وأشرف حملة الأنباء، صلّى الله عليه وعلى آله وصحبه ... وسلّم تسليماً كثيراً... أما بعد ...لمّا كان الجناب العالي هو السّيف الّذي على عاتق الدّولة نِجاده، واللّيث الّذي لم يزل في سبيل الله إغارته ، والغيث الّذي يُخصب ... البلدُ الماحل، ... اقتضت آراؤنا الشريفة أن نزيد حدّ عزمه إرهافاً، وأن نُرهب العدا ببأسه الّذي يردّ آحاد ما تقدّم عليه من الجيوش آلافاً، وأن نُفوّض إليه من أمور رعايانا ما إذا أُسند إليه يُوَسِعُهم عدلاً وإنصافاً، ، فلذلك رُسم بالأمر الشريف: أن تفوّض إليه نيابة السلطنة الشريفة بصفد المحروسة، تفويضاً يعُلي قَدره، ويُمضي في عموم مصالحها وخصوصها نهيه وأمره، ويُرهف في حفظ سواحلها**

---

(1) صبح الأعشى، 298/11.

(2) أرسله الملك الناصر محمد إلى صفد وقد توفي سنة سبع واربعين وسبع مائة. أعيان العصر وأعوان النصر، 97/2.

وموانيها بِيضه وسُمره، .فليتلقّ هذه النعمة بباع شُكره المديد، ويتَرقّ هذه المرتبة ...ويعمّر بلادها بالعدل... وملاك الوصايا تقوى الله، وهي من أخصّ أوصافه، والجمع بين العدل والإحسان وهما من نتائج إنصافه؛ فليجعلهما عمدتي حكمه في القول والعمل؛ والله تعالى يجعله من أوليائه المتّقين وقد فعل؛ والاعتماد... إن شاء الله تعالى"(1).

والتقليد الأخير هو تقليد للأمير سيف الدين سلار المنصوري(2) لنيابة السلطنة الشريفة، ولقد كتبه علاء الدين بن عبد الظاهر، وقد بدئ التقليد كعادة التقاليد بخطبة حمد الله عز وجل، وشهد بوحدانيته، وصلى على رسوله الكريم، ثم بدأ بمدح الأمير سلار المنصوري، ثم أورد التقليد لنيابة السلطنة والأعمال الموكلة إليه، ولم ينس الوصايا، ولكنها كانت حسب رأي الكاتب من الأمير تُستملى وبه يُستضاء، ولقد أنهى التقليد بالدعاء له. ومن ذلك التقليد: **"الحمد لله الذي شيّد ركن الإسلام بسيفه المنتضى، ... ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له... ونشهد أن محمداً عبده ورسوله الذي بعثه الله لإقامة شعائر الإيمان، ... صلّى الله عليه وعلى آله وصحبه... وسلّم تسليماً كثيراً... أما بعد تقلّد كفالة ممالكنا للوليّ الذي ما برح يتلقّى أمورنا بفسيح صدره، ويَتوقّى حدوث كلَّ ما نكرهه فينهض في دفعه بصائب رأيه وثاقب فكره؛ وكان الجناب الكريم العالي العالميّ العادليّ...، معزّ الإسلام والمسلمين... مقدّم العساكر، أمير الجيوش، ...، نصرة الملوك والسلاطين، (سلار المنصوريّ) نائب السلطنة المعظّمة، وكافل الممالك الإسلامية، – أعز الله نصره– هو واسطة عقد الأولياء، وسيف الدولة الفاتك بالأعداء، ...فلذلك رُسم بالأمر الشريف العالي ... لا برح يُوفى بعهود الأولياء ويَفي، ...أن تكون كلمة الجناب الكريم العالي الأميري السيفيّ المشار إليه– أعزّ الله نصره– نافذة في كفالة الممالك الإسلاميّة، متحكّمة في نيابة السلطنة المعظّمة، وأوامره المطاعة في إمرة الجيوش ... وليستكثر من الاقتداء بأحكامه في النهي عن المنكر والأمر بالمعروف؛ وأمراء الإسلام وجنوده، فهم ودائع سرّه، وصنائع شكره، وطلائع نصره... والوصايا كثيرة لكنها منه تُستملى، والتنبيهات على المصالح منه تُستفاد نقلاً وعقلاً ؛ فمثله لا يُدلّ على صواب وهو المتفرّد**

---

(1) صبح الأعشى، 205/12.

(2) سلار بن عبد الله المنصوري، الأمير سيف الدين، نائب السلطنة بديار مصر، كان تركي الجنسية . وكان أبوه أمير عند صاحب الروم، فلما غزا الملك الظاهر بيبرس التتار كان سلار هذا ممن أُسر في الوقعة. المنهل الصافي، 5/6.

بالسداد، والخبير بتفريج كرب الخطوب ... والله تعالى يمتعنا من بركة كفالته بالخلّ المُوافى ....، ويشدّ أزر سلطاننا من مضافرته بمن أمسى جبل الحُلوم الرواسي؛ إن شاء الله تعالى" (1).

رابعاً: التواقيع والمراسيم

التواقيع والمراسيم نوعان من أنواع الرسائل السياسية في العصر المملوكي وبينهما اختلاف، وستبدأ الباحثة بالحديث عن التواقيع .

فالتوقيع هو "أمر تعيين يصدر إلى أحد موظفي الدولة في الوظائف العادية أو الصغرى يُسند إليه الوظيفة"(2).

ويُعرف أيضاً "نوع من أنواع الرسائل الديوانية التي تصدر عن السلطان بتعيين فلان في وظيفة بعينها من وظائف الدولة "(3) ولقد لوحظ أن التوقيع نوع من أنواع الرسائل السياسية التي عُرفت، وهي تشبه التقليد كثيراً، غير أن التقليد لتولي منصب أو وظيفة كبيرة عالية، أما التوقيع لتولي وظيفة صغيرة عادية في الدولة.

ولقد كان التقليد غالباً ما يبدأ بمقدمة يُحمد فيها الله عز وجل، ويُشهد له بالوحدانية، ويُصلى على رسوله، ومقدمة كل توقيع تناسب الوظيفة المرادة، ثم يعرض موضوع التوقيع، وهو إذن للحصول على الوظيفة، ويُمدح المراد توظيفه، ويختم التوقيع بوصايا، ودعاء.

وستورد الباحثة عدة تواقيع منها: توقيع الشيخ الإمام العلامة الرئيس برهان الدين إبراهيم بن المرحوم غرس الدين خليل السكندري برياسة الطب بالديار المصرية المحروسة، وقد كتبه ابن حِجة الحموي. ولقد بدأ التوقيع بمقدمة حمد الله عز وجل فيها على نعمة الصحة والعافية، وشهد له بالوحدانية ولنبيه بالرسالة، ثم انتقل للحديث عن الموضوع وهو التوقيع وكان بمنزلة شهادة أو إذن للحصول على وظيفة رياسة الطب، ثم قام بمدح الشيخ برهان الدين إبراهيم ،وعلل بهذا المدح سبب حصوله على وظيفة والده، ثم ختم التوقيع بدعاء دعا الله أن يحفظه ويعطيه الصحة والعافية.

---

(1) نهاية الأرب، 135/8.

(2) الأدب العربي وتاريخه، 31.

(3) الأدب في العصر المملوكي: فنون النثر ، سلام، 29.

ومن ذلك التوقيع :"**الحمد لله الحكيم اللطيف الذي أحسن علاجنا بالعفو والعافية، وأنقذنا من بحران الكفر وضعف اليقين بهدايته الشافية، ...نحمده حمداً يعتدل به المزاج، ونشكره شكراً يصح به النبض ويسكن الانزعاج. ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ...، ونشهد أن محمداً عبده ورسوله الذي خصه بالطب النبوي وسماه" يس" وشفاه بالقرآن الحكيم، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه ...وسلم تسليماً.**

وبعد. فإن وضع الأشياء في محلها عين الحكمة، وإيصال الحق إلى أهله واجب ... وكان المجلس السامي القضائي البرهاني إبراهيم بن المجلس السامي المرحوم غرس الدين خليل السكندري، _أدام الله تعالى رفعته_، ممن تكررت بأبوابنا الشريفة خدمته وخدمة والده... فلذلك رُسم بالأمر الشريف العالي ...السلطاني الملكي المؤيدي...، أن يستقر المشار إليه في وظيفة رياسة الطب بالديار المصرية عوضاً عن والده بحكم وفاته .ليعلم من عواطفنا الشريفة أننا راعينا حقوق والده ووفيناه، ويتلو في أيامنا الشريفة هذه بضاعتنا ردت إلينا ؛لأنه الفاضل الذي إن بحث في العلوم الطبيعية فقد غرست في طبعه والطبع أغلب، أو تكلم في الرياضة بكلامه الزاهر كان لفظه من القانون أطرب، ...ولا حصل بين الجسم والصحة منافرة إلا وكان الصلح بينهما على يديه...فليباشر ذلك على ما عُهد من مبادئ أدواته التي هي غاية المنتهى، والوصايا كثيرة، وأرسل حكيماً ولا توصه، والله تعالى يحفظه حفظ الصحة للأبدان، ولا برح دليل المناصحة في خدمتنا الشريفة يأتينا منه ببرهان، إن شاء الله"[1].

وتوقيع آخر كتبه ابن حِجة الحموي، وهو توقيع المقر الزيني عبد الرحمن بن الخراط[2] بكتابة السر الشريف بطرابلس المحروس. ولقد بدأ التوقيع بمقدمة حمد الله عز وجل وشهد له بالوحدانية ولنبيه بالرسالة كعادة التوقيع، ثم انتقل لمدح عبد الرحمن وهو الموكل بوظيفة كتابة السر، ثم أورد التوقيع وأذن له باستلام الوظيفة وفي نهاية التوقيع قدم له الوصايا ودعا له بالتأييد والرشاد ومن ذلك التوقيع:" **الحمد لله الذي زاد دواوين الإنشاء في أيامنا الشريفة بهجة، ... ونشكره شكراً يبتسم كل ثغر لبركته وسره .ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ... ونشهد أن محمداً عبده ورسوله ...، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ... وسلم تسليماً... وكان المجلس السامي الزيني عبد**

(1) قهوة الإنشاء، 36.

(2) عبد الرحمن بن الخراط، أحد كتاب الإنشاء بالديار المصرية، ولد بحماة في سنة سبع وسبعين وسبعمائة، توفي ليلة الثلاثاء ثاني المحرم سنة أربعين وثمانمائة. وكان فاضلاً، أديباً بليغاً، المنهل الصافي، 213/7.

الرحمن بن الخراط، أدام الله تعالى نعمته، ممن في حُسن بيانه إيضاح وللسر إيداع، وللأدب إليه التفات لأنه بجواهر ترصيعه يُشنف الأسماع. وهو الفاضل الذي إذا نظم أزال بسهولة نظمه الإبهام والتوهيم.... فلذلك رسم بالأمر الشريف العالي ... المؤيدي السيفي، ...أن يستقر المشار إليه في وظيفة كتابة السر الشريف بطرابلس المحروسة؛ لأنه ممن يُحسن التحبير ويحصل به الاكتفاء والتتميم، ...فليباشر ذلك ويجعل الاستعانة بالله ...، ليصير لشقة الإنشاء به بعد النقص تسهيم وتكميل، ...، ولأصول التهذيب والتأديب مبالغة وترفيع، والوصايا كثيرة ولا يخفى على الأديب الفاضل الاحتراس والفرق بين المستوي والمقلوب، وعليه يحسن النسق في جمع الفرائد ليظهر براعة التخلص في عنوان كل مطلوب ؛لأنه الفاضل إن ...جاور البحر فالبحور تحت تصريف أوامره في نقضه وإبرامه، والله تعالى يجعل نظم هذا الثغر بحسن أدبه في بلاغة وانسجام، وكما أحسن له الابتداء يعضده بديع السموات والأرض بحسن الختام، بمنه وكرمه إن شاء الله تعالى[(1)].

توقيع آخر لقاضي القضاة ناصر الدين محمد بن العديم[(2)] ،بعودته إلى وظيفة قاضي القضاة بالديار المصرية، بعد وفاة قاضي القضاة السابق ، وكالعادة بُدئ التوقيع بمقدمة حمد الله عز وجل، ووحّده وشهد بنبوة محمد –صلى الله عليه وسلم –، ثم بدأ يمدحه ويذكر أحسن صفاته، ثم أورد له التوقيع بالوظيفة ليكون قاضي القضاة، وقد ختم التوقيع بوصايا تُعينه في عمله وتكون له ذخراً وذكراً، ودعا له بالعزة، وحسن الختام، وقوة الرأي والسعادة، ومن ذلك التوقيع: "**الحمد لله المبدئ المعيد، المانع المعطي ...الهادي إلى التمسك بالأحكام المحمدية ... ونشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له،... ونشهد أن محمداً عبده ورسوله .. .صلى الله عليه وعلى اله وصحبه ...وسلم تسليما. ..ولما كان الجناب العالي الحاكمي الناصري محمد بن المرحوم كمال الدين بن العديم، _أعز الله أحكامه _هو الذي أعرب عن جميل هذه الصفات...، وحكم له بصحة ذلك حكماً صحيحاً مستوفياً شرائطه، .... فإنه نشأ (بَرا بوالديه ولم يكن جباراً عصيا)... فلذلك رُسم بالأمر الشريف العالي السلطاني ...متع الله الإسلام والمسلمين ببقاء زمانه الذي أيامه أعياد ولياليه مواسم، ...أن يُفوُض للمشار إليه قضاء قضاة الحنفية بالديار المصرية، فهو المختار لهذا المذهب ، وليس للدرر قيمة عند أوصافه المنظومة، ... فهو واسطة عقده الذي عليها الخناصر تُعقد، ...فليتق هذا**

---

(1) قهوة الإنشاء، 114.

(2) ناصر الدين أبو غانم محمد بن عمر بن إبراهيم بن محمد العُقيلي الحلبي الحنفي المعروف بابن العديم، الضوء اللامع، 235/8.

الإقبال بالقبول والشكر المتزايد ويعلم أن في صلتنا للصابرين نعم العائد... ليباشر وظيفته على ما أجراها من جميل عوائده ...، فإنه من البيت الكمالي الذي جاء لبديع الفضائل تكميلاً، ولغريب العلم تأهيلاً، ... والوصايا كثيرة وهو ممن تنسم نسمات قبولها، وأقام بُرهان دليلها، فإنه لم يخلُ له من القيام بمصالح المسلمين فكر، ولكنه تجديد ذكر على ذكر، والله تعالى يقيم به عماد بيته الذي شيده الله بحسن السجايا، ويُعز أحكامه ويجعله دائم النفوذ في القضايا، ويحسن ختامه في جميع أحواله"[1].

أما المراسيم: فهي ما يكتب في صغائر الأمور التي لا تتعلق بالولاية[2].

وتُعرف أيضاً بأنها:" رسائل تتصدى لعلاج حالات اجتماعية كإبطال سلوك مشين أو أمر قبيح يخالف الدين"[3] وتُعد المراسيم رسائل سياسية، يبدؤها الكاتب بمقدمة يحمد الله عز وجل ويشكره على نعمائه، ثم يتحدث عن مصالح الرعية وعمارة البلاد، ثم يورد قوله :"رسم بالأمر الشريف أن يكون كذا وكذا" حسب المرسوم ، ويورد أمراً بضرورة العمل بهذا المرسوم ويختمه بالدعاء.

ومن تلك المراسيم: نسخة مرسوم بالمسامحة بالبواقي مما في ذمم الجند والرعايا بالشام، كُتب به في الدولة الناصرية في عهد محمد بن قلاوون ، كتبه العلامة كمال الدين الزملكاني، ولقد قُرئ على المنبر بالجامع الأموي بدمشق المحروسة، ولقد بدأ الكاتب المرسوم بخطبة حمد الله عز وجل على نعمه وصلي على رسوله الكريم، ثم انتقل للحديث عن الانتصارات والفتوحات التي حُققت، وانتشار السعة والدعة، ثم أورد المرسوم بالمسامحة بالبواقي مما في ذمم الجند. كما حث هؤلاء الجنود على حمد الله وشكره على هذا الإعفاء وهذه المسامحة، ودعاهم لرفع الأدعية لأيام الدولة الزاهرة، وحث كل من يعرف ويرى هذا المرسوم أن يعمل به وأن يعتمد حكمه. ومن ذلك المرسوم : "**الحمد لله الذي وَسِعَ كلّ شيء رحمةً وعلماً، وسمع نداء كلّ حيّ رأفةً وحلماً، ... نحمده على نعمه التي غَمرت رعايانا بإدامة الإحسان إليهم ،... ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ...ونشهد أنّ محمداً عبده ورسوله الذي جلا الغمّة، وهدى الأمّة، ، ...صلّى الله عليه وعلى آله وصحبه الذي أمروا بالتيسير...، وسلّم تسليماً كثيراً.**

---

(1) قهوة الإنشاء، 19.

(2) عصر سلاطين المماليك، 139/5، وأيضا التعريف بالمصطلح الشريف، 120.

(3) الأدب في العصر المملوكي، فنون النثر، سلام، 34.

وبعد، فإن الله تعالى لمّا خصّ أيامنا الزاهرة بالفتوح التي أنامت الرعايا، في مهاد أمنها، وأنالت البرايا، مواقع يمنها ومنّها، وكفّت أكفّ الحوادث عن البلاد وأهلها، ونشرت عليهم أجنحة البشائر في حَزن الأرض وسهلها، ...رأينا أن نُفْسِح لهم مجال الدّعة والسكون... ونسامحهم بالأموال التي أهملوها وهي كالأعمال محسوبة عليهم، ونعفيهم من الطلب بالبواقي التي نسوها كالآجال، ... فلذلك رسم بالأمر الشريف- لا زال برّه عميماً، وفضله لحسن النظر في مصالح رعاياه مُديماً أن تُسامَح مدينة دمشق المحروسة وسائر الأعمال الشامية بما عليها من البواقي من الدواوين المعمورة إلى المُدد المعينة في التذكرة الكريمة المتوّجة بالخط الشريف... فليتلقّوا هذه النعمة بباع الشكر المديد، ويستقبلوا هذه المنّة بحمد الله تعالى فإنّ الحمد يستدعي المزيد، ويُقْبِلوا على مصالحهم بقلوب أزال الأمن قلقها، وأذهبت هذه المسامحة المبرورة فرقها... وليتوفّروا على رفع الأدعية الصالحة لأيّامنا الزاهرة، ...، فقد تصدّقنا بهذه البواقي التي أبقت لنا أجرها وهي أكمل ما يُقتنى، وخفّفت أثقال رعايانا وذلك أجمل ما به يُعتنى. وسبيل كل واقف على هذا المرسوم الشريف اعتماد حكمه، والوقوف عند حدّه ورسمه؛....[1].

وهذا مرسوم آخر بمسامحة بواقي دمشق وأعمالها، من إنشاء شهاب الدين محمود الحلبي، بدأ المرسوم بخطبة حمد الله عز وجل كونه المسامح المعطي الرؤوف بعباده، وشهد له بالوحدانية، وصلى على رسوله الكريم، ثم أورد مقدمة المرسوم تحدث فيها عن الملك والنصر والتأييد من الله، ومصالح البلاد والعباد التي يقوم بها طاعة لله، و ضرورة إعفاء دمشق من البواقي لتتجه الهمم لإعمار البلاد، ثم أورد المرسوم بالمسامحة ويريد منه ابتغاء الثواب من الله عز وجل. وختم المرسوم بضرورة شكر الله عز وجل على هذه المحاسن، وضرورة الدعاء لأيام الدولة الزاهرة بالبقاء والتأييد، وحث الجميع على المسارعة للعمل بهذا المرسوم، ومن ذلك المرسوم:" **الحمد لله الرؤوف بخلقه، المتجاوز لعباده عما قصّروا فيه من حقّه،... نحمده على نعمه التي عمّت الرّعايا بتوالي الإحسان إليهم، ...ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ....ونشهد أنّ محمداً عبده ورسوله الذي أسكت ألسنة الشرك وأخرسها، ...صلّى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين شفعوا العدل بالإحسان، ...وسلّم تسليماً كثيراً.**

---

(1) صبح الأعشى، 28/13.

وبعد، فإننا لما آتانا الله من ملك الإسلام، وخصّنا به من الحكم العامّ، في أمة سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة والسلام، وأيّدنا به من النصر على أعداء دينه، وأمدّنا به من تأييده ودوام تمكينه،... اقتضت آراؤنا الشريفة أن نعفي منها ذمماً كانت في أغلال إسارها، وأثقال انكسارها، وروعة اقتضائها، ...فرسم بالأمر الشريف- زاده الله تعالى علوّاً وتشريفاً، وأمضاه بما يعم الآمال رفقاً بالرعايا وتخفيفاً، ...أن يسامح... فليستقرّ حكم هذه المسامحة استقراراً يبقي رسمها، ويمحو من تلك البواقي رسمها واسمها، ويضع عن كواهل الرعايا أعباءها، ويسيّر بين البرايا أخبارها الحسنة وأنباءها.

فقد ابتغينا بالمسامحة بهذه الجُمل الوافرة ثواب الله وما عند الله خير وأبقى، وأعتقنا بها ذمم من كانت عليه من ملكة المال الذي كان له باستيلاء الطّلب واستمراره مسترقّاً، تقرّبا إلى الله تعالى لما فيه من إيثار التخفيف، ... وتوفير همّ الرّعايا على عمارة البلاد ... فليقابلوا هذه النّعم بشكر الله على ما خصّ دولتنا به من هذه المحاسن، ... ويبتهلوا لأيّامنا الزاهرة بالأدعية التي تخلّد سلطانها، وتشيّد أركانها، وتعلي منار الدين باعتلائها، وتؤيّدها بالملائكة المقرّبين على أعداء الله وأعدائها، وسبيل كل واقف على مرسومنا هذا: من ولاة الأمر أجمعين العمل بمضمونه، والانتهاء إلى مكنونه، والمبادرة إلى إثبات هذه الحسنة، والمسارعة إلى العمل بهذه المسامحة التي تستدعي مسارّ القلوب وثناء الألسنة...."[1].

خامسا: البشارات.

وتعرف البشارة بأنها: "رسالة شائقة تبشر بمجيء السلطان من رحلة أو غزو أو تبشر بانتصار الجيش أو وفاء النيل أو ولادة مولود . وقد تُقرأ البشارة في المساجد كالخطب، أو تُرسل للآفاق لإعلانها أو قراءتها على الجمهور"[2] وتعرف أيضا: "أطرف رسائل الديوان لما يتاح فيها للمنشئ من ألوان الوصف والمبالغة، وكأنه فيها حر الزمام يسرح ويمرح كما لذ لقلمه وطاب، ولقد شبهت برسائل الوصف لكثرة استخدام جمال التصوير وروعة التعبير"[3].

---

(1) صبح الأعشى، 24/13.

(2) الأدب العربي وتاريخه، سليم، 31.

(3) عصر سلاطين المماليك، 143/5.

ولقد كثرت موضوعات البشارات، ومناسباتها، ورسائلها وكان منها: عودة السلطان من سفر فتكتب الرسائل تبشر بعودته، تحرك جيش للحرب في موقعة ما فيبشر الشعب بالانتصار، ويشجع الجنود على القتال، ومنها أيضاً فيضان النيل وتحول الأرض الجرداء إلى أرض غَنّاء؛ فيُبشر الشعب بذلك، ومنها بشارة بولادة مولود للملك أو للسلطان يبشرون الشعب بولادته ويهنئون الملك به، وغيره الكثير من الأنواع

كما أن البشارة لا تقتصر على داخل البلاد وشعبها، بل منها ما يرسل للبلاد البعيدة الموالية له ليبشرها بالنصر، أو للمعادية له فيرسلها تهكماً وتهديداً[1].

والبشارة نمط من أنماط الرسائل السياسية ،وغالباً ما تبدأ البشارة بمقدمة يُدعى فيها للمرسَل إليه هذه البشارة حسب كل واحدة، ثم ينتقل لموضوع البشارة ويتحدث عنه ويسهب في ذلك ،وتختم البشارة بدعاء حسب كل موضوع من موضوعات البشارات.

ومن ذلك بشارة بوفاء النيل، كتبها صلاح الدين الصفدي إلى بعض النواب، حيث جرت العادة كل سنة إذا وفى النيل أن يُرسل السلطان بشيراً بذلك إلي البلاد لتطمئن قلوب العباد وهي عادة قديمة إلا أنها مستخدمة.

لقد بدأ الكاتب البشارة بمقدمة دعا فيها للجناب العالي المرسَل إليه هذه البشارة، وخصه بسلام وشكر كريمين، ثم انتقل للحديث عن النيل وأهميته، ثم أردف حديثه بموضوع البشارة وهو وفاء النيل وما يحدث له عند وفائه، ثم يختم البشارة بكلمة توجه للجناب العالي ليأخذ حظه من هذه البشارة ودعا له بالبقاء واستمرار التهاني والأفراح والأنباء الحسنة ومن تلك البشارة :"**ضاعف الله نعمة الجناب وسر نفسه بأنفس بشرى، وأسمعه من الهناء كل آية أكبر من الأخرى، .... هذه المكاتبة إلى الجناب العالي تخصه بسلام يُرى كالماء انسجاماً، ويَروق كالزهر ابتساماً، ... ونقصّ عليه من أنباء النيل الذي خص الله البلاد المصرية بوفادة وفائه، ... والنيل له الآيات الكُبَر، وفيه العَجائب والعِبر، منها وجود الوفا، عند عدم الصفا، و بلوغ الهرم، إذا احتد واضطرم، وأمن كل فريق، إذا قُطع الطريق، .... وهو أنه في هذا العام المبارك جذب البلاد من الجدْب وخلّصها بذراعه، ....،وتضرع بمد ذراعه إلينا، وسلم عند الوفاء بأصابعه علينا. ونشر علم ستره، وطلب لكرم طباعه جبر العالم بكسره... فليأخذ الجناب العالي حظه من هذه البشرى التي جاءت بالمن والمنح، ... وليتلقاها بشكر يضيء**

(1) ينظر عصر سلاطين المماليك، 5/ 143

به في الدجى أديم الأفق، ويتخذها عقدًا تُحيط منه بالعنق إلى النطق، وليتقدم الجناب العالي بألا يحرك الميزان في هذه البشرى بالجباية لسانه، وليعط كل عامل في بلادنا بذلك أمانه، وليعمل بمقتضى هذا المرسوم حتى لا يرى في إسقاط الجباية خيانة، والله يديم الجناب العالي لقص الأنباء الحسنة عليه، ويمتعه بجلاء عرائس التهاني والأفراح لديه." [1].

بشارة أخرى وهي للتبشير بالمولود، ولقد كانت البشارة بالمولود موجودة في العصر المملوكي، وها هو ابن حِجة الحموي يكتب بشارة بمولود المقام الشريف سيدي أحمد[2]، قد تحدث في هذه البشارة عن مولد أحمد وما حدث بميلاده من ارتفاع للمصائب، وسرور الجميع بمولده، وابتهاج النيل وابتسام ثغر الإسكندرية، ببشرى ميلاده وقد ختم البشارة بدعاء الله ليجدد المسرات والسعادة، ومن تلك البشارة: **"ضاعف الله تعالى نعمة الجناب، ولا زال سمعه الكريم مشنفاً من عقود مسراتنا بكل دره، ورياحين بشائرنا تتحفه بما يضوع نشره من الحضرة.**

صدرت هذه المكاتبة تهدي من غرسنا الشريف ما أثمر ودنت قطوفه إليه، ليعلم أن الله قد أسبغ ظلال دوحنا الوريف عليه... وتَبدي لعلمه الكريم أن مولد أحمد أمست به مشيختنا الشريفة أحمدية. وظهر هو والثريا في أفق واحد فارتفعت العاهات عن أيامنا المؤيدية، وأزال مرارة هذا الفصل بحلاوة مولده القاهرية، ...وولد في تختنا الشريف فأمست النصرة وراية الفرح في هذا التخت تتولد. فقابله البدر فأمسى سناه مرمياً على الطرق ... وابتهج النيل ....، وابتسم ثغر الإسكندرية وألبسته هذه البشرى تشريفاً ودار الطراز، ظهر يوم الأحد وخدمه طالع سعيد فقلنا: "ما أبرك ليلة الاثنين وود الأفق أن يضعه من رأس نجومه وعين شمسه على الرأس والعين. وقد آثرنا عِلْم الجناب بهذه البشرى ليأخذ منها حظه ....، ويمتطي ظهور مسراتها فقد ناولناه من طرف كل سطر عنان...، ويتحلى بعد مولد أحمد من نسيج مدائحه ببرده، والله تعالى يجعل حلل مسراته في أيامنا الشريفة محددة، ..." [3].

وبشارة أخرى كتبها أبن حِجة الحموي بحلول ركاب المولى الشريف بالديار المصرية، في مستهل شهر رمضان سنة سبع عشرة وثماني مائة، ولقد كانت تلك البشارة ليطمئن قلوب العباد على

---

(1) حسن المحاضرة، 369/2.

(2) هو شهاب الدين أبو السعادات أحمد بن الشيخ المحمودي، السلطان المظفر، الضوء اللامع ، 313/1.

(3) قهوة الإنشاء، 274.

وصوله الشريف للبلاد وقد كان ذلك اليوم يوماً مشهوداً. وقد تحدث فيها الكاتب عن حلول ووصول الركاب للديار المصرية ،وتركه لبلاد الشام بأمن وأمان واعتبر أن ذهابه لبلاد الشام لَماً للشمل، ونشر للعدل، ثم تحدث عن وصوله للقاهرة وجلوسه فيها على كرسي ملكه وانتشار المسرة والسعادة لوصوله وحمد الله عز وجل على عودته. ومن تلك البشارة: "**أعز الله تعالى أنصار الجناب الكريم، صدرت هذه المكاتبة ...وتبدى لعلمه الكريم حلول ركابنا الشريف بالديار المصرية بعدما تركنا قطوف الأمن بأدواح الشام دانية، ... واستطردنا بخيول النصر على ممالكنا الشامية عند العود، فقد جعله الله استطراداً بديعاً وحصل به لف الشمل ونشر العدل الذي ما برح لتيجان الملوك ترصيعاً، .. حماة المحروسة قالت ما برحت مشرفة بالمؤيد،...وغنت دمشق بجنكها على تلك الدفوف، ولعبت أنامل النسيم بعيدانها، وظهرت غُرة الفرح بميدانها، ... وقال العدل للخائف من الظلم (أقبل ولا تخف إنك من الآمنين) وفتح باب الرحمة بالبيت المقدس فما أبهى ذلك الفتح وأبرك. وبلغ الهناء الرُشد بصدر ذلك الحرم المنشرح وأدرك، وقال له الفرح بالتين والزيتون (ألم نشرح لك صدرك) ....، وظهر بديع الانسجام لأهل البيت المحرم، وغنى بشير الهناء بذلك البيت الشريف وزمزم، وأمست أعداء دولتنا الشريفة في صفد مقرنين بالأصفاد ....وجال الهناء في غزة ....، وصار النصر إلى أن وصل من القاهرة إلى بابه ودخل منه بقوة وسلطان، وجلسنا على كرسي ملكنا الذي تولدت النصرة والاجتماع بتخته الشريف، وتطابقت المسرة به بين التالد والطريف، وراق مديد بحر النيل واظهر من بديعه لأهل مصر الاكتفاء، ....هذا وصارت على شاطئه كالآذان لأنها مالت طرباً لسماع هذه البشرى وهي صعدة الصماء، وابتسم الثغر الإسكندري وأقمر بدره، وصفق بكفوف موجه على رقص قيان الجواري بحره. وقد أتحفنا الجناب ببسيط هذه البشرى ليأخذ منها حظه بالوافر، ويقرع مسامع الصم بإعلان البشائر، والله تعالى يطلق ألسنة الأقلام بتهانيه ويملأ بطون الدفاتر وكما أحسن براعته في الأول يحسن ختامه في الآخر بمنه وكرمه إن شاء الله تعالى**"[(1)].

وبشارة أخرى كتبها ابن حِجة الحموي في وفاء النيل، وقد تحدث في هذه البشارة عن وفاء النيل، وآثار هذا الوفاء على الأشجار والنبات والأرض وعلى المدن المصرية، ولقد تفنن في حديثه وفي بشارته هذه وأنهى البشارة بدعوة المقر لأخذ حظه من هذه البشارة ومنها: "**ونُبدي لعلمه الكريم ظهور آية النيل الذي عاملنا فيه بالحسنى وزيادة، وأجراه لنا في طرق الوفاء على أجمل عادة، وخلق أصابعه ليزول الإبهام فأعلن المسلمون بالشهادة؛ كسر جسره فأمسى كل قلب بهذا الكسر**

---

(1) قهوة الإنشاء، 79.

مجبوراً؛... فقد قَبّل ثغور الإسلام وأرشفها ريقه الحلو فمالت أعطاف غصونها إليه، وشبب خريره في الصعيد بالقصب؛ ومد سبائكه الذهبية إلى جزيرة الذهب، ... وعمته البركة فأجرى سواقي ملكه إلى أن غدت جنة تجري من تحتها الأنهار، ... وسقى الأرض سلُافته الخمرية فخدمته بحلو النبات، وأدخله إلى جنات النخيل والأعناب، فالق النوى والحب فأرضع جنين النبت وأحيا له أمهات العصف والأبّ، وصافحته كفوف الموز فختمها بخواتمه العقيقية، ولبس الورد تشريفه وقال أرجو أن تكون شوكتي في أيامه قوية، ... ولبس شُربوش الأتُرج وترفّع إلى أن لبس بعده التاج وفتح منشور الأرض بعلانية بسعة الرزق وقد نفذَ أمره وراج... وحظي بالمعشوق وبلغ من كل أُمنية مناه فلا سكن على البحر إلا تحرك ساكنه بعد ما تفقه وأتقن باب المياه ومد شفاه أمواجه إلى تقبيل فم الجسر وزاد بسرعته فاستحلى المصريون زائده على الفور ...وصار أهل دمياط في برزخ بين المالح وبينه، ... وأمست سود الجواري كالحسنات في حُمرة وجناته، وكلما زاد زاد الله في حسناته، فلا فقير سد إلا حصل له من فيض نعماه فتوح، ولا ميت خليج إلا عاش به ودبت فيه الروح، ولكنه احمرت عينه على الناس بزيادة وترفع... وقد أثرنا المقر بهذه البشرى التي عم فضلها براً وبحراً، وحدثناه عن البحر ولا حرج وشرحنا له حالاً وصدراً، ليأخذ حظه من هذه البشارة من طيبات ذلك النسيم أنفاساً عاطرة، والله تعالى يوصل بشائرنا الشريفة بسمعة الكريم ليصير بها في كل وقت مشنَّفا..." (1)

(1) ثمرات الأوراق ، 230

المبحث الثاني

الرسائل الاجتماعية

شهد العصر المملوكي نشاطاً واسعاً في الرسائل الاجتماعية، التي اهتمت بمظاهر الحياة الاجتماعية، والصلات الإنسانية بين أفراد المجتمع في شتى المناسبات، ومن هنا تعددت الرسائل التي الاجتماعية؛ فكان منها: رسائل المديح، ورسائل التهنئة، ورسائل الشكر، ورسائل التعزية، ورسائل العتاب.

وهذه الرسائل تعطي صورة واقعية عن العلاقات الاجتماعية التي كانت سائدة في ذلك العصر؛ فالتهنئة لها أثر إيجابي في الأفراح ، والتعزية ترسخ مفهوم الوقوف بجدية إزاء أحزان الناس، ومحاولة التخفيف عنهم، والهدية تزيد من المحبة بين الناس وتدفع لكتابة رسائل الشكر وتنمي العلاقات الحسنة بين أفراد المجتمع .

وبقية الرسائل لها الأثر الإيجابي الكبير في حياة الناس، ومن هنا بدأ الكُتّاب يكتبون الرسائل ويتفننون بها، وشملت جميع مناحي الحياة الاجتماعية .

وقد كانت الرسائل الاجتماعية فضلاً عن أسلوبها الفني البديع تتميز بسمت أدبي دقيق ؛فقد بدأت بمقدمة فيها حمد الله والصلاة على رسوله الكريم، وبدايات بارعة تناسب ألفاظها ومعانيها موضوع الرسالة؛ مع وضع عبارات الود والشوق والمديح، ، ثم عرض الموضوع، ثم يختمها بكلمة ختامية يدعو فيها للمرسَل إليه .وستبدأ الباحثة بالحديث عن أنواع تلك الرسائل:

أولاً: رسائل المديح:

تعد من أهم الرسائل الاجتماعية في العرض تبعاً لموضوعها، ولا تكاد تخلو رسالة من المديح، كما يعد هذا النوع من الرسائل فرصة جيدة للكتاب لإظهار عواطفهم وحبهم وتقديرهم لبعضهم. ويُظهر الكاتب فضل الممدوح وكريم خصاله .

ومن رسائل المديح: رسالة كتبها شهاب الدين القلقشندي في مدح المقر الفتحي أبي المعالي فتح الله صاحب دواوين الإنشاء الشريف بالديار المصرية، لحصوله على وظيفة صاحب ديوان الإنشاء، فتحمل معنى المدح لاستحقاقه هذه الوظيفة عن جدارة، مع تهنئته وقد كانت للمدح أقرب.

وقد بدأ الرسالة بمقدمة حمد الله عز وجل وشهد له بالوحدانية، ولنبيه بالرسالة، وصلى عليه وسلم أفضل صلاة وأتم تسليم، ثم انتقل للحديث عن مكانة وظيفة رئاسة ديوان الإنشاء، وبين منزلة صاحب ديوان الإنشاء فمدحه بشتى ضروب المدح، فهو كليم الملك، وعميد المملكة وواسطة الرعية عن الملك.

ثم تحدث عن وجود ديوان الإنشاء بلا صاحب حقبة من الزمن إلى أن تم اختياره لهذا المنصب، وقد نُعت بحسن الرأي ووُصف بيانه بالسحر الحلال. ثم يعتذر في نهاية الرسالة عن تقصيره وعجزه عن إيفاء الممدوح حقه من الثناء والشكر. ومنها: "**الحمد لله الذي جعل الفتح مَحطّ رحال القرائح الجائدة، ومُستقرّ نواها،...نحمده على أنّ خَصّ المملكة المصرية من إيداع سِرّها المصون بأوسع صدر رحيب،... وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ...وأشهد أن محمداً عبده ورسوله أَفضل نَبِيّ سَنّ المَعروف ونَدب إليه، ... صلّى الله عليه وعلى آله وصحبه ...وسلّم تسليماً كثيراً. وبعد...**

ولا خَفاء أنّ صاحب ديوان الإنشاء من هذه الرتبة بالمَحَلّ الأرفَع، والمَنزلة التي لا تُدَافَع ولا تُدفع، والمقام الذي تَفرّد بصَدارته، فكان كالمَصدر لا يُثنّى ولا يُجمع؛ إذ هو كليم الملك ونَجِيّه، بل عَميد المملكة وعِمادها، ورُكْنُها الأعظمُ وسِنادُها...ثم قد مضت بُرهة من الأيام و ديوان الإنشاء من نَظَر من هو مُتَّصف ببعض هذه الأوصاف عاطِل... إلى أن طَلَع نَيِّر الزّمان وتَوضّح شُرُوقه، وظَهرت تباشير صَباحِه ...، فأَقْبلتْ الدولة الظاهرية بسعادتها، وتلقّتها الأيام الناصرية جَارية مِنها على وَفقِ عادتها، ... فكان خُلَاصَة اصْطِفائِهما، وزُبْدَةُ انْتِقائهما، المقرُّ الأشرفُ، العاليّ، ...، الفَتْحيّ، نظامُ الممالك الإسلامية وزِمام سِياسَتها، ومُنفّذُ أمورِها، ؛ أبو المعالي فتحُ الله صاحبُ دواوين الإنشاء الشريف بالممالك الإسلامية، ...فإن تَكلّم أَتى من بيانه بالسّحر الحلال، ...

يُؤَلّفُ اللّؤلؤَ المنثورَ مَنطِقُه ... ويَنْظِمُ الدُّرّ بالأقلام في الكُتُب!

إن اعترافي بالعَجز في مَدحه أَبلغ مما آتيه، وإقراري بالتّقصير في شُكره أولى ...

ولو أنّ لي في كلِّ مَنْبَتِ شَعرةٍ ... لِساناً يُطيلُ الشُّكر فيه لقَصَّرا![1]

(1) صبح الأعشى ، 191/14

ومن تلك الرسائل رسائل المدح التي كانت تُكتب على المصنفات أو القصائد المنظومة، حيث إذا نظم الشاعر قصيدة وأجاد فيها كتب أهل الصناعة يمدحون قصيدته .ومن ذلك رسالة كتبها الشيخ صلاح الدين الصفدي على مصنف وضعه الشيخ تاج الدين علي بن الدرهم الموصلي الشافعي.

فأعجب به أشد الإعجاب كون واضعها علامة بل أشهر علامة، وكل الأئمة تعترف بما في ذلك الكتاب من أدلة، وكل التصنيفات تقف أمامه، ففيه أدلة لا تُعارض ، وقد ختم الرسالة بأبيات شعر مدح فيها الكتاب ومن تلك الرسالة :

"وقَفْتُ على هذا التصنيف الذي وضعه هذا العلّامة، ونَشَر به في المَذْهَب الشافعيّ أعلامه، وأصبح ونِسبته إليه أشهر عَلم وأبْهر علَامة ...، كلُّ الأئمة تَعترفُ بما فيه من الأدلّة، وكلُّ التصانيفِ تقولُ أمامه: بسم الله؛ كم فيه من دليل لا يُعارض بما يَنْقُضُه، وكَم فيه من حُجّةٍ يَكِلّ عنها الخَصْمُ لأنّ عَقله على مَحَكّ النّقد يَعرِضه؛ قد أَيّد ما ادّعاه بالحديث والأثر، ونَقل مذهب كلّ إمام سَبَق وما عَثر؛ لقد سُرّ الشافعيّ بِنَصّ قوله الذي هَذّبه، وجَعل أعلام مَذهَبه مُذْهَبه، وأتى فيه بنُكتٍ تُطربُ من أسرار الحَرف، ...

أكْـــــــرِمِ بـــــــــه مُصــــــــنّفاً	**فــــــاقَ تَصـــــــانيفَ الــــــوَرَى!**
ليــــــلُ المِـــــــدَادِ فيـــــــه	**بـــــالمَعنَى المُنيـــــرِ أَقمـــــرا!**
كـــــم فيـــــه بُـــــرْدُ حُجّـــــةٍ	**قـــــد حَاكَـــــــه مُحـــــــرّرا،**
وكـــــــم دَليـــــــل سَـــــــيفُه	**إذا التَقـــــى خَصـــــما فَـــــرَى**
فلـــــم يَكـــــن مـــــن بَعـــــدِه	**مُخـــــالُف قَـــــطٌّ يُـــــرى!!** (1)

ورسالة مدح أخرى كتبها المقر الشهابي بن فضل الله العمري يمدح فيها قصيدة ميمية للشيخ صلاح الدين الصفدي ، قد مدح فيها الأمير سيف الدين ألجاي الناصري، وقد مدحها ابن فضل العمري فكانت كلمات القصيدة تكاد أن تُرى من شدة جمالها وبلاغتها، وكانت لا تقاس بأمثالها من الكلام، والممدوح فيها قد أعطى جمالاً ورونقاً للقصيدة، وبذلك استحقت القصيدة المدح.

ومن تلك الرسالة: **"وقَفت على هذه القصيدة التي أَشْرقت معانيها فكادت تُرى، وتَمكّنَت قَوافيها فاسْتَمسك بها الأدبُ لمّا كانت الميماتُ فيها كالعُرا، فوجدتُها مشتملة من البلاغة بوَزْنِها على البحر**

---

(1) صبح الأعشى، 335/14

المحيط، لَطِيفة لا تُقاسُ بأمثالها من الكلام المُركّب لأنها من البَسيط، فَنَظَرْتُ إليها مُكْتَسِباً من بَيانها سِحر الحَدَق، مُتعجّباً من مُنْشِئها لغَرس يُسْرِعُ الإثمار في الوَرق، ثم فَطِنتُ إلى أنّ الممدوح بها أعزّه الله تعالى ...بَرّحت مناقبه بما كان مصوناً في أَخْبِيَةِ النّفوس؛ وقد استوجب هذا المادحُ عطّف الله تعالى قَلبه عليه من مَنَائِحه حَظّاً جزيلاً، وحُبّاً يقول به لمن قصد المساواة به: لو كنتُ مُتّخذاً خَليلاً لا تخذتُ فُلاناً خَليلاً:

مـــــــــدَبِّر المُلـــــــــك لـــــــــه عـلـــــــــى العُلـــــــــى مَقَاعِـــــــدُ

تَهْـــــــــوِي إلـــــــــى جَنَابِـــــــه القُصّـــــــــادُ والقَصَـــــــــائِدُ! [1]

ورسالة مدح أخرى كتبها القلقشندي في مدح قصيدة نظمها شرف الدين عيسى بن حجاج الشاعر المعروف بالعالية[2]، وقد مدح فيها الرسول _صلى الله عليه وسلم_، بدأها بمقدمة حمد الله عز وجل لأنه أحل سحر البيان، وذلل الألفاظ وفتح طرق الفصاحة، ثم صلى على رسوله الكريم، ثم انتقل لموضوع الرسالة، وقام بمدح الشاعر شرف الدين بأجمل عبارات المدح ودعا له بالرفعة والسبق، وعاد مرة أخرى يمدح القصيدة فكانت بليغة فريدة يتيمة لا مثيل لها. والأدباء يستظلون بظلها ومنها : "**أما بعد الحمد لله الذي أَحَلّ سِحْرَ البَيان، وأَقْدر أهلَ البلاغة من بَديع التَّخيّلِ على ما يَشهد بصِحّته العَيان،... وأوْضحَ لهم طُرُق الفصاحة فَغَدت لديهم- بِحمد الله تعالى- سَهلةُ القِياد، .....والصّلاة على رسوله محمد صلّى الله عليه وسلّم ... فإنّي وقفتُ على البَديعِيّة البَديعَة التي نظمها الفاضِل الأرفع، أديبُ الزّمان، وشاعرُ الأوان، شرفُ الدّين أبو الرُّوح عيسى العاليـة- أعلى الله تعالى منار أَدبه ...وبَلَغَ به من قَصَب السّبق ما يَمتنعُ أن يراه على البُعد مُضاهيه-...(فَظَلَّتْ أَعْناقُهُمْ لَها خاضِعِينَ)**

وكيف لا تَخضعُ لها الأعناق، وتَذلّ لها رِقابُ الشُّعراء على الإطلاق، وهي اليَتِيمةُ التي أُعْقِمَتِ الأفهامُ عن مِثْلها، والفَريدةُ التي اعترف كلّ طَويلِ النّجاد بالقُصُور عن وَصلِها... إن ذُكرتْ ألفاظُها فما الدُّرّ المَنثور؟ أو جُليتْ مَعانيها أَخْجلتِ الرَّوض المَمْطُور، أو اعْتُبر تَحرير وَزنها فاق

---

(1) صبح الأعشى، 336/14.

(2) شرف الدّين عيسى بن حجّاج السّعدي المصري الحنبلي، الأديب الفاضل، المعروف العالية. كان فاضلا في النحو واللغة، توفي سنة 807. شذرات الذهب، 109/9.

الذَّهب تَحريراً، أو قُوبلتْ قَوافيها بغيرها زَكَتْ تَوفيراً وسَمَتْ تَوقيراً، ....، فإَطْنَابُها- لَفَصاحَتِها- لا يُعدّ إطناباً، وإيجَازها- لبلاغَتها- يَمُدُّ على المعاني من حُسن السَّبك أَطْنَاباً ...

وبالجملة فمآثِرُها الجميلة لا تُحصى، وجَمائِلُها المأثورة لا تُعدُّ ولا تُسْتَقصى...و «ابن المُقفّع» يَهْتَدي بِهَديها ويَروِي عن بلاغتها، «وامرؤُ القَيس» يَقْتَبِسُ من صَنعة شِعرها، و «الأعشى» يَستضِيء بطَلَعة بَدرها..." [1]

ثانياً: رسائل التهنئة:

تعد هذه الرسائل عن العلاقات بين الأصدقاء والأحباب، ويتجلى فيها التعبير عن معاني المودة والإخاء والامتنان؛ فالحياة الاجتماعية مليئة بالمناسبات، منها عودة من حج، أو زواج، أو عودة لوظيفة، أو ولادة مولود جديد وغيرها من المناسبات. ومن تلك الرسائل رسالة تهنئة كتبها جمال الدين بن نباتة عن نائب الشام إلى القاضي علاء الدين بن فضل الله كاتب السر الشريف، بالأبواب الشريفة بالديار المصرية عند عودته من الكرك للديار المصرية كتبها مهنئاً له بالعودة. وتحدث في بداية الرسالة عن الآمال بأن يعود القاضي علاء الدين إلى الديار المصرية سالماً آمناً، ثم انتقل ليحمد الله عز وجل على عودته وقدم له التهنئة بالسلامة، وصور ابتهاج وفرحة الملوك ببشرى عودته إلى دياره، واستقراره إلى كتابة السر بالأبواب الشريفة السلطانية . ومن تلك الرسالة:" **تُقبّل الباسطة الشريفة لا زالتْ خناصر الحمد على فَضل بنَانها مَعقودة، ومآثِرُ البأس والكرم لها ومنها شاهدةً ومشْهُودة،... ويُنهي ما وصل إليه وإلى الأولياء من السُّرور، وما رُفع بينهم وبين الابتِهاج من الشُّرُور، وما طُولِع في أخبار المَسرّة من السُّطور، بوُصُول مولانا ومن معه إلى مساكن العزّ ساكِنين، ودُخولهم كدُخول يوسُف عليه السّلام ومَنْ معه إلى مصر آمنين، واستقراره في أشرف مكان ومَكانة، ... فالحمد لله على أن أقرَّ العيون بمعاودة ظِلّه الوَريف، وعلى أن شَفى الصُّدُور بقُربه وأَوّلها وأولاها صَدر السرّ الشريف، وعلى أن أجزلَ الهناء وقد شَمِلَ ظِلّه، وقد كَمُل بابن الفضل فَضْلُه، وقد بَهَر سَناؤه وسَناه، ... وقد أخذ المملوك حظّه من هذه البُشرى، ووالى السُّجود لله شُكرا، ... (وَكانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً)**[2].

---

(1) صبح الأعشى، 337/14

(2) صبح الأعشى، 36/9

وتهنئة أخرى كتبها الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي، وهي تهنئة بالبنين، وقد بدأ الرسالة بأبيات من الشعر عبر فيها عن السعادة والتهنئة المقدمة والبشارات للتمتع بالأولاد، ودعوة بتجديد المسرات والبشائر، ثم انتقل لشكر الله على نعمة الولد الموفق النجيب، ودعا له بالحياة والبقاء وطول العمر والصحة والسلامة والسعادة، وختم التهنئة ببيت شعر خاطب فيه والد المولود بأن الله قد أعطاه الحياة ليرى ولده أفضل الناس. ومن تلك الرسالة:

"هُنِّئْتَ بالإسعافِ والإسْعادِ	**ونَفَاذِ أمرٍ في العدا بنَفَاد**
وبَقِيتَ ما بَقِي الزمانُ مَهنّأ	**ووُقِيتَ شَرّ شَماتةِ الحُسّاد**
حَتّى يخاطَبك الزمانُ مُبشّرا	**مُتعتَ بالإخوان والأولاد**

جدّدَ الله في كلّ يوم له مَسرّة وبُشرى، وأطابَ لعُرفه عَرفاً ونَشرا، وشدّ له بولده السعيد الطلعةِ أزْرا، وسَرّى به الهُموم عن القلوب وأصارَهَا لدَيه أسْرى، ورفع درجَته إلى سماء المعالي ليُقال: سُبحان الذي بعبِده أسرى.

المملوك يَخدم المولى ويهنِّيه ويشْكُره ويُطلِعه على ما حصل له من الابتهاج ... وظهورُ ميمونِ الغُرّة الذي جاء لأهله بأمانٍ من صُروف الدّهر، وهو الولد العزيز الموَفَّق النّجيب، فلان، أبقاه الله تعالى ليحيا مشكوراً محموداً، وأدام عزّه وعُلاه، وأعلى نجمه وخلّد شرفه وبهاه، وضاعف سناءه وسناه، وأرانا منه ما أرانا من السعادة في أبيه، فَسرّ وابتهج بهذه النعمة غاية السّرور والابتهاج، واتَّضح له في شِكر إحسان المولى ...، وسأل الله تعالى أن يُطوّل له عمراً، ويَجعله لإسعاد والده وإِسعافه ذُخراً، ليَرْتَعَا في رياض الدَّعَة في صحّة وسلامة، ويجعلا في فناء العلا لهما دار إقامة، ويبلُغا من السعادة درجة عالية لا تُرام، وتَخضع لهما اللّيالي والأيّام، ...

مدّ لك الله الحياة مدّا	**حتّى ترى نجلك هذا جَدّ[1]**

وتهنئة أخرى كتبها الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي، في تهنئة بقدوم من سفر، بدأها الحلبي بمقدمة دعا الله عز وجل أن يديم ظل من سافر ،يرفع محله ومكانته وهنأه بقدومه من السفر ولم شمل الأهل بعد طول الغياب.

---

(1) صبح الأعشى، 37/9

ومن تلك الرسالة: " **أدام الله ظلَّه، ورَفع مَحلّه، وشَكر إنعامه وفَضله، وأعزّ أنصاره، وضاعف اقتداره، ولا زال مُؤيّداً في حركاته، مُسدّداً في سائر فعلاته، مَصحوباً بالسلامة ...، مخصوصاً من الله تعالى بالأعوان والأنصار.**

المملوكُ يُنهي بعد تقبيل الأرض، والقيام بما يَجب من سُننه والفرض، عِلْمَه بحلول ركابه العالي بمَغناه، واستقرار خَاطره الشريف في مَحلّه ومَثواه، وجَمع الشّمل بالأهل بعد طول الغيبة، ... فتضاعف لذلك فَرحه وسروره، وزال عن قلبه قليل الهمّ وكثيره، فالله يمنحُ المولى أطيب المنازل، وأسرّ الرّواحل، ويجعل تجارة مجده رابحة، وأوامر دوام عزّه لائحة، حتّى تُنشد نفسه الكريمة قول أبي الطيّب .

أنا من جميع النّاس أطيبُ منزلا وأسَرُّ راحلةً وأربحُ متجرا

لا زالت الأعين قريرة برؤيته، وقلوب الإخوان قارّة بمشاهدته، والأوجه وسيمة، والنّعم مُقيمة، –إن شاء الله تعالى_"[1]

تهنئة أخرى كتبها صلاح الدين الصفدي مهنئاً القاضي إبراهيم بن محمود بن سلمان بن فهد[2] بعودته إلى منصب كتابة السر الشريف بحلب، وقد بدأ الرسالة بأبيات من الشعر تحدث فيها عن عودته الغراء التي أفرحت وجوه البشر، وأصبح حوضه مليئاً بالتهاني لهذه العودة المظفرة، وتحدث عن الابتهاج والسرور والهناء الذي حصل بفضل هذه العودة الميمونة، و أنهى رسالته بدعاء له ليديم الله تلك الأيام السعيدة .ومن تلك الرسالة :

"بعودتك الغراء قُرت نواظُر وأمست وُجُوه البشر وهي نواضر

فروض الأماني ظِلُّه بك وارف وحوض التهاني ظِلُّه منك وافر

يقبل الأرض ويهنئ نفسه والأنام والأيام، ومن خط الطروس، ووشح برودها بالأقلام، ومن كتب الإنشاء فآخى من كلامه بين الجواهر في النظام...؛لأن مولانا _بسط الله ظله_ بركة هذا الوجود، ومن هبّات نسيمه ينشق الناس عُرف الهِبات والجود، ويُنهى ما حصل له من الابتهاج والسرور، و

(1) صبح الأعشى، 37/9

(2) إِبْرَاهِيم بن مَحْمُود بن سلمَان بن فَهد الْحلَبِي القَاضِي جمال الدّين أَبُو إِسْحَاق ابْن الشيخ الْعَلامَة شهَاب الدّين مَحْمُود، ولد سنة سِتّ وَسبعين وست مائَة فِي شعْبَان، الوافي بالوفيات، 6 /92

الهناء الذي التحف منه بالتُحف وحباه الحُبُور، فالله تعالى يديم أيام مولانا التي هي أمان من الحوادث والغير، وجمال الكتب والسِّيَر، بمنه وكرمه -إن شاء الله تعالى-"[1]

ثالثاً: رسائل الشكر:

كانت هذه الرسائل تُدبج بعبارات المدح والثناء والشكر وهي تُرسل بين الأصدقاء، وتكون لشكره على هدية أو شكر على تهنئة قد أرسلها له ، أو شكر على مساعدة قد قدمها الصديق لصديقه.

ومن ذلك رسالة شكر أرسلها إبراهيم بن محمود بن سلمان بن فهد، رد فيها على صلاح الدين الصفدي؛ الذي أرسل له رسالة تهنئة بمناسبة العودة لمنصب كتابة السر. وقد بدأ الرسالة بأبيات من الشعر وشكره فيها على التهاني والبشائر واعتذر له على تقصيره عن شكره أفضل الشكر وختمت الرسالة بدعاء له ليبلغه الله الأماني ومن تلك الرسالة:

"بِفضلِ صلاحِ الدين سُرّت سَرَائر	**وَوَافَت إليها بالتهاني البشَائرُ**
وبالسبقِ منه حازَ كلَ فضيلةٍ	**فإحْسَانُه والفضلُ وافٍ و وَافرُ**
أتاني كتابٌ منه أبهج ناظري	**حكى الروضَ روّاه من السَحْب ماطر**

يُقبل الأرض لا زالت مطالُعها مشارقَ الأنوار، و مرابعُها مراتع التهاني ومواطن المسار، وينهى ورود الُشَّرف العالي، المشتمل من جوهر البديع على ما يُخجل زُهر اللألي، فقبّله المملوك حين وافاه، وأجلّ مَحله حين تلقاه،... وعِلمُ مولانا الكريم محيطٌ بأن المملوك كان قد حُط عنه واستراح وسكن، وأغلق الدكان ولزم الوطن...، ما أمكنه إلا التسليم لحكم الله وأمره، والرضا بما قَدّره من حلو القضاء ومُره، ولعل ذلك أن لا يكون لشرٍ قَضاه الله، بل لخيرٍ قدّره، رزقٍ يَسّره، وأجر ساقه وقرّره ... وقد تقَلّد المملوك لمولانا هذا الإحسان، وهو يعتذر من التقصير عن القيام بشكر هذه العوارف الحسان، فلو كان بين يدي مولانا لانفتح له من المعاني كلُ باب، واقتبس من فوائده، وفرائده ما ينظمه في سلك هذا الجواب، وإنما بُعدُه عن فضائل مولانا أوجبت له الاعتراف بتقصيره والتعويض بقليل اللفظ عن كثيره، ... والله يُبلغه من الأماني نهاية التأميل بمنه وكرمه -إن شاء الله."[2]

---

(1) ألحان السواجع، 42/1

(2) ألحان السواجع، 43/1

ورسالة شكر كتبها زين الدين بن الوردي إلى أحد أصدقائه، قد أهدى إليه صقرين ؛ فكتب رسالة يشكره فيها على هذه الهدية ويمدحه ويصف الصقرين. ومن تلك الرسالة: "**ويُنهي وصول الصقرين .فسر العبد بهذين الحُرين اللذين تحن الجوارح إليهما من وجهين، ويعز على ابن المعتز أن يذكر لهما في تشبيهاته شبيهين، فوقع الصقران من المملوك بموقع يفوق النسر، وتأمل نحوهما فإذا هما منصوبان ... مُقلُهما حمر كسيوفه، وأجنحتهما مُسبلة كغمائم بِره على رعاياه وضيوفه . ومخالبهما كالمناجل لحصاد أعمار أعدائه وأعمار الطير .ومناقيرهما كالأهلة المبَشِرة له ولأوليائه بكل خير .فلسان حال كل منهما يقول لمرسليه: تفرقوا فبكسبي أجمعُكم، ويخطف لهم الخطفة ويعود بسرعة، فبينما يتطيرون لغيبته، تلوا "طائركم معكم "فما أحسن ما يرجع كل واحد منهما من أفقه. وقد التزم طائره في عنقه، وكم أهلكنا في الوحش من قرون .فما أحق هذا الجبر بمقابلة الثناء عليه. وأن يمد المملوك لهاتين اليدين يديه، ومن كرامات مولانا أنه أصبح جابراً بكاسرين، فمرحبا برسوله الذي إن قدم رسول بأيمن طائر، فقد قدم هو بأيمن طائرين. والسلام عليكم**"[1]

وكذلك رسالة شكر بعثها الصفدي إلى نائب طرابلس يشكره فيها على هدية، وهي ثوب صوف أزرق في غاية الحسن .وقد بدأ الرسالة بتقديم الشكر الذي يليق بالنائب، وقد اختار عبارات الشكر والعرفان لتناسب المقام المرسل إليه، ثم بدأ يصف الهدية ، ثم دعا الله أن يعين المملوك على شكر هذه الهدية .ومن تلك الرسالة:" **يقبّل الأرض، ويُنهي ورود المرسوم الكريم أعلاه تعالى، فوقف المملوك له قائماً، ... ووضعه على رأسه وعينيه، فقبّل الأرض وكرر ذلك، كأن مولانا – أعزه الله تعالى – حاضر والمملوك بين يديه، ورآه متوّجاً بالاسم الكريم فعَلِم أن طالعه مسعود، وفاح أريجه... وعلم أن كاتبها حرسه الله تعالى قد تأني فيها وتأنق، ودبّجها بأنواع المنثور فقابل المملوك ما فيها من الجبر والصدقة بدعاء يرفعه، والملائكة بين سُرادق العرش تضعه، والله الكريم لعلمه بإخلاصه يستجيبُ له لما يسمعه، فإن المملوك ما توهّم أن العبد يرعى له المولى حقوقه، ... ووصل ما تصدق به مولانا مَلِك الأمراء أعز الله أنصاره من الصوف... ذي لون أزرق يحسُن أن يكون سماءً، ما أحسن لونه الأزرق لأن البدر أهداه، وما أحكم نسجه فإن صانعه أتقن ما ألحمه فيه وسدّاه، ... وقد غفر المملوك به من ذنوب الدهر ما مضى وما بقي، وجعل تاريخ قدومه عيداً ... والله يوزع المملوك شكر هذه الصدقات التي عمّ سحابها وأغرق... ويُديم الله أيام مولانا ملك**

---

(1) عصر سلاطين المماليك، 166/5

الأمراء لمماليك أبوابه وغلمانه، ويغفر بإحسانها لهم ذنوب زمانهم، فإنهم من ظلّه الوارف في أمانه، بمنّه وكرمه إن شاء الله تعالى"[1].

رابعاً: رسائل التعزية:

التعزية من الأغراض التي تناولها الكُتّاب في رسائلهم، وتصور تلك الرسائل المُصاب الأليم وما له من وقع عظيم على النفوس، وغالباً ما تتضمن معاني الدعوة إلى الصبر والجَلد والتسليم بقضاء الله وقدره ، وتسلية أهل الفقيد والتخفيف عنه، والدعاء له بالعوض، ويُذكر محاسن الميت. ومن رسائل التعزية. رسالة كتبها شهاب الدين محمود الحلبي لأحد الأشخاص، يُعزيه بوفاة ولده وقد بدأ رسالته بالحزن والأسى على فقد الولد، ثم ذكر محاسن ذلك الولد المتوفى. فقد كان أمل والده وشارح صدره وصاحب ذكر جميل، ثم ذكّر والد الفقيد بأن الموت كأس يشرب منه الجميع، ثم قدم المواساة والتعزية ، في هذا المصاب الجلل، وذكره بضرورة حمد الله على حلو القضاء ومُره ،ثم دعا له بعظيم الأجر وطول العمر وشرح الصدر. ومن تلك الرسالة :"**رزقه الله تعالى ثباتاً على رزيّته وصبرا، وجعل له مع كلّ عسرٍ يسرا، وأبقاه مُفدّى بالأنفس والنّفائس، وكان له أعظمَ حافظٍ من نوب الدهر وأجلّ حارس.**

المملوك يُنهي علمه بهذه النازلة الّتي فَتّتت القلوب والأكباد، وكادت أن تفرّق بين الأرواح والأجساد،...، وابتذلت من المدامع كلّ مَصون، وأذابت المهج تحرّقاً وتلهّباً، وجعلت كلّ قلب في ناري الأسى والأسف مُتقلّباً، وهي وفاة ولده الذي صغر سنّه، وتزايد لفقده همّ المملوك وحزنه. ونَجلُكَ لا يُبكى على قَدر سِنّه ... ولكن على قدر الأَصل ...

ويُبقي الذكر الجميل بعده، ففُقد من بين أترابه، وغُيّب مَنظره الوسيم في لحده وترابه، وسيّدنُا يعلم أنّ الموت منهل لا بدّ من وَرده، وابن آدم زَرع لا بدّ من حصده، وأنّ المنية تشمل الصغير والكبير، والجليل والحقير، والغنيّ والفقير، فينبغي له استعمال صبره، والاستبشار بمضاعفة أجره، والله يمتّعه بأهله وطول عمره.... أعظم الله أجر مولانا ومنحه صبراً جميلاً، وأجراً جزيلاً ، ... ولهذا أصدر المملوك هذه المطالعة يدعو لمولانا فيها ويعزّيه، ويندب فقيده بألسنة الأقلام ويبكيه، ويبشّره بما وعد الله الصابرين على مثل هذه الرزيّة ويسلّيه... وعلى كلّ حال فهو أجدر من استعان على هذه

---

(1) أعيان العصر، 425/5.

الحادثة بصبره، وشرح لما قد قُدّر فسيح صدره، وشكر الله على حلو القضاء ومرّه...، وثاني القمرين أفل فقام مقامه هلال قدم من سفر، وفي بقاء المولى ما يوجب التسليم للقدر والقضاء، والشكر لله تعالى في حالتي الشّدّة والرّخاء، جعله الله في حرز لا يزال حريزاً مكيناً، وحِصن على ممرّ الأيام حصينا .وله: أعظم الله أجره، وأطال عمره، وشرح صدره، وأجزل صبره، وسخّر له دهره..." [1]

وتعزية أخرى كتبها شهاب الدين محمود الحلبي إلى الأمير عز الدين الحموي، يعزيه ويواسيه فقد بولده. وقد بدأها بإظهار الحزن والأسى على هذه المصيبة التي حلت، فهي مصيبة صدّعت القلوب وشغلت العيون بالبكاء، وانتقل لمدح الميت وذكر محاسنه فقد كان شمساً في أهله شجاعاً أسداً شامخاً، ثم انتقل للحديث عن العبد المؤمن عند موته بلا أوزار ولا فتنة بالدين فسيعطيه الله نوراً، ثم ذَكّره بضرورة الرضا بقضاء الله وقدره وحمد الله على ما بقي لديه من الأولاد، فهم عز له .وختم التعزية بدعاء ليُعظم الله أجره ويجعله ذخراً للإسلام، ولا يسمع تعزية بعدها ومن تلك الرسالة: **"المملوك يُقبّل اليد الكريمة، ويُنهى أنه اتّصل به النبأ الذى صدَع قلبه، وشغَل بالبكاء طرفه وبالأسف لسانه وبالحزن لبُّه؛ وهو ما قدّره الله تعالى من وفاة المولى الأمير ركن الدين عمر -تغمده الله برضوانه- الذى اختار الله له ما لديه، ... على أن الدين فقد منه رُكناً شديداً، ورأياً سديداً، وعزماً وحزماً معيناً مفيداً، وأميراً أردنا أن يعيش سعيداً، فأبى الله إلا أن يموت شهيداً؛ "فإنا لله وإنا إليه راجعون." ... وللمواكب بطلوع طَلعته أي إشراق، وللعيون عن مشاهدة كماله وأبهة جلاله أي إغضاء وأي إطراق. ولله ...أيُ شمس ما رأته الجواري الكُنّس إلا قلن:" حاش لله ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك"؛ وأي حصن كانت منه ثمار الشجاعة تُجتنى، ...وإذا انتقل العبد إلى الله تعالى غير مفتون في دينه ...؛ وغُبط بقدومه على أكرم الأكرمين مسروراً، ولقي الله وقد جعل فى قلبه نوراً وفى سمعه نوراً وفى بصره نورا ً. والمولى أعزه الله تعالى أولى من تلقّى أمر الله بالتسليم والرضا، وقابل أقداره بأن الخيرة فيما قدّر وقضى؛ وحمد الله على ما وهب من بقاء إخوته الذين فيهم أعظم خلف، وأجمل عوض...والله تعالى يجزل له من الأجر أوفاه، ويحفظ عليه- وقد فعل- أخراه؛ ويجعله للإسلام ذخراً، ولا يسمعه مع طول البقاء بعدها تعزية أخرى.** [2]

---

(1) صبح الأعشى 82/9.

(2) نهاية الأرب في فنون الأدب، 176/5

وتعزية أخرى كتبها تقي الدين بن حجة الحموي بوفاة المقر الأشرف صارم الدين إبراهيم بن المؤيد[1]. وقد بدأ التعزية بإظهار الحزن والأسى والألم لحلول هذه المصيبة، ووصف حال الناس عند سماع هذا الخبر ودعا للميت بالرحمة.

ومن تلك الرسالة: "**أعز الله أنصار المقر الكريم وأحسن عزاءه وأعظم أجره، وأفرغ عليه دروع الصبر فإن سهام هذه المحنة مصيبة لمن فقد صبره...صدرت هذه المكاتبة تشرح له دوحة صدرنا الشريف فقدتْ ثمرة الفؤاد، اشتغل الناس بزيادة الدمع من زيادة البحر وكُل من البحرين طما وزاد.**

وتبدى لعلمه الكريم فقد المقر الأشرف ، روى الله مِنْ غيث الرحمة ثراه، وسقى نباته الحسن ورعاه، فيا له من رُزء حثا الترب في وجه البدور...علا نعشه فأخذت بنات نعش حظها من عزائه، ومشى على الماء من دموع الناس فاستوت المياه والأخشاب عن بُكائه .وصلينا عليه وعلى المحاسن يوم الجمعة، وماتت مكارم الأخلاق لموته قد دفنت معه، وترفعت تربته على الشهب لما ضمّت الكرم ... فرحم الله ذلك الصارم الذي قطع مسراتنا بعده، وتجاوز الحزن عندنا لفقده حدّه، ولقد رُمنا رجوع الناس عن شدة الحزن عليه علماً بأنهم سامعون، فقالوا عند إقبال مُصيبته: "إنا لله وإنا إليه راجعون"...والله تعالى يُحسن له العزاء في هذا المصاب، ويحسن أيضاً ختامه بجزيل الثواب. بمنه وكرمه إن شاء الله تعالى، والحمد لله وحده، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم." [2]

خامساً: رسائل العتاب

إنها رسائل تحتل مكاناً مميزاً بين أنواع الرسائل الاجتماعية، والعتاب لا يكون إلا لمن أحبه الشخص ، وفي رسالة العتاب _غالباً_ ألفاظ تدل على المحبة و المودة . ومن تلك الرسائل رسالة كتبها شهاب الدين محمود وقد ذكر فيها محاسن صديقه الذي يعاتبه، وأثنى عليه ومدحه .وقد دبجها بأبيات من الشعر في العتاب. ومن تلك الرسالة:" **ويُنهي أنه ما زال يَتلو آيات مَحاسنه وحمده، ويرفع رايات إحسانه ومجده، ويتوَلاه ولا يتولّى عن مَحبّته، ويُكثر الثناءَ على ألمعِيّ فِطنته وجزيل مُرُوءتِه، وقد صار يُشاهد من المولى صُدُوداً، وإعراضاً يَغيظ به صديقاً ويَسُرّ به حَسُوداً، ... يُوجب**

---

(1) إبْرَاهِيم بن شيخ الْأَمِير صارم الدّين بن الْمُؤَيد أبي النَّصْر المحمودي الظَّاهِرِيّ. توفي ليلة الجمعة خامس عشر جمادى الآخرة سنة ثلاث وعشرين وثمانمائة. الضوء اللامع : 53/1 والمنهل الصافي لابن تغري بردي، 82/1

(2) قهوة الإنشاء، 294

إبعـاده، ... ولا يعلَـمُ سَـببا يُوجِـب سَـبَّه، ولا شـيئاً يُحـدث عَتبـه، مـع أنّ المملـوك أحـقّ أن يَبـدأ بـالإعراض، ويَرْفُلَ من إغفال مَودّتـه فـي الثّوب الفَضفاض، فإنّ المولى آلمـه بـالقَول مِرارا، وجعل سَحابة حَيْفه تَهمي عليه مِدرارا، وهو يحتمل الأذى ....، ولا يُظهر إلّا محبّة، ولا يُبطن لـه إلّا مَوَدّة، فإن شاهد المولى بعد إعراضه إعراضا فليَلُم نفسَه، أو أحرقه لهُب نار الجَفاء فلا يشكو مسّه، يُحيط بذلك علما، ورأيه العالي.

مَـــولاي قـــد طـــال التّباعُـــدُ بَيْننـــا	**أو مـــا ســـئَمِتَ قَطِيعتـــي ومَلَالـــي؟**
إنْ لـــم تَـــرِقّ لِحـــالَتي يـــا هَـــاجري	**مَـولاي قُـل لـي مَـنْ يَـرِقُّ لحِـالي[1]**

و رسالة عتاب أخرى كتبها جمال الدين بن نباتة يعاتب الصفدي، وقد عبر فيها ابن نباتة عن حاله من كسر للخاطر، وعدم سعادته بسبب جفاء وانقطاع صلاح الدين الصفدي عنه واعتبر أن هذا العتاب ما هو إلا دليل على المحبة والشوق. وقد عبر عن شوقه ولهفته لتعود المياه إلى ما كانت عليه سابقاً ودعا له في نهاية الرسالة بالبقاء والإعانة من الله عز وجل.

ومن تلك الرسالة:

"رضـيتُ بالكتـب بعـد الْقـربِ فَانْقَطَعـت	**حَتَّـى رضـيتُ سَـلاماً فِـي حواشـيها**

وَيُنْهى أَنـه كَـانَ كسيرَ الخـاطر، حسيرَ النَّـاظر، لانْقِطَـاع بـر مَوْلَانَـا الممتـاز ولامتنـاع الْمَمْلُوك من الْمُكَاتبَة ظنا أَن بَينهَا وَبَين الْقَصْد حجاز...

لَا تقـــــرعَن سَـــــماع مـــــن	**تهـــوى بتعـــداد الـــذُّنُوب**
مَـــــا نـــــاقشَ الأحبـــــاب	**إلَّا مـــن يعِـــيشُ بِـــلَا حبيـــب**

وَقد علم الله شوق الْمَمْلُوك إِلَى تِلْكَ الْخَلَائق وربيعها، والألفاظ وبديعها، وشجوَه الَّذِي أخْفى الجَلد...

لــم يتْـرك الـدَّهرُ لـي خِـلاًّ أُسـر بِـهِ	**إلَّا اصـــطفاه بِنَـــأيٍ أَو بهجـــران**

وَالله تَعَالَى يحرس مَوْلَانَـا حَيْثُ كَـانَ، ويُمده بمعونتي الْمَكَـان والإمكـان، ويصون نفاسـة نَفسـه وَإِن تَغَيَّرت على أحبابها، وأعرضت عَن غلمانها، ... الْمَمْلُوك يقبل يَد الجناب الأخوي البرهاني شكر الله

---

(1) صبح الأعشى، 197/9.

إحسانه، وأوضح فِي اسْتِحْقَاق رتب الْفضل برهانه، وود الْمَمْلُوك لَو رَآهُ عِنْد الْقدوم من حلب فَكَانَ يُوفي بعض قروض فَضله وفروض بذله، وَلَكِن أَبى الْحَال الْمُنَاسب إِلَّا أَن تبدأ هَدِيَّة ذَلِك الْمولى تحيته فيقابلها الْمَمْلُوك ببخله يَا مَوْلَانَا بلغ الْمَمْلُوك تقدم الْمقر الْفُلَانِيّ وتبينه وتعينه وَأَرَادَ الْمَمْلُوك مطالعته"[1].

(1) الوافي بالوفيات، 240/1.

المبحث الثالث

الرســائل العلميــة

إن الرسائل العلمية لها أهمية كبيرة عند العلماء والأدباء كونها وسيلة دالة على المكانة العلمية والأدبية التي وصلوا إليها، وهي من الأمور المُشرّفة التي يُسعى لها بشتى الوسائل للحصول عليها. وتنقسم الرسائل العلمية إلى: إجازات علمية، وإجازات عراضة، وإجازات بالرواية الأدبية.

وقبل التفريق بين كل واحدة منها والتعرف عليها لا بد من التفريق بين الإجازة والاستجازة، فالاستجازة: "–طلب الإجازة – رسالة يكتبها أحد الأدباء إلى صديق له أديب يطلب منه أن يمنحه إجازة برواية آثاره الأدبية. أو إجازة بالتدريس، أو إجازة لرواية كتب معينة...أما الإجازة فهي رسالة يَردُ بها الأديب على من استجازه ويسمح له ويأذن برواية الكتب أو التدريس"[1].

أولاً: الإجازة العلمية

إجازة الإفتاء أو التدريس: فهي شهادة يمنحها أحد الشيوخ لواحد من طلابه بعد أن يختبره في مادته العلمية، ويتأكد من أنه قد فهمها فهماً جيداً يؤهله للتصدي للإفتاء أو التعليم، وهي أعلى الإجازات الدراسية حينذاك، ولقد كان كثير من الطلاب يحرصون على الإكثار منها، وذلك بالتزام عدد من شيوخ العلم [2].

ومن ثم تعد إذناً للطالب للتدريس بعد اجتيازه لقواعد معينة، وحداً معيناً، حيث يقول القلقشندي: "أما الإجازة بالفتيا فقد جرت العادة أنه إذا تأهل بعض أهل العلم للفتيا والتدريس أن يأذن له شيخه في أن يُفتي ويُدرس ويكتب له بذلك"[3] وهذه الإجازة لها أهمية في نفس الطالب لأنها تعطيه الإذن بالتدريس، وتساعده على الحصول على وظيفة في مجال العلم وهذا يفتح مجال وصوله للمناصب العليا في الدولة.

وهي بهذا تشبه الشهادات العلمية التي تُمنح للطلاب في هذا الوقت وبها يُسمح له بالدخول إلى الوظائف، ولقد كان الطلاب حريصين كل الحرص على لقاء أشهر الشيوخ أغلب الوقت؛ ليتعلموا منه

---

(1) ينظر: الأدب العربي وتاريخه عصر المماليك: سليم، 32

(2) السابق، 32

(3) صبح الأعشى، 364/14

ويأخذوا العلم الوفير ليساعدهم ذلك على أخذ الإجازة، وإن أعداد الطلاب الراغبين في الحصول على الإجازات كثيرة جداً.

ولكن إجازات الشيوخ والأدباء لم تكن تُعطى اعتباطاً وبغير وعي، بل لا بد من التأكد من أن الطالب مواظبٌ على طلب العلم، وحريص عليه ومثابر، وحريص على لقاء أشهر الشيوخ بكل الوسائل؛ بمعنى أنهم كانوا يقدرون الأمانة حق تقديرها. [1]

وغالباً ما تبدأ الإجازة بمقدمة يُحمد الله عز وجل ويثنى عليه، مع بعض الإطالة في الحمد، ثم الصلاة على النبي الكريم، ثم حديث عن العلم المراد إجازته أو عن رواية الشعر، أو النثر، أو التأليف، ويُمدح كل من المجيز وتُذكر المنزلة العلمية الخاصة به، والمجاز وتُذكر محاسنه ومزاياه ،ثم الإجازة أو الإذن، وفي أغلب الإجازات تورد التوصية للطالب ليسير وفق منهج علمي سليم ثم الدعاء بالتوفيق وزيادة الفضل.

ومن تلك الإجازات: إجازة العلامة سراج الدين بن الملقن[2] لتلميذه شهاب الدين القلقشندي، بتدريس فقه الشافعي .بدأ الإجازة بمقدمة حمد الله عز وجل على نعمة العلم، وأكثر من حمده وشهد له بالوحدانية، وصلى على رسوله الكريم، ثم انتقل للإشادة بعلم الشريعة ، وبيّن منزلة هذا العلم بين العلوم وضرورته لمصالح الناس في الدنيا والآخرة، وقد عظّم مكانة من حفظها وتعلمها، ولمّح بأن هذا العلم من أقوى أسباب العبادة، ثم ذكر المجيز وبين ما امتاز به من فضائل، ثم عرض الإجازة والإذن، ثم التوصية بما ينبغي أن يتبعه، وهو دستور علمي قويم، ثم الدعاء للمجاز بالتوفيق، وختمها بقوله: حسبنا الله ونعم الوكيل. ومما زادها مكانة وقيمة أنها كتبت بخط القاضي تاج الدين بن غنوم؛ مُوقع الحُكم العزيز بالإسكندرية. ومن تلك الإجازة: "**الحمد لله الذي رفع للعلماء مقداراً، وأجزل نعمه عليهم، إذ أعلى لهم مناراً،.... أما بعد، استقر عند ذوي القلوب السليمة والعقول الرّاجحة المستقيمة، أنّ منزلة علم الشّريعة عند الله تعالى أعلى المنازل، وفضله أفضل المآثر، ...ولما كان فلان- أدام الله تعالى تسديده وتوفيقه، ويسَّر إلى الخيرات طريقه- ممّن شبّ ونشأ في طلب العلم والفضيلة، وتخلّق بالأخلاق الجميلة الجليلة، ... استخار الله تعالى سيّدنا وشيخنا وبركتنا العبد الفقير إلى الله تعالى، الشيخ الإمام العلّامة، فريد دهره، ...، جمال العلماء، أوحد الفضلاء، عمدة**

---

(1) ينظر: عصر سلاطين المماليك، 183.184/5

(2) صبح الأعشى، 322/14

الفقهاء، سراج الدّين أبو حفص عمر، مفتي الإسلام والمسلمين، ...وأذن وأجاز لفلان المسمّى فيه، أدام الله تعالى معاليه، أن يُدرّس مذهب الإمام المجتهد المطلق العالم الرّبّاني، أبي عبد الله محمد بن إدريس المطّلبيّ، الشافعيّ، رضي الله عنه وأرضاه، وجعل الجنّة متقلّبه ومثواه، وأن يقرأ ما شاء من الكتب المصنّفة فيه، وأن يفيد ذلك لطالبيه، حيث حلّ وأقام، كيف ما شاء متى شاء وأين شاء، وأن يفتي من قصد استفتاءه خطّاً ولفظاً، على مقتضى مذهبه الشريف المشار إليه .فليتلقّ أيده الله تعالى هذه الحلّة الشريفة...، وليعلم قدر ما أنعم الله تعالى عليه، وأسدى من الإحسان الوافر إليه، ... ولا يستنكف أن يقول فيما لا يعلم: لا أعلم، فذاك قول سَعِدَ قائله. وقد جاء: «جنّة العالم لا أدري » ؛ فالله تعالى يرزقنا وإياه التّوفيق والتحقيق...، ويهدينا إلى سواء السبيل، فهو حسبنا ونعم الوكيل." (1)

وهذه إجازة أخرى كتبها فتح الدين بن سيد الناس لصلاح الدين الصفدي، بعد أن قام صلاح الدين الصفدي باستجازة فتح الدين، ليقوم برواية جميع أنواع العلوم من تفسير لكتاب الله وسنة رسوله، وأثر التابعين ، وكتب الأدب من قول منظوم ومنثور، وتأليف ، ولقد أجاز فتحُ الدين صلاحَ الدين.

ولقد بدأ هذه الإجازة بمقدمة حمد الله عز وجل على ابتعاثه لمحمد بأنواره الساطعة، وصلى على رسوله الكريم، ثم بدأ يمدح الصفدي بأسمى ألفاظ المدح، ثم أورد الإجازة، وأذن له فيها بإصلاح ما تعثر عليه بالزلل والهم، وإن دل هذا على شيء يدل على المكانة العلمية التي يتحلى بها الصفدي، ثم أوصاه بالتحري والتأكد قبل نشر أو تعليم أو رواية شيء من مؤلفاته، ودعا له بالتأييد والتوفيق.

ومن استجازة الصفدي:

"...إجَازَة كَاتب هَذِه الأحرف جَمِيع مَا رَوَاهُ من أَنْوَاع الْعُلُوم ،وَمَا حمله من تَفْسِير لكتاب الله تَعَالَى، أَو سنة عَن رَسُول الله_ صلى الله عَلَيْهِ وَسلم_، أَو أثر عَن الصَّحَابَة وَالتَّابِعِينَ –رَضِي الله عَنْهُم– وَمن بعدهمْ إِلَى عصرنا هَذَا بِسَمَاع من شُيُوخه أَو بِقِرَاءَة من لَفظه ،أَو سَماع بِقِرَاءَة غَيره ،أَو بطرِيق الْإِجَازَة خَاصَّة كَانَت أَو عَامَّة أَو بأذن أَو مناولة أَو وَصِيَّة كَيفَ مَا تأدّى ذَلِك إِلَيْهِ إلى غير ذَلِك من كتب الْأَدَب وَغَيرهَا .وإجازة مَا لَهُ من مقول نظماً ونثراً وتأليفاً وجمعاً فِي سَائِر الْعُلُوم ، "(2).

---

(1) صبح الأعشى، 322/1

(2) الوافي بالوفيات ،231/1

ومن إجازة فتح الدين للصفدي: "**الحمد لله الْمُجيب من دَعَاهُ الْقَرِيب مِمَّن نادى نداه الَّذِي ابتعث مُحَمَّدًا ، ... صلى الله عَلَيْهِ وعَلى آله وَصَحبه ...، وَسلم عَلَيْهِ وَعَلَيْهِم تَسْلِيمًا عذباً، فَلَمَّا كتبتَ أَيهَا الصَّدْر الَّذِي يشْرَح الصُّدُور شِفَاء، والبدر الَّذِي يبهر البدور سنا وسناء... ولاقتباس أنوار الْعلم طَالباً...، وَقد ألبسته الفصاحة مَا ألبسته من حسن تِلْكَ الفطنة... فالآداب حرسه الله تَعَالَى رياض هُوَ مُجتني غروسها، وسماء هُوَ مجتلي أقمارها وشموسها، ... وَسبق الغايتين، وحوز البراعتين، وسر الصناعتين، وَهُوَ مجمع الْبَحْرين ...، أن أُجِيز لَكَ مَا عِنْدِي، فَكَأَنَّمَا ألزمتني أَن أتجاوز حدي، لَوْلَا الْإِقْرَار بِأَن الرِّوَايَة عَن الأقران نهج ، وَالِاعْتِرَاف بِأَن للكبير من بَحر الصَّغِير الاغتراف ...، فَنعم قد أجزت لَك مَا رويته من أَنْوَاع الْعُلُوم، وَمَا حَملته على الشَّرْط الْمَعْرُوف وَالْعرُف الْمَعْلُوم، وَمَا تضمنه الاستدعاء الرقيم، بخطك الْكَرِيم، مِمَّا اقتدحه زندي ،... وما صدر عَن قريحتي من النثر وَالنّظم...، وَقد أجزت لَك ...أَن تروى عني مَا لي من تصنيف أبقيته، فِي أَي معنى انتقيته، وأجزت لَك أيدك الله جَمِيع ذَلِك، بِشَرْط التَّحَرِّي فِيمَا هُنَالك، تبركاً بِالدُّخُولِ فِي هَذِه الحلبة،** "[(1)].

إجازة أخرى كتبها جمال الدين بن نباتة، لصلاح الدين الصفدي، بعد أن قام الصفدي باستجازة ابن نباتة لرواية المصنفات من أحاديث نبوية ومؤلفات أدبية، وإجازته ليروي نظماً ونثراً وتأليفاً، وقد بدأ الاستجازة بمقدمة حمد الله عز وجل، ومدح جمال الدين، ثم طلب الإجازة لرواية المصنفات على اختلاف أنواعها، وفي نهاية الاستجازة ذكر نسبه ومولده ومكانه .ومن استجازة الصفدي: "**الحمد لله على نعمائه السؤل من إحسان سيدنا الشيخ الإمام العالم العلامة رحلة أهل الأدب،...جمال الدين أبي عبد الله محمد بن نباتة جَمع الله به شتات أهل الأدب....إجازة كاتب هذه الأحرف فسح الله له في مدته من رواية المصنفات في الأحاديث النبوية، والتأليفات الأدبية على اختلاف أوضاعهما وتباين أجناسهما وأنواعهما بحسب ما يؤدي ذلك إليه اتصال به من سماع وإجازة أو وصية، أو إجازة من مشايخ العلم الذين أخذ عنهم وإجازة ما له أحسن الله إليه من يقول نظماً ونثراً أو تأليفاً أو وضعاً، إجازة خاصة، وإثبات ماله من التصانيف إلى هذا التاريخ بخطه الكريم، وإجازة ما لعله يقع بعد ذلك إجازة عامة ... فإن الرياض لا ينقطع زهرها والبحار لا ينفد درها ،خليل بن أيبك بن عبد الله الألبكي بالقاهرة المحروسة، وحسبنا الله ونعم الوكيل**"[(2)].

---

(1) الوافي بالوفيات، 231/1

(2) تمام المتون ، 7 وأيضاً المنهل الصافي، 244/5

ثم رد ابن نباتة على الصفدي وأرسل له إجازة، وقد بدأها بالبسملة وحمد الله عز وجل وبالصلاة على سيدنا محمد، ثم استطرد الأستاذ المجيز وأفاض في ذكر محاسن المستجيز وتحدث عنه وعن آدابه حديثاً شائقاً، واستمر ابن نباتة يثني على صاحبه، ثم تحدث عن نفسه مبدياً تواضعه مع مدح الصفدي، ثم انتقل لعرض إجازته للصفدي ليروي المسموع والمأثور والمنظوم والمنثور. وأورد مكان وتاريخ ولادته وعدّد بعض الشيوخ الذين روى عنهم وتتلمذ على يديهم، وأورد أيضاً المصنفات التي ألفها وأجاز له أن يرويها.

ومن تلك الإجازة: "**بِسم الله الرَّحْمَن الرَّحِيم، أما بعد الحمد لله الَّذِي إذا توجه ذُو السُّؤَال إِلَيْهِ فَازَ، وَإِذا استدعى كرمه ذو الطّلب أجَاب وَأَجَازَ، وَالصَّلَاة على سيدنَا مُحَمَّد ....، وعَلى آله وَصَحبه ... بدأتني أعزّك الله من الْوَصْف بِمَا قل عَنهُ مَكَاني، واضمحل عَياني، وَكَاد من الخجل(يضيق صَدْرِي وَلَا ينْطَلق لساني)، وحمّلتَ كاهلي من الْمَنّ مَا لم يسْتَطع،... سَأَلتنِي ....، أَن أُجيبك وأُجيزك، ...وأقابل لَسَنك الْمُطلق بلساني المحصور...، فتحيرتُ بَين أَمْريْن أَمَريْن، وَوَقع ذهني السقيم بَين دائين مُضرين، إن فعلتُ مَا أَمرتَ فَمَا أَنا من أرباب هَذَا الْقدر العالي، والصدر الحاني، وَمن أَنا من أَبنَاء مصر حَتَّى أتقدم لهَذَا الْملك الْعَزِيز، وَكَيف أُطالبُ مَعَ إقتار علمي بِأَن أُجِيب وأجيز ... وَأَن منعتُ فقد أَسَأْت الْأَدَب وَالْمَطْلُوب حسن الْأَدَب مني... وأجزت لَك أَن تروى عني مَا تجوز لي رِوَايَته من مسموع ومأثور، ومنظوم ومنثور، وإجازة ومناولة ومطارحة ومراسلة وَنقل وتصنيف...فَأَما مولدِي فبمصر ... وَأما شُيُوخ الحَدِيث الَّذين رويت عَنْهُم سَمَاعا وحضوراً فَمن أقدمهم الشَّيْخ شهَاب الدّين أَبُو الهيجاء... وَأما مصنفاتي الَّتِي هِيَ كالياسمين لَا تَسَاوِي جمعهَا ... (كتاب مجمع الفرائد) (كتاب الْقطر النباتي)... أجزت لَك أعزّك الله رِوَايَتهَا عني وَرِوَايَة مَا أدونه وأجمعه بعْدهَا حَسْبَمَا اقترحه استدعاؤك ونمقه ونسخه وحققه وتضمنه سؤالك الَّذِي تَصَدَّقت بِهِ على فمنك السُّؤَال ومنك الصَّدَقَة وَالله تَعَالَى يشْكر عَهْدك الْجَمِيل، وكلماتك الجزلة وكرمك الجزيل، ويمتع فنون الْفَضَائِل المليحة إِلَى ظلّ قلمك الظليل، وَلَا يُعْدم الأحباب الْآدَاب من اسْمك وسِمتك خير صَاحب وخليل...**"(1).

---

(1) الوافي بالوفيات، 236/1

وهذه إجازة أخرى كتبها العلامة أثير الدين أبو حيان[1] بعد أن قام صلاح الدين الصفدي بإرسال استجازة لأبي حيان لرواية المصنفات الأدبية والدينية وغيرها من العلوم المختلفة، وإجازته لرواية مؤلفات أبي حيان .

ومن استجازة الصفدي "**المسؤول من إحْسَان سيدنَا الشَّيْخ الإِمَام الْعَالم الْعَلامَة لِسَان الْعَرَب، ترجمان الْأَدَب، ، جَامع الْفَضَائِل... إجَازَة كَاتب هَذِه الأحرف مَا رَوَاهُ– فسح الله فِي مدَّته –من المسانيد والمصنفات وَالسّنَن والمجاميع الحديثية، والتصانيف الأدبية نظماً ونثراً إِلَى غير ذَلِك من أَصْنَاف الْعُلُوم على اخْتِلَاف أوضاعها، وتباين أجناسها وأنواعها، مِمَّا تَلَقاهُ بِبِلَاد الأندلس وإفريقية، والإسكندرية والديار المصرية، والبلاد الحجازية، وَغَيرهَا من الْبلدَانِ بِقِرَاءَة أَو سَماع أَو مناولة أَو إجَازَة خَاصَّة أَو عَامَّة كَيفَ مَا تأدى ذَلِك إِلَيْهِ، وإجازة مَا لَهُ أدام الله إفادته من التصانيف فِي تَفْسِير الْقُرْآن الْعَظِيم والعلوم الحديثية والأدبية وَغَيرهَا وَمَا لَهُ من نظم ونثر إجَازَة خَاصَّة وَأَن يثبت بخَطِّهِ تصانيفه إِلَى حِين هَذَا التَّارِيخ وَأَن يُجِيزهُ إجَازَة عَامَّة لِمَا يَتَجَدَّد لَهُ من بعد ذَلِك على رَأْي من يرَاهُ ويجوزه منعماً متفضلاً إِن شَاءَ الله تَعَالَى**"[2].

فرد أبو حيان على الصفدي وأرسل له الإجازة التي بدأها بعبارات المدح والفخر، والدعاء له بالتأييد والتوفيق، ثم أورد الإجازة لرواية كل مصنفاته من نظم ونثر، ثم عدد له بعض الشيوخ الذين قرأ عليهم، والشيوخ الذين روى عنهم بالسماع أو القراءة، وعدد بعض الأدباء والنحاة الذين كتب عنهم، وعدد بعض مؤلفاته.

ومن إجازة أبو حيان :"**أعزّك الله ظَنَنْتَ بالإنسان جميلاً فغاليتَ، وأبديتَ من الْإِحْسَان جزيلاً وَمَا باليتَ، ...، يَا ابْن الْكِرَام وَأَنت أبْصر من يشيم، ... أما أغنتك فواضلك وفضائلك، ومعارفك وعوارفك،... وتأرجت الأكوان من أريج نفحاتك، ولأنت أعرف بِمن تقصد للدراية، ...وَقد أجزت لَك أيدك الله جَمِيع مَا رويته عَن أشياخي بِجَزِيرَة الأندلس وبلاد إفريقية وديار مصر والحجاز وَغير ذَلِك بِقِرَاءَة وَسَمَاع ومناولة وإجازة بمشافهة وَكِتَابَة، وَجَمِيع مَا أُجِيز لي أَن أرويه بِالشَّام وَالْعراق وَغير ذَلِك، وَجَمِيع مَا صنفته واختصرته وَجمعته وأنشأته نثراً ونظماً، وَجَمِيع مَا سَأَلت فِي هَذَا الاستدعاء، فَمن مروياتي الْكتاب الْعَزِيز قرأته بالقراءات السَّبْع على جمَاعَةٍ من أعلاهم الشَّيْخ فَخر الدّين أَبُو**

---

(1) محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان، فريد العصر وشيخ الزمان .الوافي بالوفيات، 175/5

(2) السابق، 181/5

الظَّاهِر إسْمَاعِيل بن هبة الله الْمصْرِيّ ... وَأما شيوخي الَّذين رويت عَنْهُم بِالسَّمَاعِ أَو الْقِرَاءَة فهم كثير ...فَمنهمْ القَاضِي أَبُو عَليّ الْحسن بن عبد الْعَزِيز بن أبي الْأَحْوَص الْقرشِي ... وَممَّنْ كتبت عَنْهُم من مشاهير الأدباء البوصيري، التلمساني، الوراق... وَأما مَا صنفت فَمن ذَلِك الْبَحْر الْمُحِيط فِي تَفْسِير الْقُرْآن الْعَظِيم، إتحاف الأريب بِمَا فِي الْقُرْآن من الْغَرِيب كتاب الْأَسْفَار، كتاب التذييل والتكميل فِي شرح التسهيل..." [1]

وإجازة أخيرة كتبها ركن الدين بن القوبع إلى صلاح الدين الصفدي، بعد أن استجازه الصفدي لرواية المنثور والمنظوم والجمع والتصنيف .ولقد أرسل ابن القوبع الإجازة برواية الشعر والنثر أو تأليف كتاب، وقد بدأ الإجازة بحمد الله عز وجل خالق السماء والأرض، وصلى على رسوله الكريم وعلى آله وصحبه.

ثم أورد الإجازة للصفدي بجواز رواية ما يرويه ابن القوبع من أقوال أو مصنفات . ودعا له بالتوفيق بالقول والفعل، وزيادة من فضل الله عليه.

ومن الاستجازة: **"المسؤول من إِحْسَان سيدنَا الشَّيْخ الإِمَام الْعَالم الْعَلامَة الْكَامِل جَامع شتات الْفَضَائِل وارث عُلُوم الْأَوَائِل حجَّة المناظرين سيف الْمُتَكَلِّمين .**

سَباق غايات الورى فِي بَحثه	**فالبرق يسري فِي السَّحَاب بِحَثِّه**
ويَهُبُ مِنْهُ بِالصَّوَابِ صباً لَهَا	**بَرْدٌ على الأكباد سَاعَةَ نفثه**
ويضوع من تِلْكَ المباحث مَا يُرى	**أشهى من الْمسك السحيق وبثه**

الْمُتَكَلّم الَّذِي ذهلت بصائر أولي الْمنطق نَحوه، وأنتجت مقدماته الْمَطْلُوب عُنْوَة... إجَازَة كَاتب هَذِه الأحرف مَا لَهُ من مقول منظوم أَو منثور وضع أَو تأليف، جمع أَو تصنيف، إِلَى غير ذَلِك على اخْتِلَاف الأوضاع، وتباين الْأَجْنَاس والأنواع "[2].

ومن الإجازة: " **يَقُول العَبْد الْفَقِير إِلَى رَحْمَة ربه، وعفوه عَمَّا تعاظم من ذَنبه، مُحَمَّد بن مُحَمَّد بن عبد الرَّحْمَن الْقرشِي الْجَعْفَرِي الْمَعْرُوف بِابْن القويع، بعد حمد الله ذِي الْمجد والسناء وَالْعَظَمَة والكبرياء، الأول بِلَا ابْتِدَاء، وَالْآخر بِلَا انْتِهَاء، خَالق الأَرْض وَالسَّمَاء، وجاعل الإصباح والإمساء،**

---

(1) الوافي بالوفيات ،182/5

(2) السابق، 191/1

وَالشُّكْر لَـهُ على مَا من بِـهِ من تضَاعف الآلاء، وترادف النعماء، نحمده ونذكره، ونعبده ونشكره، لِتَفَرُّدِهِ بِاسْتِحْقَاق ذَلِك، وتوفر مَا يسْتَغْرق الْحَمد وَالشُّكْر هُنَالك، مَعَ مَا خصنا بِـهِ من الْعلم، وأضاء بِهِ بضيائها من نور الْفَهم، وَنُصَلِّي على نبيه مُحَمَّد سيد الْعَرَب والعجم، وعَلى آلـه وَأَصْحَابه الَّذين فازوا من كل فضل بِعظم الْحَظ ووفور الْقسم، أجزت لفُلَان وذكرني

جَمّـــاع أشـــتات الْفَضَـــائِل وَالَّـــذِي	**ســـبَق السِـــراع بِبطئـــه وبمِكثـــه**
فكــــأنهم يتعثـــرون بجـــدول	**ويســـير فِـــي ســـهل الطَّرِيـــق وبرثـــه**

جَمِيع مَا يجوز لي أَن أرويه مِمَّا رويته من أَصْنَاف المرويات أَو قلته نظماً أَو نثراً أَو اخترعته من مَسْأَلَة علمية مفتتحاً، أَو اخترته من أَقْوَال الْعلمَاء واستنبطت الدَّلِيل عَلَيْهِ مرجحاً، مِمَّا لم أصنعه فِي تصنيف وَلَا أجمعه فِي تأليف على شَرط ذَلِك عِنْد أهل الْأَثر

وَفقـــه الله لمـــا يرتضـــي	**فِـــي القَـــوْل وَالْفِعْـــل وَمَـــا يـــدْرِي**
وزاده فضـــلاً إِلَـــى فَضـــله	**بِمَـــا بِـــهِ يَـــأْمَن فِـــي الْحَشْـــر** [1]

ثانياً: إجازة العراضة

إنها إجازة علمية أيضاً وتشبه إجازة الفتيا والتدريس، مع فرق بسيط بينهما، وهو أن إجازة العراضة موضوعها التأكد من حفظ الطالب لكتاب أو كتب معينة يعرضها على شيخه، فيقوم الشيخ باختبار بعض المواضع من الكتاب لاختباره فيه، وإذا تأكد من تمام حفظه أعطاه ومنحه إجازة العراضة ليروي هذه الكتب. وسميت عراضة لأن الطالب يعرض على شيخه ما يحفظه. [2]

ويقول القلقشندي في هذا الموضوع: " **أمّا الإجازة بعراضة الكتب، فقد جرت العادة أن بعض الطّلبة إذا حفظ كتاباً في الفقه ، أو النّحو، أو غير ذلك من الفنون، يعرضه على مشايخ العصر، فيقطع الشيخ المعروض عليه ذلك الكتاب، ويفتح منه أبواباً ومواضع، يستقرئه إيّاها من أيّ مكان اتّفق، فإن مضى فيها من غير توقّف ولا تلعثم، استدلّ بحفظه تلك المواضع على حفظه لجميع الكتاب، وكتب له بذلك كلّ من عرض عليه، في ورق مربّع صغير، يأتي كلّ منهم بقدر ما عنده من**

---

(1) الوافي بالوفيات، 192/1

(2) ينظر عصر سلاطين المماليك، 190/5

الملكة في الإنشاء، وما يناسب ذلك المقام من براعة الاستهلال فيُكتب: «وكذلك عرض عليّ فلان»، أو: «عرض عليّ وكتبه فلان»[1].

ومما يزيد إجازة العراضة قيمة مكانة الأستاذ المجيز، ولا تكتب الإجازة إلا بعد التأكد من حسن حفظ الطالب.

وغالباً ما تكون إجازة العراضة مبدوءة بمقدمة يحمد الكاتب الله فيها حمداً يليق بجلال وجهه الكريم، ويصلي على سيدنا محمد أفضل صلاة وأتم تسليم، ثم يتحدث عن موضوع الإجازة، ويمدح الطالب مدحاً يستحقه على حفظه وفهمه، ثم يورد نص الإجازة، وفي بعض الأحيان كان يختم الإجازة بدعاء للطالب.

ومن تلك الإجازات:

إجازة كتبها العلامة بدر الدين محمد بن أبي المخزومي المالكي لشهاب الدين الشافعي[2]، حيث عرض عليه كتاب: "عمدة الأحكام" للحافظ عبد الغني[3]، وشذور الذهب للشيخ جمال الدين بن هشام المصري[4].

ولقد بدأها بحمد الله عز وجل والصلاة على رسوله الكريم وعلى آله وصحبه الذين بنوا كل الأمور على أساس التقوى، ثم تحدث عن موضوع الإجازة وهو عرض شهاب الدين أبو العباس طائفة متفرقة من كتابي عمدة الأحكام وشذور الذهب . عرضاً جيداً يؤكد حفظه وصحة عرض الكتابين، ومن ثم إجازته لرواية هذين الكتابين وقد خُتمت الإجازة بدعاء له .ومنها: " **أما بعد الحمد لله على كرمه الذي هو عمدتنا في النّجاة يوم العرض ...والصلاة والسّلام على سيدنا محمد ...وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً ... فقد عرض عليّ الجناب ...الشّهابيّ، شهاب الدين... أبو العبّاس**

(1) صبح الأعشى ، 36/14.

(2) أحمد بن عبد الله بن أَحْمد بن إِبْرَاهِيم بن الْمُسلم بن هبة الله بن حسان بن مُحَمَّد بن مَنْصُور بن أَحْمد شهَاب الدّين الشَّافِعِي الْحَمَوِيّ ولد فِي شَوَّال سنة 674، الدرر الكامنة، 208/1.

(3) عبد الغني بن عبد الواحد بن علي بن سرور المقدسي الحنبلي الحافظ الإمام. أوحد زمانه في علم الحديث والحفظ؛ تقي الدين أبو محمد الزاهد العابد، صاحب العمدة والكمال وغير ذلك من التصانيف. نزل مصر في آخر عمره، ومات بها يوم الاثنين ثالث عشر من شهر ربيع الأول سنة ستمائة؛ وله تسع وخمسون سنة، حسن المحاضرة ، 1/ 354 .

(4) عبد الله بن يوسف بن أحمد بن عبد الله بن يوسف، أبو محمد، جمال الدين، ابن هشام: من أئمة العربية. مولده ووفاته بمصر. الأعلام، 147/4.

أحمد ابن سيدنا المقرّ الكريم العاليّ،... أطاب الله حديثه، وجمع له بالإعراب عن علوّ الهمّة قديم الفضل وحديثه- طائفة متفرّقة من «عمدة الأحكام» للحافظ عبد الغنيّ المقدسيّ، و «شذور الذّهب»، للعلامة جمال الدّين بن هشام- رحمة الله عليهما- عرضا قَصُرت دونه القرائح على طول جهدها، ... وآذن امتحانه فيها بأنّ جواهر الكتابين قد حصلت بمجموعها في خزانة حفظه....وسابق أقرانه فكانت له زبدة التّفضيل في حلبة السّباق،...، وافتخر من والده بالفاضل الذي ارتفع في ديوان الإنشاء خبره، وهزّ المعاطف بتوقيعه الذي لا يزال يُحرّره ويُحبّره، ، ونحاها بإنشائه الذي هو عمدة المتأدّبين فلا عجب في رفعه، ونظم ببيانه نفائس الدّرر فَفَدَتْها بالعين «صحاح الجوهريّ»، وفتح بجيش بلاغته معاقل المعاني الممتنعة... والله تعالى يُبهج نفسه بما يُصبح به الحاسد وهو مُكَمد، ويُقرّ عينه بهذا الولد النّجيب حتى لا يبرح يقول: أشكر الله وأحمد، بمحمد وآله." [1]

وإجازة أخرى كتبها الشيخ شمس الدين محمد بن عبد الدائم لابن نجم الدين أبي الفتح محمد، حيث عرض عليه المنهاج في الفقه للنووي، ولقد بدأ الإجازة بمقدمة حمد الله عز وجل، وصلى على رسوله الكريم وعلى آله وصحبه، ثم انتقل إلى موضوع الإجازة وهو عرض نجم الدين على شمس الدين مواضع من المنهاج في فقه الأمام الشافعي بمواضع دلت على حفظه، ومدحه مدحاً ينم على المكانة العلمية التي يتمتع بها، ومن ثم كان ذلك بمنزلة إجازة وإذن له لروايتها.

ومن تلك الإجازة: " **الحمد لله الذي أوضح بنجم الدّين منهاج الفقه وأناره، وأفصح لسانه بكتاب من عند الله وأثاره، فسطعت أنوار شهابه لمن استنبطه وأثاره- من يُرد الله به خيراً يُفقّهه في الدّين ويرفع مناره- والصلاة والسّلام على سيدنا محمد ....**

وبعد، فقد عرض عليّ الفقيه الفاضل نجل الأفاضل، وسليل الأماثل، ذو الهمّة العليّة، والفطنة الذّكيّة، والفطرة الزّكية، نجم الدّين، أبو عبد الله محمد بن فلان، نفع الله به كما نفع بوالده، وجمع له بين طارف العلم وتالده- مواضع متعدّدة من «المنهاج» في فقه الإمام الشافعيّ المطّلبيّ- رضي الله عنه وعنّا به- تأليف الحبر العلّامة وليّ الله أبي زكريا بن شرف بن مري النّوويّ، سقى الله

(1) صبح الأعشى، 327/14

تعالى ثراه، وجعل الجنّـة مأواه، دلّ حفظه لها على حفظ الكتاب، كما فتح الله لـه منـاهج الخير ، وكان العرض في يوم كذا." [1]

وإجازة أخرى كتبها القلقشندي لمحمد شمس الدين[2] من أبناء بعض الإخوان، حيث عرض محمد على القلقشندي الأربعين حديثاً للشيخ محي الدين النووي .والورقات في الأصول لإمام الحرمين واللمحة البدرية في النحو لشيخ أثير الدين أبي حيان .وكان ذلك كله دفعة واحدة وهو ابن عشر سنين.

ولقد بدأ القلقشندي الإجازة بمقدمة حمد الله عز وجل، وصلى على رسوله الكريم، ومدح محمد شمس الدين مدحا يحق له على هذا الإنجاز من حفظ أكثر من كتاب وهو ابن عشر سنين، فعمره العلمي أكبر من عمره الزمني وهذا إن دل على شيء إنما يدل على الحياة العلمية والثقافية التي كانت في ذلك العصر.

ثم انتقل لعرض موضوع الإجازة مع التأكد مما حفظه وكانت بمنزلة إذن وإجازة له ليرويها. ومن تلك الإجازة "**لحمد لله الذي أطْلَع من دَرَارِيّ الأفاضل في أُفق النّجابة شمساً، وأظهر من أفاضل الذّرارِي ما يغضّ به المُخالِف طرفاً ويرفع به المُحَالِف رأساً، وألحق بالأصل الكريم فرعه في النجابة فطاب جَنّى وأعرق أصلاً وزكا غرساً، وأبرز من ذوي الفِطر السليمة من فاق بذكائه الأقران فأدرك العربيّة في لمحة، وسما بفهمه الثاقب على الأمثال فأمسى وفَهْم «الوَرَقَات» لديه كالصّفحة، وخرق بكرم بدايته العادة فجاز الأربعين لدُون العشر وأتى على ذلك بما يشهد له بالصّحّة، والصلاة والسّلام على سيدنا محمد الذي عمّت بركة اسمه الشريف سَمِيّه ففاز منها بأوفر نصيب، وخُصّ بإلهام التّسمية به أولو الفضل والنُهى فما سُمّي به إلا نجيب، وعلى آله وصحبه الذين أينعت بهم روضة العلم وأزهرت، وأورقت شجرة المعارف وأثمرت.**

وبعد، فقد عرض عليّ فلان مواضع من كتاب كذا وكتاب كذا، فمرّ فيها مرور الصّبا، وجرى في ميدانها جَرْيَ الجَواد فما حَاد عن سَنَن الطريق ولا كبا "[3]

---

(1) صبح الأعشى ، 330/14

(2) محمد بن محمد بن أحمد، أبو عبد الله، شمس الدين المقدسي السعدي الدمشقيّ الحنبلي، الأعلام ، 45/7

(3) صبح الأعشى، 331/14

وإجازة أخرى كتبها علامة عصره الشيخ عز الدين بن جماعة، حيث عرض عليه نجم الدين أبو الفتح محمد[1] بعضاً من كتب ابن جماعة، وقد أورد الإجازة ومدح فيها نجم الدين، ثم أذن له أن يروي عنه مصنفاته من منظوم ومنثور ومنقول .

ومن تلك الإجازة: "**كذلك عرض عليّ المذكور باطنها عرضاً حسناً، محرّراً مهذّباً متقناً ؛ عَرض من أتقن حِفظه، وزُيّن بحُسن الأداء لفظه، وأُجزل له من عين العناية حظّه... وقد دلّني ذلك منه نفعه الله تعالى ونفع به، ووصل أسباب الخير بسببه، على عُلوّ هِمّته، ووُفُور أَرِيَحيّته، وتَوقّد فكرته، واتّقاد فطنته؛ وأصله في ذلك كلّه عَريق:**

سجِيّةُ تِلك منهم غيُرُ مُحَدَّثَة — إنّ الخلائق- فاعلم- شَرّها البِدَع!

وقد أذنتُ له أن يروي عنّي الكتاب المذكور، وجميع ما يجوزُ لي وعنّي رِوايتُه من مُصنّفاتي وغيرها من مَنظوم ومَنثور، ومَنقول ومَعقول ومَأثور، بشرطه المعتبر، عند أهل الأثر. وكتب فلان في تاريخ كذا. [2]

وإجازة أخيرة كتبها ابن الوردي لابن العطار[3] ،حيث عرض عليه كتاب النبيه وقد بدأ الإجازة بمقدمة كالعادة حمد الله عز وجل وصلى على رسوله الكريم، ثم انتقل إلى موضوع الإجازة، حيث قام ابن العطار بعرض كتاب النبيه على ابن الوردي، وتأكد من خلالها ابن الوردي من حفظه للكتاب كاملاً، ثم مدح هذا الطفل الصغير على هذا الحفظ، ودعا الله عز وجل أن ينبته نباتا حسناً .ومن تلك الإجازة :"**أما بعد الحمد لله بمحامده كلها .والصلاة على نبيه أشرف البرية رتبة وأجلها، وعلى آله وصحبه أحق الناس بكلمة التقوى وأهلها. فقد عرض علّي ابن العطار أنبته الله نباتاً حسناً وبلغه من فهم العلم المُنى، عرضاً زاد هذا الطفل طولا...، دل به على حفظ الكتاب كلِه، فأكبرت لصغر سنه مثل ذلك من مثله. قائلاً: "إنك من أطفال أرجو أن تكون لهم في العلوم رسوخاً ثم لتبلغوا أشدكم ثم**

---

(1) نجم الدّين أبو الفتح محمد بن عبد الدائم الحنبلي، برع في الفنون، وتقرّر مدرسا للحنابلة في مدرسة جمال الدّين ، وكان عاقلا، رصيّنا، توفي في ليلة الجمعة رابع عشر من ربيع الأول بالطّاعون عن بضع وثلاثين سنة، شذرات الذهب، 208/9

(2) صبح الأعشى ، 330/14

(3) أبو بكر منصور بن نصر المعروف بابن العطار، توفى ليلة الثامن عشر من ذي القعدة سنة 575، سير أعلام النبلاء، شمس الدين الذهبي، تحقيق شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، ط3، 1985، 203/22

لتكونوا شيوخاً، سر الله بك أباك في السر والجهر. فهو سبحانه إذا شاء خرق العادة فيصلح بابن العطار ما أفسد الجهر"[1].

ثالثاً الإجازة بالرواية الأدبية

وهي إجازة برواية المؤلفات الأدبية التي ألفها المجيز، وهذا النوع يسبقه استدعاء أو استجازة من طالب الإجازة ؛ وهو أن يسعى أديب إلى أديب آخر يكون أنجح منه أدباً، وأرحب أفقاً، وأبعد شهرة، فيكتب له رسالة يطلب منه أن يمنحه إجازة برواية آثاره الأدبية ومصنفاته ومروياته سواء أكانت شعراً أم نثراً ليكون أحد رواة أدبه تشريفاً له أو تحملاً لأمانة الرواية عنه[2].

وغالباً ما ترسل للشيخ أو الأديب يطلب منه التلميذ الإجازة ليروي عنه كتبه على اختلاف أنواعها .وربما كانت رغبة التلميذ أن يحصل على إجازة برواية ما قد ألفه المجيز، أو ما سيؤلفه في المستقبل، ويكون الاستدعاء أو الاستجازة مرسلة مع عبارات المدح والشكر والثناء .

ومن تلك الإجازات: إجازة جمال الدين بن نباتة المصري التي كتبها لصلاح الدين الصفدي، بعد استجازة له أرسلها الصفدي إليه ليمنحه إجازة خاصة وإجازة عامة، والسماح له برواية كتبه المختلفة، ولقد بدأ الصفدي استجازته بحمد الله عز وجل والصلاة على رسوله الكريم ثم بدأ ينعت المجيز بصفات المدح والثناء وذكر اسم جمال الدين مع عبارات المدح، ثم عرض طلب الإجازة لرواية المصنفات التي ألفها، ووضح أنه يرغب بالرواية عنه في الماضي والحاضر، وهو ما قصده بإجازة خاصة، ورغب في الرواية عنه كل ما يقع عليه عينه في المستقبل وهو ما قصده بإجازة عامة ثم ختم الصفدي الإجازة باسمه.

ومن تلك الاستجازة :"**الْحَمد لله على نعمائه، وَالصَّلَاة وَالسَّلَام على خير أنبيائه، مُحَمَّد وَآله وَصَحبه وأصفيائه، المسؤول من إِحْسَان سيدنَا الشَّيْخ الإِمَام الْعَالم الْعَلامَة رحْلَة الْأَدَب، قبْلَة ذَوي التحصين لَهُ فِي التَّحْصِيل والدأب،... جمال الدّين أبي بكر مُحَمَّد ابْن الشَّيْخ الإِمَام الْحَافِظ شمس الدّين مُحَمَّد بن نَبَاتة جمع الله بِهِ شتات الْأَدَب فِي دوحة هَذِه الدولة، وَلمَّ بِهِ شعث أبنائه الَّذين لَا صون لَهُم وَلَا صولة، وَأقَام بِهِ عماد أَبْيَات الشّعْر الَّتِي لولاه لما عُرفت دَارٌ مية من أطلال خَوْلَة،**

---

(1) عصر سلاطين المماليك، 193/5

(2) السابق، 194/5

بمنه وَكَرمه، إجازة كَاتب هَذِه الأحرف مَا لَهُ– فسح الله فِي مدَّته– من رِوَايَة المصنفات فِي الْأَحَادِيث النَّبَوِيَّة ،والتَّأليفات الأدبية على اخْتِلَاف أوضاعها وتباين أجناسها وأنواعها، بِحَسب مَا تأدى ذَلِك إِلَيْهِ واتصل بِهِ من قِرَاءَة أَو سَماع أَو إجَازَة أَو وَصِيَّة من مَشَايِخ الْعلم الَّذين أَخذ عَنْهُم، وإجازة مَا لَهُ أحسن الله إِلَيْهِ من مقول نظماً أَو نثراً تأليفاً أَو وضعاً إجازة خَاصَّة ،وإثبات مَا لَهُ من التصانيف إِلَى هَذَا التَّارِيخ بِخَطِّهِ الْكَرِيم وإجازة مَا لَعَلَّه يَقع لَهُ بعد ذَلِك إجازة عَامَّة، على أحد الْقَوْلَيْنِ فِي الْمَسْأَلَة فَإِن الرياض لَا يَنْقَطِع زهرها والبحار لَا تنفد دررها ...، كتبه خليل بن أيبك بن عبد الله الألبكي بالقاهرة المحروسة، وحسبنا الله ونعم الوكيل"[1].

وإجازة أخرى قد كتبها صلاح الدين الصفدي رداً على استجازة كتبها أحمد بن عبد الله بن مالك[2]، القاضي البليغ شهاب الدين أبو العباس. وقد بُدئت الاستجازة بمقدمة حمد الله عز وجل، وصلى على رسوله الكريم، ثم بدأ يمدح المجيز مدحاً يليق به، ثم قدّم له طلب الإجازة لرواية المصنفات على اختلافها سواء أكانت أحاديث نبوية، ومؤلفات أدبية، وماله من تصنيف وتأليف وجمع وانتقاء، وبين سبب الرغبة لإرسال هذه الإجازة؛ حباً في التميز والرفعة والعزة. ومن ذلك الاستدعاء أو الاستجازة :**"أما بعد الحمد الله المدعو بالحسنى من أسمائه، والصلاة و السلام على سيدنا محمد ...، صلاة تملأ ما بين أرضه وسمائه، فالمسئول من إحسان فلان فريد دهره، ووحيد عصره، لسان العرب، مُبلّغ الأرب، ... قدوة الأوائل والأواخر، مادة بحار العلوم الزواخر _الشيخ فلان الدين _جمع الله به في دوحة هذه الدولة أشتات الأدب، ولمّ به شعث من جعل الصلاح شعاره ولا عجب، وأقام به أبيات الشعر الذي لولاه ما قام لها عمود ...إجازة كاتب هذه الأحرف ما له من رواية المصنفات في الأحاديث النبوية، والتأليفات الأدبية، وما له من تصنيف وتأليف، وجمع وانتقاء .وإثبات ذلك بخطه إلى هذا التاريخ، وما لعله يقع له بعد ذلك، إجازة تجعل حال العبد منصوباً على التمييز، وترده بعد الخفض وهو عزيز وترفع قدره في الابتداء..."** [3]

ولقد رد الصفدي عليه بالإجازة، وقد بدأها بمقدمة حمد الله وشهد له بالألوهية ، ولنبيه بالرسالة ،و صلى عليه وعلى آله وصحبه ،وانتقل للحديث عن فضل فن الرواية وعدّوه من محاسن

---

(1) الوافي بالوفيات، 235/1

(2) أَحْمد بن عبد الله بن مَالك بن مَكْنُون العجلوني الأَصْل الدِّمَشْقِي شهَاب الدّين ابْن فَخر الدّين خطيب بَيت لهيا ولد فِي الخَامِس من شهر رَمَضَان سنة 705، مَاتَ فِي الثَّانِي من الْمحرم سنة 780 .الدرر الكامنة ، 216/1

(3) ألحان السواجع، 56/1

الإسلام، ومن خصائص الفضلاء، واستدل على ذلك بقول أحمد بن حنبل، ثم مدح شهاب الدين أبو العباس مدحا يليق به، و أورد طلبه بالإجازة ثم رد عليه بقبول الإجازة وأجاز له بالرواية عنه من كتب الحديث أو كتب الأدب. ومن تلك الإجازة: " **الحمد لله الذي إذا دُعى أجاب، وإذا أنعم على الأديب بذوق أتى في نظمه ونثره بالعُجاب، ... نحمده على نعمه التي منها البلاغة، ... .ونشهد أن لا إله الله وحده لا شريك له، شهادة فُطر الضمير على إخلاصها ، ...ونشهد أن محمداً عبده ورسوله، أفصح من نطق بهذا اللسان، ... صلى الله عليه وعلى آله وصحبه، وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين.**

وبعد. فإن فن الرواية من محاسن الإسلام، ومزايا العلماء الأعلام، وخصائص الفضلاء الذين تخفق لهم ذوائب الطروس، وتنتصب رماح الأقلام، ولم تزل رغبة السلف تتوفر عليه، وتشير أنامل إرشادهم للأنام بالحث عليه، قيل للإمام أحمد- رضي الله عنه -ما تشتهي ؟فقال: سند عال، وبيت خال، وما برح الأئمة الكبار يرتحلون إلى أقاصي الأقاليم في طلبه، ويتحملون المشاق والمتاعب فيه، ويتجملون بسببه، ...ولما كان الشيخ، الإمام، العالم، ... الخطيب، الناظم، الناثر، شهاب الدين بن بركة الملوك والسلاطين، أبو العباس أحمد الحنبلي، خطيب بيت لِهيا _أمتع الله بفوائده _ ...فأراد أن يُشرِّف قدري، ويُعرف نُكري، فطلب مني الإجازة، وأنا أحق بالأخذ عنه، واستدعى ذلك مني، ورُب حامل فقه إلى من هو افقه منه، فنعم أجزت له _فسح الله في أجله_ ما يجوز لي أن أرويه مما هو لي بإجازة، وذكرت في الإجازة المذكورة ما رويته من كتب الحديث، ومن كتب الأدب..." [1]

ونموذج إجازة أخرى كتبها الشيخ العلامة شمس الدين محمد بن الصائغ على استدعاء بعض من سأله .وقد بدأها كالعادة بحمد الله عز وجل والصلاة على رسوله الكريم، ثم بدأ يتحدث عن نفسه بتواضع بأبياتٍ من الشعر، وتحدث عن علمه وأدبه وكتبه ثم أنشد أبياتاً من الشعر أوصى فيها المستجيز بتحري الصدق، فهو خير الوصية، ثم أورد نص الإجازة ليروي عنه مع تواضع منه .

ومن تلك الإجازة:" **أقول بعد حمد الله الذي لا يخيّب من استجدى كرمه، ولا يخيب من استدعى نعمه، والصلاة على سيدنا محمد وآله وصحبه وخدمه .**

أثـــرتَ الجـــوى بــــي إذ أردتَ جــــوابي وعظّمــــتَ خطبــــي إذ قصــــدتَ خطــــابي

(1) ألحان السواجع 57/1

ومن أنا في الدّنيا أجيبُ ومن أنا! أُجيز؟ مضى الأشياخ تحت تُراب!
عجيب لطلّاب لدينا تَخلّفوا وكم قد أتانا دهرنا بعُجاب!

يا أخانا: إنّ بضاعتنا في العلم مُزجاة، وصناعتنا في الوقت مُرجاة، ونسيم أخباره عليل، وأدب إخباره قليل، وتصانيفي وجوه أكثرها مسودّة، وآمالي في تبييضها لقصر الهمم ممتدّة؛ سُئلتُ قديماً من بعض الفضلاء أن أعدّها، فكتبت فيها رسالة لا أعرف لصقل الأذهان حدّها؛ ومنّ الله بعد ذلك بتصانيف أخر، ومقاطيع إن لم تكن كالزُهر فهي كالزّهر؛ ثم عدّد نيّفاً وثلاثين مصنّفاً، منها «مجمع الفرائد» في ستّ عشرة مجلّدة.

ولقد شرّفتَ قدري بنفيس من هدايا
بنظام شنّف السّمع بِدُرّ كالثّنايا
فارو منّي وارو عنّي واغن عن شدّ المطايا
وانتق الفضل وحصّل، واحظ منّي بمزايا
وتحرّ الصّدق واعلم أنه خير الوصايا!!!
أجزت لك أن تروي هذه وغيرها عنّي ولك الفضل في قبول ذلك منّي[1]

واستجازة كتبها صلاح الدين الصفدي إلى شافع بن على العباس بن إسماعيل بن عساكر الشيخ الإمام الكاتب البليغ.

ولقد بدأها الصفدي بمدح الشيخ العسقلاني مدحاً يليق بعلمه، ثم أورد طلب الإجازة ليروي عنه كتب الحديث ومصنفات العلوم على اختلافها، كيفما يحصل عليه سماعاً، أو إجازةً، أو وصيةً، أو تأليفاً أو جمعاً أو نظماً أو نثراً.

ومن تلك الاستجازة:" **المسؤول من إحسان سيدنا الشيخ الإمام العالم المفيد القدوة، جامع شمل الأدب قبلة أهل السعي ..**

البليغ الذي أثار أو أبدأ الكلم من مظان البلاغة، وأبرز عقائل المعاني تتهادى في تيجان ألفاظه، فجمع بين صناعة السحر والصياغة، وأبدع في طريقة المثلى فجلّت عن المثل ...

---

(1) صبح الأعشى، 334/14

إجازة كاتب هذه الأحرف ما يجوز له روايته من كتب الحديث وأصنافها، ومصنفات العلوم على اختلافها، إلى غير ذلك، كيفما تأدى إليه من مشايخه الذين أخذ عنهم من قراءة أو سماع أو إجازة، أو مناولة أو وصية، وإجازة ماله –فسح الله في مدته_ من تأليف ووضع وتصنيف وجمع، ونظم، ونثر..." (1)

ولقد كتب العسقلاني إجازة جواباً للصفدي، بدأها بمقدمة حمد الله عز وجل، ثم بدأ يمدح الصفدي مدحاً يليق به، ثم حدد موضوعه موافقته على إجازته له ليروي عنه كتب الحديث أو المؤلفات الاخرى ، ومن تلك الإجازة: "**أما بعد فالحمد لله الذي أمتع من الفضلاء بكل مُجيز ومستجيز، وأشهد من معاصري ذوي الدراية والرواية من جمع بين البسيط من علو الإسناد والوجيز، نحمده على نعمه التي يجب له عليها الإحماد، ونشكره على تهيئة فضلها المخول شرف الإسعاف والإسعاد، ونصلي على سيدنا محمد المُعظم رواة حديثه، وحق لهم التعظيم، العالية قدراً وسنداً من شأنه التبجيل والتفخيم، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه، وما أحقهم بالصلاة والتسليم.**

وبعد فإني وقفت على ما التمسه الإمام الفاضل الصدر الكامل المحدث الصادق العلي الإسناد، ... وهو غرس الدين خليل بن أيبك.

وحسبي به غرساً تسامى أصالة إلى أن سما نحو السماء علاؤها

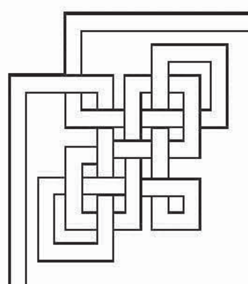
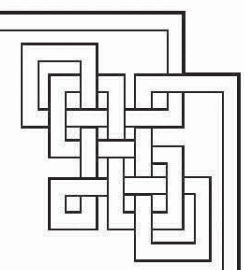
حوى من بديع النظم والنثر ما رقى إلى درجات لا يُرام انتهاؤها

استجاز _أعز الله _فأتى ببديع النظم والنثر في استجازته، وقال فأبدع في إبدائه وإعادته، وتنوع في مقالهما فأسمع ما شنف الأسماع، وأبان عمّا انعقد على إبداعه الإجماع، وقال فما استقال، ورتل آي مُحكم كتابه فتميز وحُق له التمييز على كل حال، وقد أجبته إلى ما به رَسَمَ جملة وتفصيلا، وأصلاً وفرعاً، وأبديت فيه وجهاً من وجوه الإجابة جميلاً، ما تجوز لي روايته من كتب الحديث وأصنافها، ومصنفات العلوم حسبما أجزت من المشايخ الذين أخذتُ عنهم، وسألتُ الإجازة منهم، بقراءة أو سماعاً و مناولةً أو وصيةً، ومالي من تأليف ووضع ونظم ونثر وجمع..." (2)

---

(1) ألحان السواجع، 363/1.

(2) السابق، 364/1 .

الفصل الثالث

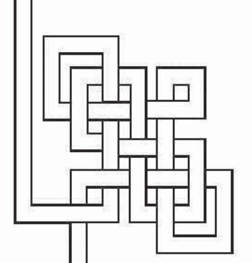
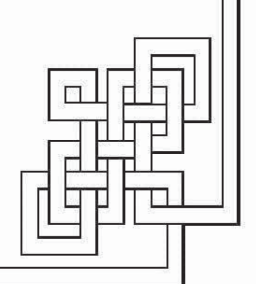
الدراسة الفنية

المبحث الأول: بناء الرسالة، وضوابطها الفنية.

المبحث الثاني: السمات اللغوية والأسلوبية.

المبحث الثالث: السمات الإيقاعية.

المبحث الرابع: السمات التصويرية.

المبحث الأول

بناء الرسالة، وضوابطها الفنية

لقد اهتم كُتّاب الرسائل ببناء الرسالة اهتماماً شديداً، فكانت مقدمة كل رسالة تختلف عن الأخرى حسب الموضوع المُرسَلَة فيه.

وظهر حرص كُتّاب العصر المملوكي ببناء الرسالة بسبب حرصهم الشديد على رونقة الرسائل وتقسيم أجزائها، ووحدة موضوعها، لتعبر عن الموضوع الذي كتبت من أجله.

ومن أهم الكتب التي اهتمت ببناء الرسالة "صبح الأعشى" الذي وجه كل كاتب رسالة لكيفية البدء بالرسالة وصور البدء بها، وكيفية الانتقال للموضوع وصور الختام.

بداية ستتحدث الباحثة عن عناصر الرسالة:

أولاً: البسملة:

ذكر القلقشندي أنه جرت العادة عند كُتّاب الرسائل أن تشتمل الرسالة على مقدمة، تَفتتِح الكلام وأولها البسملة حيث يقول: "يجب تقديمها في أول الكلام المقصود من مكاتبة أو ولاية أو منشور أو إقطاع أو غير ذلك تبركاً بالابتداء بها وتيمناً بذكرها"[(1)].

وقد اشترط بعض النقاد أن تُفتتح الرسالة بالبسملة "ليُبارك لهم فيما يحاولون ويؤجرون عليه[(2)]، وامتثالاً لقوله –صلى الله عليه وسلم-: " كل أمر ذي بال لا يُبدأ فيه باسم الله فهو أبتر أو أجذم[(3)]".

ومن خلال إطلاع الباحثة على عدد لا بأس به من الرسائل على اختلاف أنواعها، وَجدت أنها تتنوع بين ذكر البسملة في بداية الرسالة من عدم ذكرها. ومن الرسائل التي ذُكرت فيها البسملة رسالة صلح أرسلها ملك التتار محمود غازان إلى الناصر قلاوون[(4)].

---

(1) صبح الأعشى، 213/6.

(2) أدب الكتاب: أبو بكر الصولي، تحقيق أحمد حسن بسج ،دار الكتب العلمية ،د. ط، بيروت ،لبنان،32.

(3) مسند الإمام أحمد بن حنبل: تحقيق شعيب الأرناؤوط، وعادل مرشد، مؤسسة الرسالة، ط1، بيروت، 1997،329/14، رقمه(8711).

(4) ينظر: النجوم الزاهرة، 111/8، وأيضاً: صبح الأعشى، 323/14.

ورسالة أخرى كتبها ابن حِجة الحموي لتقليد محمد الرازي الشافعي وظيفة النظر في دواوين الإنشاء في الممالك الإسلامية[1]. ومن الرسائل التي لم تُذكر فيها البسملة: عهد من السلطان المنصور قلاوون ليتولى ابنه الملك الأشرف صلاح الدين خليل الحكم[2]، ورسالة أخرى وهي إجازة علمية كتبها أثير الدين أبو حيان لصلاح الدين الصفدي[3].

إن الرسائل التي ذُكرت فيها البسملة ما كان ذلك إلا سيراً على سنة الرسول –صلى الله عليه وسلم– وتباركاً بها؛ أما بالنسبة للرسائل التي لم تُذكر فيها البسملة فلم يكن ذلك انقاصاً من قدرها أو تقليلاً من شأنها بل عُدّ أنها عادة كان معمولاً بها، ثم تُركت، حيث يقول الصولي في كتابه: " إن الكُتّاب كانوا يلتزمون البسملة في صدور الكتب، ثم ترك ذلك"[4].

وعند الحديث عن موقع البسملة في الرسالة إنها كانت تَرد عادةً في البداية ولا يتقدمها أي كلام آخر وعدت أول عناصر الرسالة، فقد أشار النقاد إلى ضرورة إفراد البسملة في سطر واحد تبجيلاً لاسم الله وتعظيماً وتوقيراً له جل جلاله[5].

ولقد تنوعت البسملة، فمنها ما أُفرد في سطر في بداية الرسالة كرسالة لابن حجة الحموي[6]، ومنها ما ذكرت وأدرج معها كلام في السطر نفسه، ومن ذلك رسالة السلطان الناصر قلاوون إلى محمود غازان[7].

---

(1) ينظر: قهوة الإنشاء، 417.

(2) ينظر: نجوم زاهرة، 7/ 441.

(3) ينظر: الوافي بالوفيات، 5/ 182.

(4) ينظر: أدب الكتاب ، 144.

(5) ينظر: صبح الأعشى: 6/ 212.

(6) ينظر: قهوة الإنشاء: 418.

(7) النجوم الزاهرة، 112/8

ثانياً: العنوان

إن عنوان الرسالة يعد عنصراً مهماً من عناصر الرسالة، وبه تُبنى مقدمات الرسائل، ويُذكر فيه اسم المُرسِل والمُرسَل إليه، ويفسر الكلاعي سبب تسمية العنوان بهذا الاسم قائلاً: " لأنه يدل على الكِتاب ممن هو وإلى من هو"[1].

و لقد تنوعت الرسائل في هذا العصر أيضاً حول وضع العنوان: فهناك رسائل كان من بداية نصها من فلان إلى فلان. ومن ذلك: " من عبد الله ووليه الإمام الحاكم بأمر الله أبي العباس أحمد أمير المؤمنين إلى السلطان ... أبي الفتح محمد قسيم أمير المؤمنين وولد الملك المنصور"[2]

و رسالة أخرى: " هذا عهد شريف ... من عبد الله ووليه الإمام الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين للسلطان الملك المنصور حسام الدين أبي الفتح لاجين المنصوري"[3].

و هناك رسائل لم يوجد في نصها العنوان ممن ولمن، ومن ذلك رسالة كتبها شهاب الدين الحلبي[4]، ورسالة أخرى كتبها علاء الدين عبد الظاهر[5]؛ وصحيح أنه لم يُذكر في نص الرسالة المرسل والمرسل إليه، إلا أن كاتب الرسالة أو صاحب المرجع الذي وُجدت فيه الرسالة يَذكر المرسل والمرسل إليه مع تعليق بسيط على الرسالة .

ثالثاً: الحمدلة

كما جرت العادة أن تفتتح الرسالة بالبسملة؛ جرت أيضاً أن تفتتح بالحمدلة، فيُحمد الله عز وجل على نعمه الكثيرة، وآلائه العميمة التي توجب الحمد والشكر.

فحمد الله مندوبٌ في فتح الرسائل لليُمن والبركة؛ حيث يقول رسول الله– صلى الله عليه وسلم: "كل أمر ذي بال لا يُبدأ فيه بحمد الله فهو أقطع"[6].

---

(1) أحكام صنعة الكلام: محمد الكلاعي ، تحقيق محمد الداية، دار الثقافة ، ط.1، بيروت، لبنان، 1966م، 52، وأيضاً، الرسائل الفنية في العصر العباسي، 458.

(2) صبح الأعشى، 59/5.

(3) ينظر: السابق، 10/ 54.

(4) ينظر: السابق، 12/ 205.

(5) ينظر: نهاية الأرب، 8/ 135.

(6) سنن ابن ماجه: محمد القزويني، تحقيق محمد عبد الباقي، دار إحياء، د .ط، د. ت، 610/1، رقمه 1894.

و لقد نبّه أبو هلال العسكري على أهمية التحميد وأثره في النفوس فقال: "إذا كان الابتداء حسناً بديعاً، وملمحاً رشيقاً، كان داعية إلى الاستماع لما يجيء بعده من الكلام، لهذا جعل أكثر الابتداءات "بحمد لله" لأن النفوس تتشوق للثناء على الله فهو داعية إلى الاستماع"[1].

و قد قصر ابن الأثير التحميدات على صدور الرسائل السياسية لما تتضمنه من الأمور اللائقة بالتحميد؛ حيث يقول: "من الحذاقة في هذا الباب أن تُجعل التحميدات في أوائل الكتب السلطانية مناسبة لمعاني تلك الكتب، وإنما خصصت للكتب السلطانية دون غيرها لأن التحاميد لا تصدر في غيرها، فإنها تكون قد تضمنت أموراً لائقة بالتحميد، كفتح معقل أو هزيمة جيش أو ما يجري هذا المجرى"[2].

و من خلال اطلاع الباحثة على الرسائل بأنواعها في العصر المملوكي وجدت أن الحمدلة لم تقتصر على الرسائل السياسية، فقط بل قد وُجدت في مقدمات الرسائل العلمية وبعض الرسائل الاجتماعية.

فمن الرسائل السياسية تقليد للأمير سيف الدين المنصوري ليتولى نيابة السلطة الشريفة[3]، ومن الرسائل العلمية إجازة علمية بالتدريس وهي إجازة سراج الدين بن الملقن لتلميذه القلقشندي[4].

و من الرسائل الاجتماعية رسالة مدح كتبها القلقشندي يمدح المقر الفتحي أبو المعالي فتح الله[5].

كما لم تقتصر الحمدلة كجملة واحدة في بداية الرسالة بل يستطرد الكاتب بحمد الله على نعمائه وآلائه التي لا تعد ولا تحصى.

---

(1) الصناعتين، أبو هلال العسكري ،تحقيق مفيد قميحة ،دار الكتب العلمية ،ط2،بيروت ،لبنان،1984 ، 131
(2) المثل السائر، ابن الأثير، تحقيق بدوي طبانة وأحمد الحوفي، دار النهضة ،ط 2،القاهرة، مصر، 3/ 108.
(3) نهاية الأرب، 8/ 135.
(4) صبح الأعشى، 323/14.
(5) صبح الاعشى، 191/14.

رابعاً: الصلاة على الرسول الكريم – صلى الله عليه وسلم–

إن الصلاة والسلام على سيدنا محمد خير البرية والأنام كانت مستعملة منذ العصر الإسلامي تباركاً بها. ومن ذلك رسالة علي بن أبي طالب إلى أهل مصر [1].

و لقد اهتم الكُتّاب في العصر المملوكي بذكر الصلاة على النبي في رسائلهم، بل زادوها جمالاً في بعض الرسائل عندما شهدوا لله بالوحدانية ولنبيه بالرسالة والنبوة، و يزيدون جمال تلك الشهادة بالصلاة والسلام على الرسول. ويشير القلقشندي لهذا المعنى بقوله: "فإذا أتُي بالحمد أول الكتاب، ناسب أن يؤتى بالصلاة على النبي– صلى الله عليه وسلم– في أوّله، إتياناً بذكره بعد ذكر الله تعالى"[2].

و قد كان ميل الكُتّاب إلى حمد الله عز وجل في صدور الرسائل طلباً لليمن والبركة، وكان ميلهم إلى الصلاة على النبي نابعاً من صميم المطلب نفسه امتثالاً لقوله تعالى: " إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ۚ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا"[3].

و قد ذُكرت الصلاة على النبي في رسائل العصر المملوكي على اختلاف أنواعها، السياسية منها والعلمية والاجتماعية، ومن ذلك على الترتيب رسالة عهد من المنصور قلاوون لابنه صلاح الدين خليل[4]، رسالة علمية "إجازة عراضة" كتبها بدر الدين المخزومي لشهاب الدين أبي العباس أحمد بن شمس الدين الشافعي[5]، ورسالة مدح كتبها القلقشندي يمدح شرف الدين بن حجاج لنظمه قصيدة[6].

و لقد كانت مقدمة الرسالة غالباً قبل عبارة "أما بعد" أو "بعد" تُناسب بشكل كبير موضوع الرسالة التي أرسلت من أجله؛ حيث عند كتابة رسالة صداق للمك أو الأمير أو أحد أبناء الملك أو بناته كانت مقدمة تلك الرسالة يتحدث فيها عن الزواج وأهميته وضرورة السير على هدى الرسول

---

(1) النجوم الزاهرة، 1/ 97.
(2) صبح الأعشى، 6/ 218.
(3)الأحزاب: آية، 56
(4) النجوم الزاهرة، 7/ 341.
(5) صبح الأعشى، 14/ 327.
(6) السابق، 14/ 337.

–صلى الله عليه وسلم– والرغبة في تكثير أمة محمد–صلى الله عليه وسلم– ليباهي بالمسلمين الأمم، ومن ذلك رسالة صداق ناصر الدين محمد بن الخطيري كتبها شهاب الدين بن فضل الله العمري(1).

وعندما تكون الرسالة رسالة علمية "إجازة ما" تكون الرسالة تتحدث عن العلم والعلماء وحمد الله على نعمة البلاغة وصناعة الإنشاء ويحمده على سهولة استخدام الألفاظ وتطويعها، ويحمده الذي رفع قدر العلماء ومقدارهم... ومن تلك الرسائل(2).

وعندما تكون الرسالة تقليد لشخص ما بمنصبٍ معينٍ تكون المقدمة مبدوءة بحمد الله الذي خص الممالك المصونة بأشهر الأصفياء، ويحمده على أن شيد ركن الدولة بمجيء هذا الأمير المراد تقليده، ومن ذلك رسالة كتبها علاء الدين بن عبد الظاهر لتقليد سيف الدين المنصوري(3).

وعندما تكون الرسالة توقيعاً ليتولى الشخص وظيفة معينة داخل الدولة كانت كل مقدمة تتحدث عن الوظيفة الموكلة للشخص؛ ومن ذلك على سبيل المثال توقيع كتبه ابن حجة الحموي ليتولى برهان الدين السكندري وظيفة رياسة الطب، فكانت المقدمة تتحدث عن الصحة وشكر المولى على نعمة الصحة، والحديث عن الطب النبوي الذي خص الله به الرسول –صلى الله عليه وسلم– ومن ذلك التوقيع(4).

وعندما تكون الرسالة من الرسائل الاجتماعية تكون المقدمة تخدم الموضوع، فعندما تكون الرسالة رسالة مدح فالمقدمة تدبج بعبارات المدح والثناء وحمد الله على أن جعل سر المملكة المصون في يد رجل واسع الصدر، ومن ذلك رسالة مدح كتبها القلقشندي يمدح المقر الكريم الفتحي أبا المعالي فتح الله(5).

وإذا كانت الرسالة تهنئة بالعودة إلى منصب تُدبج مقدمة الرسالة بعبارات المدح والتهاني على هذه العودة الميمونة ومن ذلك(6).

---

(1) صبح الأعشى، 14/ 313.
(2) السابق، 14/ 223.
(3) نهاية الأرب، 8 /135 .
(4) قهوة الإنشاء، 36.
(5) صبح الأعشى، 14/ 191.
(6) ألحان السواجع، 1/ 42.

أما إذا كانت رسالة تعزية فيبدؤها الكاتب بمقدمة يُظهر فيها الحزن والأسى على الفقيد ومن ذلك [1].

وقد وجدت الباحثة مجموعة من الرسائل لم تحتو على العناصر السابقة الذكر أو بعض منها، ومن ذلك بشارة بوفاء النيل كتبها ابن حجة الحموي، حيث بدأها بالموضوع مباشرة وهو وفاء النيل، وأثّر ذلك الوفاء على الأشجار والنبات والأرض والمدن المصرية ومنها[2].

ورسالة علمية كتبها أثير الدين أبو حيان يجيز فيها الصفدي ليروي عنه كتبه ومصنفاته ؛ وقد بدأها بالدعاء والمدح ومنها[3].

ورسالة مدح كتبها الصفدي يمدح مصنف قد وضعه الشيخ تاج الدين علي بن الدرهم الموصلي؛ وقد بدأها بمدح التصنيف الذي وضعه ومنها[4].

كما أن هناك مجموعة من الرسائل قد وجدتها الباحثة قد فُتحت بتقبيل الأرض أو اليد؛ ومن ذلك رسالة تهنئة كتبها جمال الدين بن نباتة يهنئ علاء الدين بن فضل الله العمري بالعودة إلى منزله بالديار المصرية[5].

خامساً: التخلص

بمعنى الانتقال من مقدمة الرسالة إلى الموضوع أو الغرض المطلوب. وقد سار الكُتّاب على استعمال (أما بعد) منذ العصر الإسلامي، وقد سار كُتّاب العصر المملوكي على استخدام: (أما بعد) لينتقلوا من مقدمة الرسالة إلى موضوعها وتنوع ذلك بين استخدام "أما بعد" و"بعد".

فمن الأولى عهد للملك المنصور حسام الدين لاجين[6]. و من الثانية توقيع للشيخ برهان الدين الدين إبراهيم السكندري[7].و قد وُجد مجموعة من الكُتّاب يدخلون إلى موضوع الرسالة دخولاً مباشراً من دون صيغة بين المقدمة والموضوع كنوع من عدم التقيد بنظام واحد.

---

(1) ينظر: قهوة الإنشاء، 297.

(2) ينظر: ثمرات الأوراق، 230.

(3) ينظر: الوافي بالوفيات، 5/ 182.

(4) ينظر: صبح الأعشى،14/ 335.

(5) ينظر: السابق، 9/ 36.

(6) ينظر: صبح الأعشى، 10/ 53.

(7) قهوة الإنشاء، 36.

و من ذلك رسالة بشارة بوفاء النيل كتبها صلاح الدين الصفدي[1]، ورسالة أخرى كتبها أثير الدين أبو حيان وهي إجازة تدريس[2].

سادساً: موضوع الرسالة

المضمون أو موضوع الرسالة هو صلب الرسالة، تقع بين المقدمة والخاتمة. فهو أهم جزء من أجزاء الرسالة؛ ففيه يبدأ الكاتب ببسط آرائه وأفكاره ويسرد الموضوع الذي من أجله بدأ الرسالة.

ففي موضوع الرسالة يبدأ الكاتب بالحديث والاستطراد في موضوع الرسالة، ويُظهر فيها إبداعه وقدرته على الحديث والإسهاب والقدرة على استخدام الأساليب الفنية المتنوعة.

وقد كان الكاتب في موضوع الرسالة يُترك له المجال للحديث، فيستخدم ألفاظاً واضحة جلية بعيدة عن الغموض، ومن ذلك مثلاً: رسالة أمان كتبها المنصور قلاوون للتجار الذين يصلون إلى مصر، فالقارئ لتلك الرسالة يستشف من ألفاظها وعباراتها أنه قد أعطاهم الأمان لدخول مصر من أي بلد كانوا، وحثهم على التجارة وجلب المماليك معهم مع الوعد بشرائهم لتكثير الجنود؛ فقد كانت ألفاظ الرسالة تقدم موضوع الرسالة وهو الأمان ومن تلك الرسالة[3].

كما أن كل موضوع رسالة يستخدم الكاتب فيه ألفاظ وأساليب خاصة بالموضوع ويختلف عن الآخر، فمثلاً عندما تكون الرسالة نشراً لخبر الانتصار والسيطرة على بلد معين، يستخدم الكاتب ألفاظاً وعبارات تًخبر بفتح المدينة أو البلد مع عبارات التهكم والسخرية منه، ويسرد كيف أنه استولى على المدينة هو وجنوده... ومن ذلك رسالة كتبها محيي الدين عبد الظاهر على لسان السلطان الظاهر بيبرس إلى بوهمند السادس أحد أمراء الصليبيين يخبره بالاستيلاء على أنطاكية وقتل الصليبيين فيها ومن تلك الرسالة[4].

فموضوع هذه الرسالة يختلف عن الرسالة التي سبقتها، و من طريقة الحديث والعبارات والألفاظ والتراكيب تختلف حسب الموضوع، وموضوع كل رسالة يختلف عن الأخرى حسب الغرض الذي وُجدت

---

(1) حسن المحاضرة، 2/ 369.

(2) الوافي بالوفيات، 5/ 182.

(3) صبح الأعشى، 13/ 34.

(4) السلوك، 1/ 966.

من أجله؛ فمثلاً رسالة كتبها ابن حجة الحموي لتقليد الإمام محمد الرازي الشافعي، وظيفة النظر في دواوين الإنشاء الشريف بالممالك الإسلامية.

فبعد المقدمة بعناصرها؛ بدأ الكاتب يتحدث عن ديوان الإنشاء وأهميته، وضرورة أن يستلم الرازي ذلك المنصب لأنه أفضل الأفاضل وهو رأس العلماء ... ثم يسرد التقليد والأمر ليتسلم المنصب، ثم يبدأ بمدحه، ولم ينس الوصايا، بل تقدم الوصايا لتساعده في عمله ومن تلك الرسالة[1].

و هكذا في باقي الرسائل على اختلاف أنواعها فيكون الموضوع يخدم الغرض. كما تتسم الرسائل في العصر المملوكي بالوحدة الموضوعية، حيث تسير الرسالة حول موضوع واحد.

سابعاً: الخاتمة

كما اشترط النقاد حُسن الابتداء بالرسالة اشترطوا أيضاً حُسن الختام، كونه آخر ما يبقى في الأسماع، ولأنها ربما حُفظت من دون سائر الكلام في غالب الأحوال، فيجب أن يجتهد في رشاقتها ونضجها وحلاوتها وجزالتها[2]، وقد نبّه النقاد أيضاً على ضرورة ارتباط الخاتمة بالموضوع.

ولقد كان اهتمام الكُتّاب في هذا العصر بخواتيم الرسائل نابعاً من الاهتمام بالمقدمات؛ فالعلاقة وثيقة بين صدر الرسالة وعجزها، فشُبهت المقدمة والخاتمة كجناحي الطير يدفعان الطائر للتحليق عالياً ،ومن ثم الارتقاء بمضمون الرسالة.

ولقد تنوعت خواتيم الرسائل حسب تنوع موضوع ونوع الرسالة، ومن ذلك السياسية، فعندما تكون الرسالة نشر خبر الانتصار والسيطرة على بلد معين، تختم الرسالة بعبارة فيها من التهكم والسخرية والاستهزاء الكثير كونه حقق النصر عليه ومن ذلك "إن الإله الذي أعطاك أنطاكية منك استرجعها والرب الذي أعطاك قلعتها منك قلعها ومنك اقتلعها " [3].

وعندما تكون الرسالة رسالة صلح تختتم بعبارة توحي بالصلح والرغبة فيه وتختم بالسلام ومن ذلك "السلام الطيب منا عليكم إن شاء الله تعالى" [4].

---

(1) قهوة الإنشاء، 417.

(2) نقد النثر، 291.

(3) السلوك، 1/ 966.

(4) ينظر: نجوم زاهرة، 8/ 112.

وعندما تكون الرسالة رسالة عهد تختتم بوصايا لتكون ذخراً وذكراً للمعهود إليه، ثم حمد الله والصلاة على رسوله الكريم وعبارة :حسبنا الله ونعم الوكيل، كعهد السلطان محمد قلاوون" الحمد لله وحده وصلواته على سيدنا محمد واله وحسبنا الله ونعم الوكيل "[1]، وبرسالة التقليد لتولي منصب أو سلطنة قد ختم بتعميمه على الشعب والدعوة لضرورة الامتثال لأوامره وطاعته ومن ذلك" نسأل كل واقف على هذا التقليد أو يسمع به من الأمراء والنواب والعساكر المنصورة أيدهم الله تعالى امتثال أمره والنهوض في خدمة ركابه"[2].

ورسالة مرسوم بمسامحة أهل دمشق، فقد ختم هذا المرسوم بطلب دعاء من أهل دمشق ليدعوا لأيام الدولة الزاهرة ليزيدها الله قوةً ونصراً وتمكيناً ومن ذلك" ابتهلوا لأيامنا الزاهرة بالأدعية التي تخلد سلطانها وتشيد أركانها"[3].

ورسالة بشارة قد ختمت بكلمة توجّه للأمير أو الملك أو الجناب العالي ليأخذ حظه من البشارة، وتختم أيضاً بدعاء له ليُسمعه الله الأنباء الحسنة لتستمر الأعراس والأفراح والمسرات ومن ذلك بشارة كتبها الصفدي لبعض نوابه"ليأخذ الجناب العالي حظه من هذه البشرى التي جاءت بالمن والمنح ...ليتلقاها بشكر يضيئ به في الدجى أديم الأفق"[4].

وعندما تكون الرسالة رسالة علمية على اختلاف أنواعها تختم بدعاء ليرزق الله الطالب التوفيق والنجاح ويهديه الله سواء السبيل، وتغلق بعبارة حسبنا الله ونعم الوكيل، ومن ذلك" فالله يرزقنا وإياه التوفيق والتحقيق ويسلك بنا وبه أقرب طريق ،ويهدينا سواء السبيل فهو حسبنا ونعم الوكيل [5]. أو تختم بعبارة: أجزت لك ثم الدعاء للطالب بالتأييد والثبات والنجاح ومن ذلك" قد أجزت لك أيدك الله جميع ذلك بشرط التحري فيما هناك تبركاً بالدخول في هذه الحلبة" [6].

وتتنوع خواتيم الرسائل حسب موضوعها؛ فعندما تكون الرسالة رسالة مدح ختمت باعتذار عن التقصير والعجز عن استكمال المدح، وإعطاء الممدوح حقه في الثناء والشكر كرسالة مدح كتبها

---

(1) ينظر: صبح الأعشى، 10/ 59.

(2) ينظر: السلوك، 969/1.

(3) ينظر: صبح الأعشى، 13/ 27.

(4) ينظر: حسن المحاضرة، 2/ 369.

(5) ينظر: صبح الأعشى، 14/ 323.

(6) ينظر: الوافي بالوفيات، 1/ 232.

القلقشندي، يمدح أبي المعالي فتح الله " إن اعترافي بالعجز في مدحه أبلغ مما اتيه وإقراري بالتقصير في شكره أولى مما أصفه من توالي طوله وأياديه"[1].

وفي رسائل التهاني عندما تكون الرسالة تهنئة بالعودة للوظيفة قد ختمها ابن نباتة بآية من القرآن الكريم اعتبر فيها أن عودته للوظيفة فضل من الله " كان فضل الله عليك عظيماً[2]، وفي تهنئة بالبنين قد ختمت بيت شعر يدعو الله فيها للوالد ليعطيه الله الحياة ليرى أولاده في أحسن حال، كتهنئة كتبها شهاب الدين محمود الحلبي " مد لك الله الحياة مداً حتى ترى نجلك هذا جداً" [3].

وفي بعض رسائل التعزية ختمت بدعاء ليعطي الله أهل الفقيد الأجر، ولا يُسمعه طوال الدهر تعزية أخرى؛ وقد كتبها شهاب الدين محمود ومنها "والله تعالى يجزل له من الأجر أوفاه ويحفظ عليه أخراه ويجعله للإسلام ذخراً ولا يسمعه مع طول البقاء بعدها تعزية أخرى" [4].

وعندما تكون الرسالة رسالة عتاب ختمت ببيت شعر يحمل معنى العتاب، كرسالة كتبها الشهاب الدين الحلبي : مولاي قد طال التباعد بيننا أو ما سئمت قطيعتي وملالي[5].

وفي بعض الأحيان قد يتوقف الكاتب بعد الانتهاء من عرض موضوعه من دون خاتمة؛ ومن ذلك إجازة كتبها القلقشندي لمحمد شمس الدين، حيث عرض على القلقشندي الأربعين حديثاً لمحيي الدين النووي؛ ولم يختمها بأي عبارة تعتبر خاتمة، مع العلم أنه في صبح الأعشى قد ظهرت الرسالة غير كاملة، وبُرر الموقف أن بقية النسخة قد سقطت من قلم الناسخ ومن تلك الرسالة[6].

وتعتقد الباحثة أن عدم وجود خاتمة للرسالة يكون قد سقط من قلم الناسخ فعلاً؛ فبناءً على اطلاعها على عدد لا بأس به من الرسائل نَدَرَ ما كان منها بلا خاتمة، وما ذلك إلا دليل على براعة وقدرات الكتاب في العصر المملوكي، وأن الاهتمام الشديد لم يكن بالشعر فقط بل اهتموا بالنثر أيضاً.

---

(1) ينظر: الوافي بالوفيات، 14/ 197.
(2) ينظر: السابق، 9/ 37.
(3) ينظر: السابق، 9/ 59.
(4) ينظر: نهاية الأرب، 5/ 178.
(5) ينظر: صبح الأعشى، 9/ 199.
(6) صبح الأعشى، 331/14

المبحث الثاني

السمات اللُغوية والأسلوبية

إن كتابة الرسائل تعتمد على براعة الأديب، وثقافته وتمكنه من أدوات الكتابة التي من أهمها: الوقوف على أسرار اللغة، وطرق استخدامها، وحسن توظيفها لخدمة مهمته فهو يكتب بترو بعيداً عن نظرات المستمعين، والمتلقي أيضاً لديه الوقت للتفكير وإعادة النظر، ومتابعة الأفكار .ومن أهم تلك السمات في الرسائل:

أولاً: جزالة الألفاظ:

إن ما ينبغي للخطيب أن يتجنبه يُسمح به له لكاتب الرسائل، فالكتابة تستر العيوب .فلو كان الكُتاب ممن يلحنون في كلامهم، أو ممن يعانون عيباً من عيوب النطق كاللثغ الفاحش، فإن ذلك يتوارى عند الكتابة ولا يظهر فيما يكتبون من رسائل[1].

وقد رأى ابن قتيبة أنه يجب على الكاتب أن يتجنب الألفاظ التي سماها "وحشي الغريب"[2] أو كما سماها البطليموسي الألفاظ التي لم تجر العادة باستعمالها أو كانت قليلة الاستعمال[3].

وقد نبه ابن الأثير على الألفاظ التي يُستحسن استعمالها، ومن أقسام تلك الألفاظ، قسم يستحسن استخدامه في الرسائل فهو: "ما تداول استعماله الأول، والآخر من الزمن القديم إلى زمننا هذا، ولا يطلق عليه أنه وحشي" [4] وأيضاً من تقسيمه للألفاظ، الألفاظ الجزلة والألفاظ الرقيقة، فقصد بالألفاظ الجزلة التي تكون متينة مع عذوبة ولذاذة في السمع، وقصد بالألفاظ الرقيقة اللطيف الرقيق

(1) ينظر نقد النثر، 293.

(2) أدب الكاتب: ابن قتيبة، شرح علي فاعور، دار الكتب العلمية ط1، بيروت، لبنان 1988، 19.

(3) الاقتضاب في شرح أدب الكتاب، ابن السيد البطليموسي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، تحقيق مصطفى السقا – حامد عبد المجيد، 1981م، 1/ 124 .

(4) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ابن الأثير، تحقيق أحمد الحوفي، بدوي طبانة، دار النهضة، مصر، ط 2، 2، 1/ 176.

الناعم الملمس[1] والألفاظ الجزلة تُستعمل في وصف مواقف الحروب وفي التهديد والتخويف وما شابه ذلك، أما الألفاظ الرقيقة فتستخدم في وصف الأشواق وذكر المودة والاستعطاف[2].

وقد كان لديوان الإنشاء في العصر المملوكي دور كبير في توجيه اللغة والأسلوب لدى الكُتّاب في كتابتهم لرسائلهم، فكان أشبه بالمؤسسة التعليمية الثقافية في وضع أسس ثابته للمراسلات، كتحديد ألقاب، وتحديد الافتتاحيات، بالإضافة إلى ثقافة الكُتّاب والاطلاع الواسع، فذلك ساعد على رسم ملامح اللغة والأسلوب.

فلغة الرسائل اتفقت مع شروط البلاغة والميل للوضوح والبساطة مع الابتعاد عن الغرابة والتعقيد والوحشي من الكلام.

والاهتمام باللفظ هو ذاته اهتمام بالمعنى كما يقول ابن الأثير: "فإذا رأيت العرب قد أصلحوا ألفاظهم، وحسنوها ورققوا حواشيها وصقلوا أطرافها، فلا تظن أن العناية إذ ذاك إنما هي بالألفاظ فقط، بل هي خدمة منهم للمعاني، ونظير ذلك إبراز صورة الحسناء في الحلل الموشية، والأثواب المحبرة، فإننا قد نجد من المعاني الفاخرة ما يشوه من حسنه بذاذة لفظه، وسوء العبارة عنه[3].

ومن خلال اطلاع الباحثة على الرسائل المملوكية، وجدت سهولة في استخدام الألفاظ ووضوحها وجزالتها.

ومن تلك الرسائل على سبيل الذكر لا الحصر.

"الحمد لله الذي أجزل العطاء والمواهب، وضاعف النعماء التي يفيض شعابها، وأمواه العيون نواصب، وضاعف عزاً لا يعز معه مقصد ولا يتعذر معه المطالب... وشد أزرنا بولدنا الملك السعيد الأجل الكبير العالم العادل ناصر الدين بركة خاقان، أمتع الله الإسلام ببقائه، أقر عيون المجد بنصر لوائه... رأينا أن نفوض إليه حكم كل ما أمعن الله فيه حكمنا من البلاد... وقلدنا أمر الديار المصرية والبلاد الشامية والقلاع والحصون..."[4].

---

(1) المثل السائر، 1/ 180، 185.

(2) السابق، 1/ 185.

(3) السابق، 2/ 65، 66.

(4) السلوك، 1/ 969.

فالناظر لألفاظ الفقرة السابقة بوصفها نموذجاً من الرسائل السياسية يجدها سهلة، اتسمت بالوضوح والسهولة والجزالة والبعد عن التعقيد والغرابة والتوعر.

فاللفظ يسعى بكل جهده لتقديم المعنى المطلوب وإيصاله لذهن القارئ، فهما كالجسم والروح، حيث يقول ابن رشيق: "اللفظ جسم وروحه المعنى، وارتباطه كارتباط الروح بالجسم، يضعف بضعفه ويقوى بقوته"[(1)].

ولم تقتصر جزالة الألفاظ على الرسائل السياسية، بل اشتملت جميع الرسائل، فمن الرسائل الاجتماعية رسائل المدح:

"الحمد لله الذي جعل الفتح محط رحال القرائح الجائدة ومستقر نواها... نحمده على أن خص المملكة المصرية من إيداع سرها المصون بأوسع صدر رحيب وأنهض بتدبير مصالحها... وبعد فإن رياسة أهل الدول تتفاوت باعتبار قرب الرئيس من ملكه في مخاطبته ومناجاته، واعتماد تصرفه في أمور دولته وتنفيذ مهماته... هذا وهو الواسطة بين الملك ورعيته"[(2)]، فقارئ تلك الرسالة يرى ميل كتاب العصر المملوكي لاستخدام الألفاظ الرقيقة الناعمة العذبة في الرسائل الاجتماعية، نتيجة لقدرتهم اللغوية الفذة.

كما أن تلك الجزالة والوضوح والمتانة والسهولة والبعد عن الوحشي والمتوعر كانت سمة من سمات الرسائل العلمية أيضاً، ومن ذلك:

".... أجزتُ لك أن تروي عني ما يجوز لي روايته من مسموع ومأثور ومنظوم ومنثور، إجازةً ومناولةً وتصنيفاً ...فأما مولدي فبمصر المحروسة سنة ست وثمانٍ وستمائة، بمنزلنا بزقاق القناديل، وأما شيوخ الحديث الذين رويت عنهم سماعاً وحضوراً فمن أقدمهم الشيخ شهاب الدين أبو الهيجا"[(3)].

وباستعراض النماذج لا يجد القارئ أي صعوبة في قراءتها وفهم معناها.

---

(1) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده: ابن رشيق القيرواني. جزء 1، تقديم صلاح الهواري وهدى عودة، مكتبة الهلال، ط 1، 1996، بيروت لبنان، 217

(2) صبح الأعشى، 14/ 191.

(3) تمام المتون، 8.

وهكذا اهتم كُتّاب الرسائل بالألفاظ اهتماماً كبيراً وأعطوا كل رسالة بنوعها ألفاظاً تميزها عن الأنواع الأخرى ؛ ففي الرسائل السياسية إذا كانت رسالة فتح أو انتصار على عدو يُرسل ألفاظاً يبشر شعب الملك أو الأمير بذلك الانتصار، ويستخدم ألفاظاً تظهر التهكم والسخرية من العدو وإظهار القوة والنصر الذي حققه هو وجيشه.

ومن ذلك "إخراب العمائر، كنس الجزائر، تُملكت الحرائر، تنظر نظر المغشي عليه من الموت، فتحناها، خيالتك صرعى تحت سنابك العدو – تقول يا ليتني كنت تراباً، أقفرت"[1].

أما الرسائل الاجتماعية فتتميز ألفاظها بالسهولة والوضوح والرقة والجمال مع جزالة تخدم موضوع الرسالة. ومن ذلك رسالة المدح تدبج بألفاظ رقيقة عذبة ناعمة تنم عن المدح. ومن ذلك "نحمده على أن خص المملكة من إيداع سرها المصون بأوسع صدر رحيب، لا وهو الواسطة بين الملك ورعيته، فإن تكلم أتى من بيانه بالسحر الحلال"[2].

كما تتسم ألفاظ الرسائل العلمية بالوضوح والجزالة والدقة والسهولة والبعد عن الغموض، ومن ذلك "الحمد لله الذي رفع العلماء مقداراً، ...منزلة علم الشريعة عند الله أعلى المنازل، ...شب ونشأ في طلب العلم والفضيلة، اشتغل بالعلم اشتغالاً يُرضي، ...أذن وأجاز لفلان المسمى أن يدرس مذهب الأمام الشافعي"[3].

---

(1) ينظر السلوك، 1/ 966.

(2) صبح الأعشى، 191/14.

(3) السابق، 323/14.

ثانياً التناص:

إن كُتّاب العصر المملوكي أظهروا براعتهم في الكتابة، ودبجوا رسائلهم بألفاظ أنيقة تبرز المعنى، واستشهدوا بآيات قرآنية أو أبيات شعر أو حديث شريف أو أمثال عربية في كتاباتهم وهذه الظاهرة كانت قديمة في الأدب العربي، فلطالما تأثر اللاحق بالسابق، سواء باللفظ أو المعنى وذلك دليل على انفتاح الأجناس الأدبية ببعضها.

وقد سميت هذه الظاهرة بالتناص فهو "علاقة بين نصين أو أكثر، ووجود آثار نصوص أخرى على النص المتناص أي الذي اشتمل على تلك النصوص، أو هو استحضار نص ما لنص آخر ليدعم النص ويخرجه بشكل جديد ومتكامل"[1].

وستذكر الباحثة بعضاً من مواطن التناص في رسائل العصر المملوكي:

أ- تناص القرآن الكريم:

إن القرآن الكريم عُرِفَ بأنه دستور الحياة الخالد وهو المثل الأعلى للبلاغة والبيان؛ فهو مُعْجِزٌ في لفظه، ومتعبد بتلاوته وهو الملاذ الذي يرجع إليه المسلمون.

وربما كان استشهاد الكُتّاب في هذا العصر بآياتٍ من القرآن كونها نوعاً من العبادة، فهو المثل الأعلى مما أعطى الرسائل نوعاً من البقاء والخلود.

وستذكر الباحثة بعضاً من مواطن التناص بالقرآن الكريم على سبيل الذكر لا الحصر.

ففي رسالة السلطان الظاهر بيبرس إلى بوهمند السادس يعلمه فيها بفتح انطاكية والسيطرة عليها، وقد كتبها محيي الدين عبد الظاهر وقد وصف فيها كيف أن الظاهر بيبرس وجنوده قد سيطروا على المكان وفتحوا أنطاكية واستولوا عليها، وقد وصف ما قد حل بأعدائه من خراب وتدمير وهدم وقتل، وقد كان بوهمند ينظر إلى ما حل به هو وجنوده كنظر المغشي عليه من الموت وقد تمنى أن يكون تراباً، أو لو لم يسمع بهذا الكلام ومن تلك الرسالة.

---

(1) ينظر: نظرية علم النص: حسام أحمد فرج، تقديم سليمان العطار، محمود حجازي، مكتبة الآداب القاهرة، ط1، 2007م، 194.

"... وكيف قُتلت الرجال واستُخدمت الأولاد وتُملكت الحرائر...هذا وأنت تنظر نظر المغشي عليه من الموت، ولو شاهدت النيران وهي في قصورك تخترق والقتلى بنار الدنيا قبل الآخرة تحترق... لكنت تقول يا ليتني كنت تراباً و يا ليتني لم أوت بهذا الخبر كتاباً."[1].

فالتناص بالقرآن الكريم واضح وجلي حيث وظف الكاتب الآية"... رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشي عليه من الموت"[2].

والآية"... يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر يا ليتني كنت تراباً"[3].

ليصور حالة أمير الصليبيين عندما سيطر الظاهر بيبرس عليه وعلى جنوده واستولى على أنطاكية وانتصر عليه، فقد أكدت الآية الكريمة في موقعها هذا ،على قدرة الملك الظاهر بيبرس في هزيمة أعدائه وإلحاق أكبر الخسائر بهم وعدم قدرة أعدائه على عمل أي شيء.

ورسالة أخرى كانت من العهود، فهو عهد الملك الناصر محمد بن قلاوون ليتولى الخلافة، كتبه شمس الدين القيسراني، ويُستشف منها قوة حكم المماليك، فقد فُوض براً وبحراً وشاماً ومصراً، وقد حض الكاتب على جمع شمل الشعب تحت حكمه والسير تحت راية رجل واحد، والاقتداء بالرسول _صلى الله عليه وسلم_ في حكمه[4].

فالتناص هنا واضح جلي فاستشهد في رسالته بقوله تعالى: "إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله، يد الله فوق أيديهم، فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً"[5].

فهي دعوة لكي يبايعوا السلطان على السمع والطاعة. وستكون رعاية الله فوقهم وترعاهم، وفيها دعوة ليأتمروا بأمر الملك الناصر، وتزداد دولتهم قوة فوق قوتها.

رسالة تقليد كتبها ابن حجة الحموي لتقليد الإمام محمد الرازي وظيفة النظر في دواوين الإنشاء قال فيها:

---

(1) السلوك، 1/ 966.
(2) محمد، آية 20.
(3) النبأ، آية 40.
(4) صبح الأعشى، 10/ 59.
(5) الفتح، آية 100.

"الحمد لله الذي أزال بالشمس المحمدية عنا كل ظلمة، وأزاح غمة كل إشكال، وما ترك أمرنا علينا غمة، وأعزّ الإسلام بمحمد وصحابته فتَخول المسلمون في جزيل هذه النعمة، وصيّر أفق ملكنا الشريف مطلعاً لشمس العلوم ومستقراً لمحلها العظيم "والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم"[1]... نحمده على أن أطلع في أفق ملكنا الشريف شمساً في سعد سعودها زاهرة"[2].

التناص واضح في تلك الرسالة فحمد الله على أن أرسل محمداً وأزال به ظلمة الكفر وتولى أمر المسلمين وأنار حياتهم بتعاليم الإسلام، وحمد الله الكاتب مرة أخرى على أن أطلع شمس الإمام محمد الرازي ليتولى وظيفة النظر في دواوين الإنشاء، فالتناص كان لأنه شبهه بالشمس فهو غني عن التعريف كالشمس، ومشهور كشهرتها في كبد السماء.

ورسالة تعزية كتبها شهاب الدين محمود من بعض النواب إلى الأمير عز الدين الحموي بوفاة ولده، فقد أرسل الرسالة وأظهر الحزن والأسى على فقد ذلك الولد ودعا له ليتغمده الله برحمته، ثم انتقل لرثاء الميت ومدحه، فقال: "... فقد كان للمواكب بطلوع طلعته أي إشراق، وللعيون عن مشاهدة كماله وأبهة جلاله؛ أي إغضاء وأي إطراق. ولله أي بدر هوى من أفق بروجه عن ذلك وأي شمس ما رأته الجواري الكنس إلا قلن: حاش لله ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك"[3] فيظهر هنا التناص بشكل واضح فمدح الميت ووصفه بأجمل الأوصاف حتى كانت أوصافه قريبة من أوصاف سيدنا يوسف –عليه السلام–، فقد قلن النساء من شدة جماله "وقلن حاش لله ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم"[4].

وهكذا شُبه ابن عز الدين الحموي بسيدنا يوسف عليه السلام فقد اختار أجمل الأنبياء ليشبه الميت به ومدحه بذلك مدحاً يليق به.

ورسالة أخرى –توقيع– كتبها ابن حجة الحموي لقاضي القضاة ناصر الدين محمد بن العديم، ليعود لوظيفة قاضي قضاة الحنفية بالديار المصرية، فأراد الكاتب ابن حجة الحموي خلال التوقيع أن يمدح ويذكر مناقب القاضي ناصر الدين محمد بن العديم فقال:

---

(1) ياسين، آية 36.
(2) قهوة الإنشاء، 418.
(3) نهاية الأرب، 177/5.
(4) يوسف، آية 31.

"ولما كان الجناب العالي الحاكمي الناصري محمد بن المرحوم كمال الدين بن العديم، أعز الله أحكامه هو الذي أعرب عن جميل هذه الصفات وقامت لدعاوي مجده عدول هذه البينات وحكم له بصحة ذلك حكماً صحيحاً مستوفياً شرائطه، وحَسُن أن يُنظم في عقد ملكنا الشريف لما رأينا الاستحقاق له نعم الواسطة، فإنه نشأ "براً بوالديه ولم يكن جباراً عصياً"[1].

فالتناص جليٌ في هذه الرسالة عندما أراد أن يمدحه بالصفات الحسنة، فقد نشأ باراً بوالديه وكان متواضعاً مطيعاً لربه يستحق وظيفة القاضي بجدارة، وقد شبهه الكاتب بسيدنا يحيى –عليه السلام– الذي كان شفقة ورحمة من الله لأبويه، وكان تقياً مسلماً مطيعاً، وباراً بوالديه لم يعصهما ولم يكن متكبراً عاصياً لربه حيث استشهد بقوله تعالى: "براً بوالديه ولم يكن جباراً عصياً[2]".

ورسالة أخرى هي طلب للصلح وصف فيها الكاتب ما حل بأهل مدينة ماردين من شقاء وهموم بعد النعيم وقتل بعد حياة، وحزن بعد فرح فتقدم ملك التتار محمود غازان إلى الناصر قلاوون يطلب منه الصلح وإيقاف الفساد فقال "...وعاهدنا الله تعالى على ما يرضيه عند بلوغ الأمنية، وعلمنا أن الله تعالى لا يرضى لعباده الكفر بأن يسعوا في الأرض فساداً "والله لا يحب الفساد "وأنه يغضب لهتك الحريم وسبي الأولاد"[3].

فبعد أن تحدث عما يقوم به جنود الناصر قلاوون ضد جنود وشعب محمود غازان ملك التتار، أراد أن يتقدم برسالة طلب للصلح بينه وبين الناصر قلاوون، فأراد أن يحرك إيمان ودوافع الناصر قلاوون الإيمانية فاستشهد بقوله تعالى: "إن الله لا يحب الفساد"[4] ليقبل الصلح رضاً وطاعة لله عز وجل.

ومن خلال تناص القرآن الكريم يظهر الموروث الديني والثقافة الاسلامية الكبيرة الموجودة عند كُتّاب العصر المملوكي، وقد ساعد التناص بالقرآن الكريم على إعطاء دلالات للنصوص المتأثرة به.

---

(1) قهوة الانشاء، 20

(2) مريم، 14

(3) نجوم زاهرة، 111/8

(4) البقرة، 205

ب- تناص الحديث الشريف:

ورد التأثر بالحديث الشريف عند كُتاب الرسائل في هذا العصر، وتناص الحديث الشريف لا يصل لكثرة تناص الآيات القرآنية وذلك ربما يعود لقداسة النص القرآني.

ومن ذلك عهد كتبه شمس الدين القيسراني وهو للناصر محمد بن قلاوون، ليتولى الحكم ، فقد بشره بأن الله سيعينه على هذه المهمة ؛لأنه لم يطلبها بل أعطيت إليه، ومن تلك الرسالة "بشراك أن الله أبرم سبب تأييدك إبراماً لا تصل الأيدي إلا نقضه، وأنك سُئلت عن أمر طالما أتعب غيرك سؤاله في بعضه، وأن الله يحسن لك العون وبك الصون، فقد قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم-: "يا عبد الرحمن بن سُمرة لا تسأل الإمارة فإنك إن أُعطيتها عن مسألة وُكلتَ إليها، وإن أُعطيتها عن غير مسألة أُعنت عليها[1]"[2].

فالتناص واضح بالحديث الشريف السابق الذكر فإنه سيُعان على الإمارة لأنه لم يطلبها.

ورسالة أخرى وهي رسالة عهد الملك المنصور حسام الدين لاجين ، وقد كتبه شهاب الدين محمود فقد عُهد لحسام لاجين الأمانة ومصالح الناس، ودعاه للاحتكام للشرع والدين ولتشغيل مصالح الإسلام والمسلمين، حيث قال"...وتفويض الحكم إلى كل من يتعن لذلك من أئمة الأمة، وإقامة الشرع الشريف على قواعده الأربعة فإن اتفاق العلماء حجة، واختلافهم رحمة وفي مصالح الحرمين الشريفين وثالثها الذي تشد الرحال أيضاً إليه"[3].

إن التناص بالحديث الشريف واضح وجلي في الرسالة السابقة فدعاه للاهتمام بمصالح المسلمين وإقامة الشرع والاهتمام بمصالح الحرمين الشريفين وثالثهما امتثالاً للحديث الشريف: "لا تشد الرحال إلى إلا ثلاثة مساجد: المسجد الحرام ومسجد الرسول والمسجد الأقصى"[4].

ورسالة عهد كتبها محي الدين عبد الظاهر للسلطان قلاوون، هي وغيرها غالباً، ما يبدؤها الكاتب بمقدمة تتضمن الشهادتين ليتلذذ بذكرها اللسان، وتتعطر بنفحاتها الأفواه وتتلقاها ملائكة القبول

---

(1) صحيح البخاري: أبو عبد الله محمد البخاري، تحقيق محمد بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، ط 1، 1422 هـ، بيروت، لبنان، 8/ 127، رقمه (6622).

(2) صبح الأعشى، 10/ 59.

(3) السابق، 10/ 53.

(4) صحيح البخاري، 1/ 60، رقمه 1189

حيث يقول "نشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة يتلذذ لذكرها اللسان وتتعطر بنفحاتها الأفواه والأردان وتتلقاها ملائكة القبول فترفعها إلى أعلى مكان." [1]

فالتناص واضح مع الحديث حيث قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: "من قال أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله... أدخله الله من أي أبواب الجنة الثمانية شاء"[2].

الذي يدعو فيه لذكر الشهادتين ووُجد أن أغلب الرسائل في العصر المملوكي تبدأ بمقدمة تدبج بالشهادتين والصلاة على الرسول الكريم.

وفي كثير من رسائل التقاليد والعهود والتواقيع ما تُختم بالوصايا، وكثيراً منها ما يختم بوصية التقوى، ومن ذلك مثلاً تقليد كُتب للقاضي شهاب الدين بن فضل الله العمري ليتولى كتابة السر، وقد اشتمل التقليد على عناصره من مقدمة وموضوع، ثم خاتمة فكانت الخاتمة هنا مدمجة بوصايا وخيرها التقوى لأنها الباقية الصالحة.

حيث قال: "ونحن نختصر له الوصايا لأنه الذي يمليها، ونقتصر منها على التقوى فإنها الذخيرة النافعة لمن يعانيها، والباقية الصالحة خير لمن يقتفيها"[3].

ويظهر التناص بالدعوة لتقوى الله عز وجل مع الحديث الشريف الذي يدعو فيه لتقوى الله، حيث قال– صلى الله عليه وسلم–: "إن أكثر ما يُدخل الناس النار الأجوفان" قالوا يا رسول الله، وما الأجوفان؟ قال الفرج والفم، قال "أتدرون أكثر ما يدخل الجنة؟ تقوى الله وحسن الخلق"[4].

ورسالة أخرى تقليد للأمير سيف الدين سلار المنصوري لنيابة السلطة الشريفة كتبه علاء الدين بن عبد الظاهر. بدأها بمقدمة... ويشهد لله بالوحدانية، ولنبيه بالرسالة ويصلي على رسوله الكريم وعلى صحبه، ومن ذلك: "نشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة مشرقة الأنوار...ر ونشهد أن محمداً عبده ورسوله الذي بعثه الله لإقامة شعائر الإيمان وخص ملته في الدنيا والآخرة

---

(1) النجوم الزاهرة، 338/7

(2) مسند الشاميين: الحافظ أبو القاسم سليم الطبراني، تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي، مؤسسة الرسالة، ط1، 1989، بيروت لبنان، 316، رقمه(555)

(3) صبح الأعشى، 11/ 303

(4) مسند احمد بن حنبل، 15/ 435، رقمه9696

باليمن والأمان، – صلى الله عليه وعلى آله وصحبه– والذين منهم من أضحى بفضل السيف للإيمان به صديقه وصدّيقه، وأمسى لفرط الألفة أنيسه في الغار ورفيقه"[1].

فالتناص بالحديث يظهر في آخر المقدمة حيث صلى على محمد وآله وصحبه وخص من صحبه الذي آزره، وكان صديقه وصديقه وأنيسه بالغار.

حيث ورد في صحيح البخاري عن أبي بكر_ رضي الله عنه_ قال قلت للنبي صلى الله عليه وسلم وأنا في الغار لو أن أحدهم نظر تحت قدميه لأبصرنا فقال ما ظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثها"[2].

وهكذا فإن الكُتّاب عمدوا لتوظيف التناص بالحديث الشريف لتدعيم نصوصهم وإظهار الموروث الديني الموجود لديهم. وإظهار للثقافة الإسلامية التي اتصف بها كتاب العصر المملوكي .

ج– تناص الشعر

لقد اعتاد الكتاب على تضمين نثرهم شيئاً من الأشعار ولم تكن هذه الظاهرة وليدة العصر المملوكي فقط، بل كانت موجودة في العصور التي سبقته.

وقد أكثر الكتاب في العصر المملوكي من تناص الشعر، وعدوه إجادة من الكاتب لصنعته، وقد ذكر القلقشندي أنماطاً من التأثر بالشعر فقال: "بل ربما كانت المكاتبة أو جُلها شعراً وقد يكون صدر المكاتبة شعراً وذيلها نثراً وبالعكس، وقد يكون طرفها نثراً وأوسطها شعراً أو عكس ذلك بحسب ما يقتضيه الترتيب ويسوق إليه التركيب"[3].

ولا غرابة في التأثر بالشعر و التناص به فالعرب أهل الشعر :

الشعر ديوان العرب   أبداً وعنوان النسب[4]

ومن تناص الشعر في الرسائل المملوكية رسالة علمية كتبها جمال الدين ابن نباته لصلاح الدين الصفدي، وقد أجاز له أن يروي عنه كتبه بشتى الأنواع كانت نثراً أم شعراً، ثم ذكر بعض شيوخ

(1) نهاية الأرب، 136/8

(2) صحيح البخاري، 4/5 رقمه(3653)

(3) صبح الأعشى، 1/ 323.

(4) ديوان أبي فراس الحَمْدَاني: شرح خليل الدويهي، دار الكتاب، ط4، بيروت، 1999م، 28.

الحديث الذين روى عنهم، والأدباء الذين أخذ منهم ومن تلك الرسالة: "... وأما الفضلاء والأدباء الذين رويت عنهم، منهم القاضي الفاضل محي الدين محمد عبد الله بن رشيد عبد الظاهر بن نشوان الكاتب المصري... والأمير الفاضل شمس الدين أبو عبد الله محمد بن الصاحب شرف الدين إسماعيل بن المتنبي اقترح علي أن أنظم له في زيادة النيل فقلت:

زادت أصـــــــــابع نيلنــــــــــــا وطمـــــــــت فأكمــــــــدت الأعــــــادي

وأتــــــــــت بكــــــــل جميلــــــــة مـــــــا ذي أصــــــابع ذي أيـــــادي[1][2]

فهنا لربما قصد بالنيل الذي زاد هو زيادة وكثرة العلماء والأدباء الذين نهل منهم وتربى على أيديهم وقصد بعبارة ما ذي أصابع يعني: أنهم لم يكونوا علماء وأدباء، عاديين بل كانوا أشهر العلماء وأقدر الأدباء فلم يكونوا أصابع بل كانوا أيادي ذوي قدر وأهمية ، و التناص ظاهر في تلك الرسالة من خلال استشهاد ابن نباته بأبيات شعر من ديوانه.

ونموذج تناص آخر عهد من المنصور قلاوون لابنه صلاح الدين خليل، وقد كتبه محي الدين عبد الظاهر، وبعد مقدمة الرسالة قد بدأ يمدح ابنه صلاح الدين خليل فقال: "فأطلعنا في أفق السلطنة كوكباً سعيداً كان لحسن الاستخلاف معداً، ومن لقبيل المسلمين خير ثواباً وخير مرداً، ومن يبشر الله به من الأولياء المتقين، وينذر من الأعداء قوماً لُدا، ولم يبق إلا به أنسنا بعد ذهاب الذين تحسبهم "كالسيف فرداً" والذي ما أمضى حده ضريبة إلا "قد البيض والأبدان قداً""[3].

والتناص بالشعر ظاهر وجلي في الرسالة السابقة، فقد استشهد الكاتب بالشعر في موضعين: الأول كالسيف فرداً والثاني قد البيض والأبدان قداً[4].

متأثراً بالشاعر عمرو بن معد يكرب وأراد في هذا التناص في هذه الرسالة أن يمدح صلاح الدين مدحاً يليق به فقال عنه: أنه كان كالسيف اعتقد الأعداء أنه وحيدٌ فردٌ لا معين له ولا مساعد، إلا أنه قد قدّ أبدان الأعداء وانتصر عليهم.

---

(1) الديوان: ابن نباته المصري: شركة علاء الدين بيروت، 163.

(2) المنهل الصافي، 5/ 246

(3) النجوم الزاهرة، 7/ 341.

(4) الديوان، عمرو بن معدي يكرب الزبيدي، جمعه، مطاع الطرابيشي، مطبوعات مجمع اللغة العربية، ط 2، 1985 دمشق،80، 82.

وتناص شعر آخر تقليد كتبه ابن حجة الحموي لتقليد الإمام محمد الرازي الشافعي، وظيفة النظر في دواوين الإنشاء بالممالك المصرية، فبعد أن فوضه وأعطاه تلك المهمة انتقل إلى مدحه بأبيات من الشعر فقال:

"أهذه سير في المجد أم سور وهذه أنجم في السعد أم غرر

وأنت في الأرض أم فوق السماء وفي يمينك البحر أم في وجهك القمر

يقبل البدر ترباً أنت واطئه فللتراب عليه ذلك الأثر"[1][2]

فالإمام محمد الرازي كان أقدر الناس على تدبير أمور الدولة بما يجمعه من علم وعمل فمدحه بتلك الأبيات، فقارئ تلك الأبيات يتعرّف المكانة التي حظي بها محمد الرازي.

والتناص ظاهر هنا عندما استشهد ابن حجة الحموي بأبيات من شعر القاضي الفاضل ليمدحه.

وفي نهاية الرسالة السابقة تحدث ابن حجة عن الوصايا فقال إنها كثيرة ولكن النور لا يهدى للشمس وقال:

خذ ما تراه ودع شيئاً سمعت به في طلعة الشمس ما يغنيك عن زحل[3][4]

والتناص ظاهر في استشهاد ابن حجة الحموي ببيت شعر قاله المتنبي. ودعاه إلى أن يأخذ من الأمور والكلام والأحداث ما يراه، ويترك ما سمع به واعتبر أن ما يراه الإمام بعينه كأنه الشمس وما يسمعه هو زحل، فيدعوه ليتأكد بنفسه من الأمور ولا يدع مجالاً للشك والارتياب فيما يقال ويتناقله الناس خصوصاً في كثرة الإشاعات بين الناس.

ورسالة أخرى – توقيع – كتبها ابن حجة الحموي للعلامة الشيخ برهان الدين إبراهيم – السكندري برياسة الطب بالديار المصرية المحروسة.

---

(1) خزانة الأدب، 1/ 277.

(2) قهوة الإنشاء، 417

(3) الديوان: المتنبي، دار بيروت، لبنان، 1983، 338.

(4) قهوة الإنشاء، 417.

فختم الرسالة بحديث عن الوصايا فقال: "فليباشر ذلك على ما عهد من مبادئ أدواته التي هي غاية المنتهي، والوصايا كثيرة فأرسل حكيماً ولا توصه، والله تعالى يحفظه حفظ الصحة للأبدان"[1]. فمدح الشيخ برهان الدين عندما وصفه بالحكيم ولم يقدم له الوصايا، فهو من يؤخذ منه الوصايا.

والتناص بالشعر ظاهر عندما استشهد بشطر من بيت شعر لطرفة بن العبد حيث يقول في ديوانه:

إذا كنـــت فـــي حاجـــة مرســـلا فأرســـــل حكيمـــــاً ولا توصـــــه[2]

فقد كان العلامة برهان الدين من الحكماء وليس بحاجة للتوجيه . ورسالة أخرى كتبها القلقشندي في مدح المقر الكريم الفتحي، أبو المعالي فتح الله، ومن تلك الرسالة: "نحمده على أن خص المملكة المصرية من إيداع سرها المصون بأوسع صدر رحب، وأنهض بتدبير مصالحها من إذا سرت كتائب كتبه إلى عدو أنشد من شدةِ الفرق: قفا نبك من ذكرى حبيب"[3]

والتناص واضح جلي من خلال استشهاد القلقشندي بقول امرؤ القيس:

قفـا نبـك مـن ذكـرى حبيـب ومنـزل بسـقط اللـوى بـين الـدخول فحومـل[4]

فقد حمد الكاتب الله عز وجل على جعل أمر المملكة المصرية بين يدي أبي المعالي فتح الله، فهو أقدر الناس على تدبير مصالحها، ولو وصلت كتبه لأعدائه لأنشد قول امرئ القيس: قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل ، فقد أراد أن يبكي أسفاً وحزناً وحسرة على النصر والقوة والملك الذي حققه وهم ينظرون إليه.

ومن خلال تناص الشعر واستخدامه في رسائلهم كان كنوع من تأكيد الفكرة والهدف المراد فالعرب أهل الشعر ويهتمون به منذ العصر الجاهلي وسار كتاب العصر المملوكي على نهج السابقون وفتح العصور بعضها على بعض ، حيث لوحظ توظيف أبيات شعر من كافة العصور السابقة للمملوكي .

---

(1) قهوة الإنشاء ، 37.

(2) الديوان: طرفة بن العبد، تحقيق مهدي ناصر الدين، دار الكتب العلمية، ط 3، 2002م، 1/ 51.

(3) صبح الأعشى، 14/ 192.

(4) الديوان: امرؤ القيس: دار الأرقم، بيروت لبنان، 91.

د- تناص الأمثال

إن الأمثال العربية لها حظ في الرسائل المملوكية، وقد اهتم الكتاب بتضمينها في رسائلهم لما له من أثر بالغ على رسائلهم، حيث إن: "المثل مقرون بالحجة"[1] ويجعل النص حاضراً بقوة.

والمثل يقود المعاني ويسوقها للكاتب، حيث يقول القلقشندي:

"إذ أكثر صاحب هذه الصناعة من حفظ الأمثال الشائع استعمالها، انقادت إليه معانيها، وسيقت إليه ألفاظها في وقت الاحتياج إلى نظائرها من الوقائع والأحوال فأودعها في مكانها واستشهد بها في مواضعها"[2].

ومن تلك الرسائل التي ذكر فيها بعض الأمثال، تقليد كتبه ابن حجة الحموي ليتولى الإمام الرازي الشافعي مهمة النظر في دواوين الإنشاء بالممالك الشريفة، فبدأ الرسالة بمقدمة، ثم موضوع، ثم ختمها بوصايا لتساعده في عمله فقال:

"والوصايا كثيرة ولكن لا يهدى التمر إلى هجر، ولا يهدى النور إلى الشمس ولا القمر"[3].

فالكاتب قد مدح الإمام الرازي ورأى أن الوصايا كثيرة ولكن لا تقدم له لكثرة علمه ودينه، فقد كان شمساً ينير الكون ولا يحتاج إلى وصايا والمثل السابق مثل قديم وأصله "مستبضع التمر إلى هجر" وقد كانت هجر بلدة كثيرة النخل يُحمل منها التمر إلى غيرها[4].

وهكذا كان الإمام الرازي تؤخذ منه الوصايا والنصائح لغيره من العلماء والأمراء.

ومن ذلك أيضاً: "إن كنتم تريدون الصلح والصلاح وبواطنكم كظواهركم متتابعة في الصلاح فيُرسَل إلينا من خواص دولتك رجل... إذا فصل حكماً انتهيتم إليه... لنتكلم معه في ما فيه الصلاح لذات البين وإن لم يكن كذلك عاد بخفي حنين"[5]، وهذه الفقرة من رسالة رَدْ على رسالة صلح أرسلها

---

(1) معجم البلاغة العربية: بدوي طبانة، دار المنارة، ط 3، جدة، 1988م، 816/2.

(2) صبح الأعشى، 1/ 631.

(3) قهوة الإنشاء، 417.

(4) نثر الدرر، أبو سعد منصور الآبي، تحقيق خالد محفوظ، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، لبنان، 2004، ، ط1، 166/6.

(5) النجوم الزاهرة، 8 /113 .

الناصر قلاوون لمحمود غازان، في هذه الفقرة طلب قلاوون رجلاً حكيماً ليتحدث معه، وطلب أن يكون رجلاً حكيماً ليفصل معه موضوع الصلح، وحذرهم بضرورة أن يكون حكيماً وإن لم يكن كذلك فسوف يعود صفر اليدين، و التناص ظاهر بالمثل" عاد بخفي حنين"[1] ومن ثم سيخسرون الصلح أيضاً.

ومع ذلك: "ويكفيها أن من بعض أوصافها أنها شامة الله في أرضه، وأن بركة الله حاصلة... ومنها إذا أهبط إليها آمل كان له ما سأل، إذ أصبحت دار إسلام بجنود تسبق سيوفهم العذل، وقد عمر العدل أوطانها"[2] وهذه الفقرة من رسالة أمان من المنصور قلاوون للتجار وفيها يصف الدولة الزاهرة وجنودها. فقد كانت الدولة شامة الله في أرضه، وبركة للمحسنين وجنودها أشداء أقوياء تسبق سيوفهم العذل[3] ويضرب هذا المثل لنفاذ الأمر وانتهائه، وعدم فائدة المراجعة فيه، كما لا ينفع معه الندم، وهكذا قد كان جنوده ينشرون العدل أيضاً في كل مكان.

وأيضاً "من سل سيف البغي قتل به ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله فيرسل إلينا من خواص دولتك رجل يكون منكم، ممن إذا قطع بأمر وقفتم عنده".[4]

هذه الفقرة من رسالة رد فيها الناصر قلاوون على رسالة محمود غازان التي طلب فيها الصلح، وهنا يحذره من إظهار الرغبة في الصلح وإخفاء المكر والخديعة ويحذره من الظلم فعواقبه وخيمة

ومن أشهر سيف البغي وأراده قتل به وهكذا فإن عبارة: "من سل سيف البغي قتل به".[5] أصبحت مثلاً يتردد على الألسنة للتحذير من الظلم، فمن نهج هذا الطريق سيقتل به.

إن المثل له وقع مميز في أذهان البشر ويحفظ ويكرر في مواقف مشابهة ،ويساعد على الاهتمام بالرسائل ،وجذب انتباه المستمعين.

---

(1) الأمثال، أبو الخير الهاشمي، دار سعد الدين، ط1، ، دمشق 1423هـ، 139.وأيضاً: نثر الدرر، 159/6

(2) صبح الأعشى،340/13.

(3) مجمع الأمثال، أبو الفضل الميداني، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، دار المعرفة، بيروت، لبنان،197/1 وأيضاً: جهرة الأمثال: أبو هلال العسكري، تحقيق محمد إبراهيم وعبد المجيد قطامش، دار الفكر، د. ط، 1988، بيروت، 1/ 377.وأيضاً: نثر الدرر، 6/ 152

(4) النجوم الزاهرة، 113/8.

(5) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء: أبي نعيم الأصفهاني، دار الكتاب العربي ط 4، 1985، بيروت ،لبنان، 3/ 195. وأيضاً نثر الدرر ،165/4

ثالثاً: الجمل الدُعائية:

أكثر كتاب الرسائل من استخدم الجمل الدُعائية في رسائلهم بصورة عامة، واستخدمت في الرسائل على اختلاف موضوعاتها وأغراضها.

فإن هذه الجمل من شأنها أن تفيد التعظيم والتوقير، فهي تدعو أن يؤيد الله الأمير بالنصر، والعزة والتأييد، ويضاعف الله نعمه على الأمير أو السلطان، ويُسمعه كل آيات الهناء، وتستمر البشائر بالوصول للأمير، ويعز الله سلطانه، ويديم الله أيامه وعمره.

وتبدو هذه الظاهرة جلية في معظم أنواع الرسائل. ومن أمثلة ذلك "ضاعف الله نعمة الجناب، وسر نفسه بأنفس بشرى، وأسمعه من الهناء كل آية أكبر من الأخرى، وأقدم عليه المسار ما يتحرز ناقله ويتحرى... والله يديم الجناب العالي لقص الأنباء الحسنة عليه، ويمتعه بجلاء عرائس التهاني والأفراح لديه"[1].

ومن ذلك أيضاً "ضاعف الله تعالى نعمة الجناب... أعز الله أنصاره... والله تعالى يجعل حلل مسراته في أيامنا الشريفة"[2].

ومن ذلك أيضاً "أعز الله تعالى أنصار الجناب العالي... والله تعالى يطلق ألسنة الأقلام بتهانيه ويملأ بطون الدفاتر وكما أحسن براعته في الأول يحسن ختامه في الآخر"[3].

وأيضاً "زادهما الله تعالى تأييداً... أدام الله تعالى علاه[4].

ومن ذلك "أطال الله في زيادته فتردد في الآثار، وعمته البركة فأجرى سواقي ملكه إلى أن غدت جنة تجري من تحتها الأنهار... والله تعالى يوصل بشائرنا الشريفة بسمعه الكريم ليصير بهما في كل وقت منشفاً"[5].

---

(1) حسن المحاضرة ،2/ 369.

(2) قهوة الإنشاء، 274.

(3) السابق، 79.

(4) السابق، 278.

(5) ثمرات الأوراق، 230.

ومن ذلك أيضاً "أعز الله من الوصف بما قل عنه مكاني.. أجزت لك أعزك الله، والله يشكر عهدك الجميل وكلماتك الجزلة وكرمك الجزيل، ويمتع فنون الفضائل المليحة إلى ظل قلمك الظليل ولا يعدم الأحباب والآداب من اسمك[1].

ومن ذلك أيضاً "رزقه الله تعالى ثباتاً على رزيته وصبراً وجعل له مع كل عسراً يسراً، وأبقاه، مفدى بالأنفس والنفائس... أعظم الله أجر مولانا ومنحه صبراً جميلاً وأجراً جزيلاً... أعظم الله أجره وأطال عمره وشرح صدره وأجزل صبره وسخر له دهره"[2]. فلقد كانت الجمل الدُعائية مستخدمة في معظم الرسائل.

وقد لوحظ على الجمل الدُعائية أنها كانت تستخدم في بداية الرسالة ونهايتها، ويظن ذلك أنه من أسباب الإطناب.

رابعاً: الإيجاز والإطناب:

لم تكن نصوص أدب الرسائل تسير في اتجاه واحد من حيث الإيجاز والإطناب، فهي تطول وتقصر حسب موضوع الرسالة، فالإيجاز قصور البلاغة عن الحقيقة. والإطناب البيان، والبيان لا يكون إلا بالإشباع والإقناع[3].

والإيجاز وضع المعاني الكثيرة في ألفاظ أقل منها وافية بالغرض المقصود مع الإبانة والإفصاح، والإطناب زيادة اللفظ على المعنى لفائدة تقويته وتوكيده[4].

إن الإطناب سمة تظهر في معظم موضوعات الرسائل في العصر المملوكي؛ ومرد ذلك أن هذه السمة تتيح لمنشئ الرسالة أن يظهر مهاراته الفنية وثروته الفكرية والثقافية فيكثر من عرض موضوع رسالته.

والإطناب يقوم على بسط المعاني وتكرارها بعبارات متعددة تهدف لتأكيد الفكرة وتوضيحها.

---

(1) تمام المتون، 249.

(2) صبح الأعشى، 9/ 83.

(3) الصناعتين،193.

(4) ينظر: جواهر البلاغة: أحمد الهامشي: دار إحياء التراث، ط12، لبنان بيروت: 222، 226 وأيضاً: ينظر: الإيضاح في علوم البلاغة: جلال الدين القزويني، تعليق محمد خفاجي، دار الكتاب، ط4، بيروت، لبنان1975، 287/2.

ومن الرسائل التي تغلب عليها سمة الإطناب رسالة تقليد شهاب الدين بن فضل الله كتابة السر ومنها: "ولم نظفر بمن تمّت فيه الشروط المشروطة، وامتاز بفهم لا يُقْبِل على الفساد، ولا يَقْبَل الأغلوطة، إن أمليناه إملاءً ذكره، وإن حُمنا حول معنى لا تُؤدي إليه العبارة فسّره، ... وإن أودعناه سراً ستره، وكتمه إما بخطه عن قلبه فلم يدركه، أو بقلبه عن لحظه فلم يَرَه"(1).

فالإطناب ظاهر في الرسالة من خلال عبارات المدح التي قيلت له.

وكثر الإطناب أيضاً في مقدمة الرسائل التي يحمد الله عز وجل فيها على نعمه وآلائه، و يعددها ثم يشهد له بالوحدانية ولمحمد –صلى الله عليه وسلم– بالنبوة ويعدد صفات الرسول.

ومن ذلك "الحمد لله الذي وسع كل شيء رحمةً وعلماً، وسمع نداء كل حي رأفة وحلماً، وخص أيامنا الزاهرة بالإحسان... نحمده على نعمه التي غمرت رعايانا بإدامة الإحسان إليهم، وعمرت ممالكنا بما تتعاهد به أهلها من نشر جناح الرأفة عليهم... ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة لم تزل تشفع لأهلها العدل بالإحسان وتشهد أن محمداً عبده ورسوله الذي جلا الغمة، وهدى الأمة، وسن الرأفة على خلق الله والرحمة... صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين أمروا بالتيسير..."(2).

ومن أسباب الإطناب كثرة التناص مع الشعر، حيث يذكره الكاتب ليمدح المرسل إليه من خلال تلك الأبيات. ومن ذلك فبعد أن قدم له التقليد بدأ يمدحه ومن تلك الرسالة "أن نفوض للجناب الكريم المشار إليه وظيفة النظر في دواوين الإنشاء الشريف بالممالك الاسلامية المحروسة... وقد تعين عليك أن تخاطب هذا الامام بقولك في شعرك:

أهـذه سـير فـي المجـد أم سـور ... وهـذه أنجـم فـي السـعد أم غـرر

وأنـت فـي الأرض أم فـوق السـماء وفـي ... يمينـك البحـر أم فـي وجهـك القمـر

يُقبِّـل البـدر تربـاً أنـت واطئـه ... فللتـراب عليـه ذلـك أثـر(3)

فاستخدام الشعر في رسالته يدعم الفكرة والرأي المراد إيصاله.

(1) صبح الأعشى، 11/ 300.

(2) السابق، 13/ 28.

(3) قهوة الإنشاء، 417.

كما يظهر الإطناب أيضاً في الرسائل السياسية التي تكتب لإظهار الانتصار والقوة التي حققها وإعلام العدو بالهزيمة مع السخرية منه ومن ذلك:

"فلو رأيت خيالتك وهم صرعى تحت أرجل الخيول، وديارك والنهابة فيها تصول، والكسّابة فيها تجول، وأموالك وهي توزن بالقنطار... ولو رأيت كنائسك وصلبانها قد كسرت ونشرت وصحفها من الأناجيل المزورة قد نثرت وقبور البطارقة قد بعثرت..."[1].

ففي هذه الرسالة يظهر الإطناب من خلال الحديث عما أصاب جنود بوهمند وما حل بهم وبأموالهم وكنائسهم فأراد أن يظهر قوته وقوة جنوده وهزيمة عدوه مع تهكم وسخرية منه.

ويرى العسكري أن الإطناب يساعد على إفهام الرعية فهو يشترك فيه الجميع، حيث يقول: "الإطناب مشترك وفيه الخاصة والعامة والغبي والفطن ولمعنى ما أطيلت الكتب لإفهام الرعايا"[2].

حيث يساعد الإطناب على إفهام الرعية ووضعها في صورة ما يجري، ومن ذلك هدنة عقدت وتم تحديد المدن والأماكن التي شملتها الهدنة، والناس الذين شملتهم الهدنة ومنها: "استقرت الهدنة المباركة... مدة عشر سنين... على بيروت.. وأماكنها المضافة إليها من حد جبيل إلى حد صيدا، وهي المواضع الآتي ذكرها: والعذب بحدودها، والعصفورية بحدودها، وسن الفيل بحدودها... وجميع ما في هذه الأماكن من الرعايا والتجار، وسائر أصناف الناس أجمعين الصادرين منها والواردين إليها..."[3].

وهذا الإطناب في عرض الأماكن التي شملتها الهدنة لتعلمها الرعية ولا تتعدى بنود تلك الهدنة، ولتستمر على المدة التي حُددت عشر سنين، ولا يقع أي خطأ يخل بها.

وفي رسائل العهود كان كاتب أو مرسل الرسالة يكثر من الوصايا لتكون له ذخراً وذكراً وتساعده في ما يُستجد معه من أمور، ويقوم المرسل بعرض تلك الوصايا وتوضيح كل واحدة ومن ذلك: "وأما الوصايا فأنت يا ولدنا الملك الأشرف – أعزك الله – بها الدرب، ولسماع شدوها وحدوها الطرب، الذي للغو لا يضطرب، فعليك بتقوى الله عز وجل فإنها ملاك سدادك وهلاك

(1) السلوك، 1/ 966.

(2) الصناعتين، 209.

(3) صبح الأعشى، 14/ 40.

أضدادك...والعدل فهو مثمر غروس الأموال، ومعمر بيوت الرجاء والرجال... كثّر لمن حولك التموين والتمويل، وضاعف الخير في كل مضاف لمقامك..."[1].

فالإطناب ظاهر من خلال عرض الوصايا وتوضيحها.

ويظهر الإطناب أيضاً عند خطاب الشعب في أوقات التحرك للقاء العدو منها يجب أن يبسط القول في وصف العزائم وتقوية الهمم وشحذها لتكثير الجيش والعساكر، وتقوية قلوب الشعب ومن ذلك.

"أصدرناها ومنادي النفير قد أعلن بيا خيل الله اركبي، ويا ملائكة الرحمن اسحبي، ويا وفود التأييد، والظفر اقربي، والعزائم قد ركضت على سوابق الرعب إلى العدا والهمم فد نهضت على عدو الاسلام.. والسيوف أُخرجت من الغمود... والجيوش قد كاثرت النجوم أعدادها"[2].

فالإطناب في هذه الرسالة يساعد على بث روح القوة والعزيمة في نفوس الجيش.

ومن أسباب الإطناب أيضاً في رسائل هذا العصر، الأوصاف التي يدبجها الكُتاب في رسائلهم يصفون المرسل إليه أو المراد تسليمه الوظيفة ويُمدح بأوصاف كثيرة تمدح وتمجد المرسل إليه.

ومن ذلك: "وكان الجناب العالي الكريم العالي الأميري الكبيرّي العالمّي العادلّي الكاملّي المؤيدي الزعيمّي الغياثّي المسندّي الممهدّي المظفّري المنصورّي السيفّي، معز الإسلام والمسلمين، سيد أمراء العالمين، سند الممالك، مدبر الدول، مقدم العساكر أمير الجيوش..."[3].

ومنها أيضا "كالمجلس العالي، القضائي، الأجلّي، الكبيرّي، العالمّي، العادلّي، العلامّي، القوامّي النظامّي، المدبرّي، الفاضلّي، الكاملّي الأوحدّي، المفوهّي الخاشعّي السفيرّي الشهابي، صلاح الإسلام والمسلمين سيد الرؤساء في العالمين قدوة العلماء العاملين ..." [4]

---

(1) النجوم الزاهرة، 7/ 341.
(2) حُسن التوسل، 94.
(3) نهاية الأرب، 8/ 137.
(4) صبح الأعشى، 11/ 300.

ومن ذلك أيضاً "كنت أيها السيد العالم العادل السلطان الملك الناصر، ناصر الدنيا والدين، أبو الفتح محمد ابن السلطان الشهيد الملك المنصور سيف الدين قلاوون أولى الأولياء بالملك الشريف"[1]. ومن ثم فإن هذه الأوصاف التي يمدح فيها المرسل إليه كانت سبباً في إظهار سمة الإطناب.

أما الإيجاز فيرى الكلاعي أن "الإيجاز يخاطب به أهل الرتب العالية والهمم السامية لأن قراءة الكتب كُلفة، والواجب تخفيف تلك الكلفة عن الأكابر والملوك"[2] وترى الباحثة أن هذه السمة لم تكن موجودة في رسائل العصر المملوكي ولا سيما المرسلة للملوك والأمراء، بل بالعكس يغلب عليها الإطناب والإطالة عند مخاطبتهم كما سبق الحديث.

وقد وجدت الباحثة القليل من الرسائل التي يغلب عليها الإيجاز ومن تلك الرسالة استجازة من الصفدي لابن سيد الناس يطلب إجازة ليروي تفسير القرآن وكتب الأدب، فبعد المقدمة تناول الموضوع وأوجز فيه ومن ذلك:

"إجازة كاتب هذه الأحرف جميع ما رواه من أنواع العلوم وما حمله من تفسير لكتاب الله تعالى أو سنة عن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– أو من الصحابة والتابعين– رضي الله عنهم– بسماع من شيوخه أو بقراءة من لفظه أو سماع بقراءة غيره أو بطريق الإجازة خاصة كانت أو عامة أو بإذن أو مناولة أو وصية كيف ما تأدى ذلك... وإجازة ما له من مقول نظماً ونثراً وتأليفاً وجمعاً.."[3].

ورسالة أخرى تظهر عليها سمة الإيجاز، إجازة كتبها عز الدين بن جَماعة لنجم الدين أبي الفتح محمد فكانت رسالته مختصرة وأذن له أن يروي عنه مصنفاته فكانت تلك الرسالة لا تتجاوز تسعة سطور، ومنها "كذلك عَرض على المذكور باطنها عرضاً حسناً، مجرداً مهذباً مجاراً متقناً، عرض من أتقن حفظه، وزيّن بحسن الأداء لفظه، وأجزل له من عين العناية حظه... أذنت له أن يروي عني الكتاب المذكور وجميع ما يجوز لي وعني روايته من مصنفاتي"[4].

وهكذا فإن السمة الغالبة على الرسائل في العصر المملوكي هي الإطناب، ومهما يكن من أمر فكُتاب هذا العصر كانوا يراعون ظروف إنشاء الرسالة ومناسبة الإطناب والإيجاز لمقتضى الحال.

---

(1) صبح الأعشى ، 59/10.
(2) إحكام صنعة الكلام، 91.
(3) الوافي بالوفيات، 1/ 231.
(4) صبح الأعشى ،14/ 330

خامساً: أسلوب الأمر:

الأمر نقيض النهي يقال أمره يأمره أمرا ،فأتمر أي قبل الأمر [1] وقد عُرف "طلب الفعل على وجه الاستعلاء والالتزام، فينظر الآمر لنفسه على أنه أعلى منزلة ممن يخاطبه أو يوجه إليه الأمر[2] "وقد عرفه العلوي صيغة تستدعي الفعل من جهة الغير على جهة الاستعلاء" .[3]

وقد أكثر كتاب الرسائل من استخدام أسلوب الأمر في رسائلهم، وتنوعت صيغ الأمر في رسائلهم بين فعل الأمر والفعل المضارع المقرون بلام الأمر.

ويخرج أسلوب الأمر لعدة أغراض كالدعاء والتعجيز والتهديد والنصح والإرشاد و.... ولكن غلب على غرض أسلوب الامر في رسائلهم النصح والإرشاد .

ومن أساليب الأمر في رسائلهم:

"الوصايا كثيرة لكن لا يهدى التمر إلى هجر ولا يهدى النور إلى الشمس ولا إلى القمر، وطلعته الشمسية أحق بقول أبي الطيب.

خذ ما تراه ودع شيئاً سمعت به في طلعة الشمس ما يغنيك عن زحل "[4] قد استخدم الكاتب صيغة فعل الأمر وكان غرضه النصح والإرشاد .

ومن ذلك أيضاً "رسم بالأمر الشريف أن نفوض إليه نيابة السلطنة الشريفة بصفد المحروسة...فليتلق هذه النعمة بباع شكره المديد"[5]. قد أمر المقلد أن يحمد الله ويشكر فضله على وظيفة نيابة صفد. واستخدم صيغة الفعل المضارع المقرون بلام الأمر ،وغرضه البلاغي النصح والارشاد.

ومن ذلك أيضاً:" ليباشر ذلك على ما عهد من مبادئ أدواته التي هي غاية المنتهى والوصايا كثيرة وأرسل حكيما ولا توصه"[6] قد استخدم الكاتب صيغة فعل الأمر أرسل ،والمضارع المقرون بلام الأمر وكان غرضه البلاغي النصح والإرشاد.

---

(1) لسان العرب، مادة أمر.

(2) معجم المصطلحات البلاغية، 313/1(2).

(3) الطراز، 281/3.

(4) قهوة الإنشاء، 422.

(5) صبح الأعشى 208/12.

(6) قهوة الإنشاء، 36.

ومن ذلك "فليأخذ الجناب العالي حظه من هذه البشرى التي جاءت بالمن والمنح"[1] رسالة من بشارة وفاء النيل واستخدم صيغة المضارع المقرون بلام الأمر.

ومن ذلك أيضاً " إجازة رواية استخدم الكاتب فيها أبيات من الشعر وجعلها بصيغة الأمر

"فــــــارو منــــــــي وارو عنــــــــي اغـــــن علـــــى شـــــد المطايـــــــا

وانتـــــــق الفضـــــــل وحصـــــــل واحـــــــظ منـــــــي بمزايـــــــا

وتحـــــــر الصـــــــدق واعلـــــــم أنـــــــه خيـــــــر الوصـــــــايا"[2]

(1) حسن المحاضرة، 369/2.

(2) صبح الاعشى، 335/14.

المبحث الثالث

السمات الإيقاعية

النثر الأدبي كالشعر له إيقاع خاص به، وقد اهتم كتاب الرسائل باستخدام صور البلاغة وتوظيف ظواهرها في رسائلهم. فاستخدام تلك الظواهر يُضفي على الرسالة إيقاعاً موسيقياً جميلاً يؤثر في المتلقي، ويجذب انتباهه. فالمحسنات البديعية ظاهرة في رسائل هذا العصر، وقد تنوعت ما بين السجع والجناس والطباق والموازنة. وتلك المحسنات تقدم الغرض المطلوب إذا استخدمت بعيداً عن التكلف والتصنع، وهذه الظواهر تبرز مهارة وبراعة الكُتّاب في تزيين رسائلهم بها.

مكونات إيقاع الرسائل:

أولاً: السجع

إن للسجع دوراً مهماً في إعطاء الرسالة جرساً موسيقياً جميلاً، والسجع يُحدث انسجاماً من المتلقي يُشعره برغبة لاستكمال الاستماع للنص.

السجع هو تواطؤ الفواصل في الكلام المنثور على حرف واحد[1] وللسجع دور مهم في إعطاء الرسالة موسيقا تجذب انتباه السامعين ويجعل ذهنه متوقداً مع الرسالة.

ولقد كان استخدام الكُتاب لألوان البديع منذ العصر الجاهلي في أدبهم، وفي العصر الإسلامي استخدموه ووشحوا رسائلهم به على نحو يسير، أما في العصر العباسي فقد أصبح السجع فناً يحرص الكُتّاب على أن لا تخلو رسائلهم منه[2]، وقد أصبح السجع صفة غالبة على أساليب معظم الكُتاب[3] ولقد اهتم كُتاب العصر المملوكي أيضاً بالسجع وزينوا رسائلهم به، فالسجع مهم للنثر كأهمية القافية للشعر، فهو يعطي جَرْساً موسيقياً جميلاً على الرسالة .تلك الموسيقى تأتي من التوافق بين الألفاظ المسجوعة.

---

(1) ينظر: الإيضاح في علوم البلاغة: محمد جلال الدين القزويني ،تعليق محمد خفاجي ،دار الكتاب اللبناني،ط4،1975م،بيروت ،لبنان، 2/ 547.

(2) ينظر: الكتابة الفنية: حسنى ناعسة: مؤسسة الرسالة، ط1، سوريا، 1978م، 413.414

وينظر: بلاغة الكتاب في العصر العباسي، 160، 165.

(3) ينظر تطور الأساليب النثرية: أنيس المقدسي، دار العلم للملايين، ط 6، بيروت، لبنان، 1979م، 209، 215.

وقد اشترط ابن الأثير في السجع أن تكون ألفاظه حلوة حارة طنانة رنانة لا غاثة ولا باردة[1].

وتنوعت رسائل هذا العصر بطول وقصر السجعات، ومن ذلك مثلاً:

رسالة تعزية كتبها شهاب الدين محمود "رزقه الله تعالى ثباتاً على رزيّته و صبراً، وجعل له مع كل عسرٍ يسرا، وأبقاه مُفدى بالأنفس والنفائس، وكان له أعظم حافظ من نُوب الدهر وأجلّ حارس، المملوك ينهي علمه بهذه النازلة التي فتتت القلوب والأكباد، وكادت أن تفرق بين الأرواح والأجساد، وأزالت ذخائر العيون، وابتذلت من المدمع كل مصون"[2].

لقد تنوع السجعات في الرسالة السابقة، ما بين حروف الألف والسين والدال والنون. وقد أعطت تلك السجعات جرساً موسيقياً جميلاً.

ومن ذلك: "الحمد لله الذي أجزل العطاء والمواهب، وضاعف النعماء التي يفيض شعابها أمواه العيون نواصب، وضاعف عزاً لا يعز معه مقصد، ولا يتعذر معه المطالب، وحلّى عَطل الأيام بالمحاسن التي تُستر بها ما ظهر من المعايب. أحمده على نعمه التي تُجلى بنورها ظلم الغياهب والألطاف التي نظمت من المجد عقده المتناسق وذروة المتناسب"[3].

يظهر السجع في الفقرة السابقة في حرف الباء وهو يعطي جرساً يجذب انتباه السامع.

ومن ذلك أيضاً : "بدأتني أعزك الله من الوصف بما قل عنه مكاني، وكاد من الخجل يضيق صدري ولا ينطلق لساني، وحملت كاهلي من المن ما لم يستطع، وضربت لذكري الآفاق نوبة خليلية لا تنقطع... وأُقابل لسانك المطلق بلساني المحصور، وأُثبت استدعاءك على بيت مال نطقي المكسور "[4].

فتتنوع السجعات في الفقرة السابقة ما بين الياء والعين والراء في الكلمات الآتية: (مكاني– صدري – لساني – كاهلي– تنقطع–محصور– مكسور)هذا التنوع يحدث جرساً موسيقياً جميلاً ويجذب الانتباه.

---

(1) المثل السائر، 1/ 197.

(2) صبح الأعشى، 9/ 82.

(3) السلوك، 1/ 969.

(4) المنهل الصافي، 5/ 249.

ومن ذلك أيضاً "وكان فلان ممن أشبه أباه، وأبين ما أودعه من نفائس العلوم وحباه، تصدر في المجالس، ودرس في المدارس وأورد ما عنده من النفائس"[1]. حرف السين في الفقرة السابقة له لمسة إيقاعية تطرب النفس .

ومن ذلك أيضاً: "نحمده على نعمه التي أطابت لنا جني الغروس وأطالت منا منى النفوس، وأطافت بملوكنا حتى بدت لسؤالهم الأيدي وخضعت لأمرهم الرؤوس"[2].

ومن ذلك أيضاً: "فلو رأيت خيالتك وهم صرعى تحت أرجل الخيول، وديارك والنهابة فيها تصول، والكسابة فيها تجول، وأموالك وهي توزن بالقنطار، ولو رأيت كنائسك و صلبانها قد كسرت ونشرت، وصحفها من الأناجيل المزورة قد نثرت"[3].

لقد تنوعت سجعات الفقرة السابقة ما بين حرف اللام وحرف الراء وحرف التاء.

وقد لوحظ على السجعات في رسائل العصر المملوكي أنها كانت تسير في شكل سهل ميسور بلا تكلف، ساعدت تلك السجعات على إظهار الجرس الصوتي الجميل وموسيقى الرسالة، و السجع يعمل على جعل المتلقي أكثر قرباً من الرسالة وتأثراً بأنغامها المتموجة وطرباً بها .

ثانياً: الجناس

يُسهم الجناس في تشكيل الإيقاع، والانسجام الصوتي الذي ينبع من التوافق الموسيقي بين الكلمات وهو من أهم فنون البلاغة المستخدمة .

فالجناس هو تشابه لفظين في النطق واختلافهما في المعنى[4].

فهو يعطي انسجاماً صوتياً، وتوافقاً موسيقياً بين الكلمات والألفاظ لما بينهما من تشابه في الوزن والصوت: "فالانسجام هو سر الجمال، والجناس لما فيه من عاملي التشابه في الوزن والصوت،

---

(1) صبح الأعشى، 14/ 318.
(2) السابق، 14/ 303.
(3) السلوك، 1/ 966.
(4) جواهر البلاغة، 396، وأيضا: الإيضاح، 2/ 535.

من أقوى العوامل في إحداث هذا الانسجام، وسر قوته كامن في كونه يقُرب بين مدلول اللفظ وصوته من جهة وبين الوزن الموضوع في اللفظ بما يُسبغه عليه من الدندنة من جهة أخرى"[1].

ومن أقسام الجناس

الجناس التام وهو ما اتفق فيه اللفظان المتجانسان في أربعة أشياء: نوع الحروف، وعددها وهيئاتها وترتيبها مع اختلاف في المعنى[2].

ولقد زين كتاب الرسائل رسائلهم بالجناس التام ووظفوه توظيفاً صحيحاً ومن ذلك: "نشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له... ونصلي على سيدنا محمد الذي أكرمنا الله به... صلى الله عليه وعلى آله.. صلاة ورضواناً يوفي قائلها أجره يوم الحساب من الكثرة بغير حساب يوم الحساب"[3].

فقد جانس بين كلمتي حساب والحساب فقصد بالأولى يوم القيامة وقصد بالثانية بلا عد ولا إحصاء بل يأخذ حسنات وأجر يوم القيامة بلا حساب.

ومن ذلك أيضاً: "الحمد لله الذي أزال بالشمس المحمدية عنا كل ظلمة... والله تعالى يزيد هذه الشمس في أفق ملكنا الشريف شرفاً ويشيد بها ريع هذه الوظيفة فإنه كان قد عفا، ويحسن ختامنا بكفاءة هذا الإمام وها نحن قد قلنا "حسبنا الله وكفى"[4].

فجانس الكاتب بين كلمتي الشمس والشمس، فقد بالشمس الأولى سيدنا –محمد صلى الله عليه وسلم– وقصد بالشمس الثانية الإمام محمد الرازي، فحمد الله على أن أزال بسيدنا محمد غمة الكفر، وتمنى في نهاية الرسالة أن يزيد الله بالإمام الرازي الملك شرفاً وعزة.

وبالجناس التام تعطي الكلمات جرساً موسيقياً جميلاً، ويحفز المتلقي ليُشغل ذهنه ليفرق بين كل من الكلمتين. وماذا قصد بهذه الكلمة وماذا قصد بالثانية.

ومن ذلك "صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين منهم من أضحى بفضل السبق للإيمان به صدّيقه وصديقه"[5].

---

(1) المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها، عبد الله الطيب، الكويت، ط 3، 1989م، 2/ 262.
(2) جواهر البلاغة، 396.
(3) النجوم الزاهرة، 7/ 338.
(4) قهوة الإنشاء، 418.
(5) نهاية الأرب، 8/ 136.

فجانس بين كلمتي (صدّيقه وصديقه) فقصد بالأولى أبو بكر الصديق الذي كان أول من صدقه من الرجال فسمي الصديق، وصديقه الثانية أصحابه الذين كانوا حوله وشدوا أزره.

ومن ذلك أيضاً: "بدأتني أعزك الله من الوصف بما قل عنه مكاني... أن أجيبك وأجيزك.. فتحيرت بين أمرين أمرّين... إن فعلت ما أمرت، ما أنا من أرباب هذا القدر العالي والصدر الخالي، وما أنا من أبناء مصر حتى أتقدم لهذا الملك العزيز... وإن منعت فقد أسأت الأدب والمطلوب حسن الأدب مني"[1].

جانس الكاتب بين كلمتين (أمرين وأمرّين) فقصد بالأولى موضوعين وقصد بأمرّين أي صعبين، حيث وجد الكاتب نفسه بين موضوعين صعبين هل يجيزه ويقدم له الإجازة ويكون صاحب قدر عال. أم يرفض أن يجيزه ويكون سوء تصرف منه.

ومن ذلك أيضاً: "الحمد لله المجيب من دعاه، القريب ممن نداه، الذي ابتعث محمد بأنواره الساطعة وهداه، وأيده بصحبه الذي حموا حماه، ونصروه على من عداه وحزبه الذين رووا سنته وروّوا أسنتهم من عداه"[2].

جانس الكاتب بين كلمة رووا وروّوا. يقصد بـ رووا سنته، أي قالوا أحاديثه وسيرته للناس، وقصد بروّوا أسنتهم من عداه بمعنى أشبعوا أسلحتهم من دماء أعداه. لدرجة الارتواء.

ومن ذلك أيضاً: "وأخرناك وما كان تأخيرك إلا لأجل معدود، وكيف فارقنا بلادك وما بقيت ماشية إلا وهي لدينا ماشية، ولا جارية إلا وهي في ملكنا جارية"[3].

فقد جانس الكاتب بين ماشية وماشية فقصد بالأولى المواشي من الخيل والإبل وقصد بالثانية بمعنى تسير وتمشي في ملكنا وتحت أمرنا. وجانس أيضاً بين كلمة جارية وجارية فقصد بالأولى الجارية، الجواري، النساء، الخادمة، وقصد بالثانية أنها جارية تجري وتسير في ملكه، فأراد أن يصف حال ملك بوهمند السادس بعد حرب السلطان الظاهر عليه.

---

(1) المنهل الصافي، 5/ 249.

(2) الوافي بالوفيات، 1/ 231.

(3) السلوك، 1/ 966.

وأما الجناس غير التام: فهو ما اختلف فيه اللفظان في واحد من نوع الحروف أو عددها أو هيئتها أو ترتيبها[1].

وهذا الجناس أيضاً يساعد في رسم موسيقا الرسالة، فهو يعطي جرساً موسيقياً جميلاً ويجذب انتباه المتلقي.

ومن ذلك: "الحمد لله... فحمده على أن خص المملكة المصرية من إيداع سرها المصون بأوسع صدر رحيب وأنهض بتدبير مصالحها من إذا سرت كتائب كتبه إلى عدو أنشد من شدة الفرق قفا نبك من ذكرى حبيب"[2].

فجانس الكاتب جناس غير تام بين كلمتي رحيب بمعنى واسع وكلمة حبيب بمعنى المحبوب.

ومن ذلك أيضاً: "نشهد أن لا إله إلا الله... ونشهد أن محمداً عبده ورسول أفصح من نطق بهذا اللسان، وجاء من هذه اللغة العربية بالنكت الحسان، وحثّ على الخير وحضّ على الإحسان – صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم–"[3].

فقد جانس الكاتب جناس غير تام بين كلمة الحسان بمعنى الجميلة والإحسان بمعنى الخير، حيث حمد الله على أن جاء الرسول بالنكت والعبر الجميلة من اللغة العربية وحث الأمة على الخير وحضها على الإحسان والخير.

وأيضاً "بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعد حمد الله الذي إذا توجه ذو السؤال إليه فاز، وإذا دعا كرمه ذوو الطلب أجاب وأجاز، والصلاة على سيدنا محمد كعبة القصد التي ليس بينها وبين النجح حجاز، وعلى آله وصحبه حقائق الفضل والفصل ومن بعدهم مجاز "[4].

---

(1) جواهر البلاغة، 397.
(2) صبح الأعشى، 14/ 192.
(3) الحان السواجع، 1/ 57.
(4) الوافي بالوفيات، 1/ 236.

فقد جانس الكاتب بين كلمتي أجاب وأجاز. فأجاب بمعنى رد على السؤال وأجاز بمعنى سمح ومنح. وجانس أيضاً بين كلمة الفضل بمعنى أن صحابة الرسول كان لهم فضل على المسلمين لأنهم حافظوا وحفظوا ونقلوا الدين فجانس كلمة الفضل مع كلمه الفصل بمعنى أنهم فصلوا بين الحق والباطل.

ومن ذلك أيضاً: "نشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة يَستظل الإيمان تحت لوائها، وتعبّق الأكوان، بما تنطق به الألسنة من أردائها، ويُشرق الوجود بما يُبدد على الوجوه من روائها، وتجادل أعدائها في الآفاق لرفع كلمة ملتها على الملل وإعلائها، ونشهد أن محمداً عبده ورسوله وخاتم الأنبياء وأشرف حملة الأنباء".[1]

فقد جانس بين (أروائها وروائها، الوجود الوجوه، الأنبياء الأنباء) فهذا الجناس يعطي جرساً موسيقياً جميلاً ويجذب انتباه القارئ أو المتلقي.

ومن ذلك: "أما بعد فقد وضح لذوي الأبصار والبصائر، واتضح عند ذوي الأسرار والسرائر"[2].

فالجناس غير التام واضح بين كل من الأبصار والبصائر والأسرار والسرائر.

ومن ذلك أيضاً "... لتيقنت أن الإله الذي أعطاك أنطاكية منك استرجعها، والرب الذي أعطاك قلعتها منك قلعها"[3].

يظهر الجناس غير التام ما بين قلعتها وقلعها فقصد بالأولى قلعتها حصنها وقصد بالثانية قلعها وأخذها منك.

وهكذا إن الجناس يضفي انسجاماً وتناسباً وتآلفاً صوتياً على الكلمات، يثري المعنى ويشيع الجرس الموسيقي الرنان الذي يطرب الأذن.

---

(1) صبح الأعشى، 12/ 206.

(2) السابق، 323/14.

(3) السلوك، 1/ 966.

ثالثاً: الطباق

لا يولّد الطباق جرساً موسيقياً إلا إذا كان قد ورد بشكل عفوي، وظهر ذلك في فن الرسائل.

فهو الجمع بين الشيء وضده[1] أو الجمع بين لفظين متقابلين في المعنى[2] ويكون ذلك اسمين أو فعلين[3].

وقد اشتملت الرسائل على الطباق، وهذا الطباق زاد الكلام حسناً وطرافة وجمالاً.

ومن تلك الأمثلة: "إذ هي الشريعة الجامعة لمصالح الدنيا والآخرة، الناسخة لما خالفها من الشرائع الغابرة، الباقية إلى أن يأتي وعيد الله وكل شريعة سواها دائرة"[4].

فقد طابق الكاتب بين الدنيا والآخرة وبين الباقية ودائرة فإن الرسالة كونها اشتملت على أشياء متضادة فقد شدت انتباه المتلقي، مع الموسيقى التي تحدثها، وذلك الطباق أيضاً يساعد على إظهار الأحوال النفسية عند الكاتب حيث يقول عبد القاهر الجرجاني: "والطباق نوع من أنواع البديع ولا تنحصر قيمة الأضداد في جانب الدلالة المفردة في الكشف عن القدرة اللغوية، فإنها تتعدى إلى إظهار الأبعاد النفسية المتوترة وتصويرها في أدق حالاتها، فالصورة المبنية على الحركة القائمة بين المتناقضات هي ذات سعة وعمق داخلي وذلك بما تتيحه اللغة من مترادفات وتضاد وتعاكس[5].

ومن ذلك رسائل تعزية وقد ورد فيها عدة تناقضات ومنها: "يسراً عسراً، الصغير الكبير، الجليل الحقير، الغني الفقير"[6].وأيضاً "البقاء الفاني – يعيش يموت"[7]. وفي هذه الرسائل ومع هذه التناقضات التناقضات فهي تعطينا جرساً موسيقياً جميلاً وتظهر نفسية الكاتب في حديثه عن الحياة والموت والبقاء والفناء وأظهرت حزنه وألمه وخوفه من حادثة الوفاة.

ومن ذلك أيضاً "صلى الله على محمد وعلى آله وصحبه المخصوصين بأسمى مراتب الاجتباء، صلاة دائمة بدوام الأرض والسماء... تفوض إليه نيابة السلطنة الشريفة بصفد المحروسة

---

(1) الصناعتين، 339.

(2) جواهر البلاغة، 366.

(3) الإيضاح، 2/ 477.

(4) صبح الأعشى، 14/ 324.

(5) دلائل الإعجاز: عبد القاهر الجرجاني، تحقيق محمود شاكر، مطبعة المدني، ط3، 1992م، 108.

(6) صبح الأعشى، 9/ 82.

(7) نهاية الأرب ،5/ 176.

تفويض يعلي قدره ويمضي في عموم مصالحها وخصوصها نهيه وأمره، ويرهف في حفظ سواحلها وموانيها بيضه وسمره، ومجاورها من ساكني الماء من بأسه المتوقد جمره"(1).

هنا يظهر الطباق بين الأرض والسماء ونهيه وأمره وبيضه سمره الماء والجمر، ويظهر فيها نفسية الكاتب من خلال الحديث عن الشيء ونقيضه، كالماء والجمر والنهي والأمر، والبيض والسمر، والأرض والسماء.

كما يؤدي الطباق كما هو معلوم توضيح المعنى وتأكيده وإبراز لموسيقى الرسالة.

ومن ذلك أيضاً عهد للقاضي محي الدين عبد الظاهر: "... كل ما فوضه الله لمولانا أمير المؤمنين من حكم في الوجود، وفي التهائم والنجود، وفي المدائن والخزائن، وفي الظواهر والبواطن،... وفي كل عطاء وآخذ، وفي كل عزل وتولية، وفي كل تسليم وتخلية"(2).

فالطباق في تلك الرسالة يعمل على توضيح المعنى، وشد انتباه المتلقي.

ومن ذلك أيضاً من رسالة "توقيع" كتبها ابن حجة الحموي: "اليقين الشك – الصحة المرض – يعدل المزاح – الانزعاج"(3).

وأيضاً "قطع – وصل – فرع أصل – قربت بعدت"(4).

وغيرها الكثير، ومن ثم فإن المتناقضات منحت الرسالة جرساً موسيقياً جميلاً، ويؤدي أيضاً لتوضيح المعنى وتأكيده. ومما يساعد على إعطاء الجرس الموسيقي في الطباق وجود بعض الكلمات المتطابقة التي تتفق فيما بينها في الوزن والقافية "كيسير وعسير قرباً وبعداً الأمة والغمة"(5)، فهذا أيضا أيضا يساعد على إظهار الجرس الموسيقي الجميل

ومن ذلك "بعد حمد الله ذي المجد والسناء، والعظمة والكبرياء، الأول بلا ابتداء، الآخر بلا انتهاء، خالق الأرض والسماء، جاعل الإصباح والإمساء"(6).

---

(1) صبح الأعشى، 9/ 82.
(2) النجوم الزاهرة، 7/ 338.
(3) قهوة الإنشاء، 37.
(4) النجوم الزاهرة، 341/7.
(5) صبح الأعشى، 28/13
(6) الوافي بالوفيات، 192/1.

التناقضات ظاهرة ما بين الأول الآخر، ابتداء انتهاء، السماء الأرض، الإصباح والإمساء. هذا التناقض يُعمل العقل وينبه ذهن القارئ.

وهكذا فإن الطباق يؤدي إلى توضيح المعنى وإبراز الجرس الموسيقي الذي يجذب الانتباه، وقد استُخدم بشكل لطيف جميل بعيد عن التكلف.

رابعاً: الموازنة

إن للموازنة أثراً واضحاً في الكلام، فتجعله رشيقاً جميلاً وتعطيه رونقاً وطلاوةً تجذب انتباه السامع وتترك أثراً في نفسه. فهي تساوي الفاصلتين في الوزن[1] وقد عرفها ابن الأثير والعلوي." تكون ألفاظ الفواصل من الكلام المنثور متساوية في الوزن"[2]، فتعد الموازنة من المحسنات اللفظية التي استخدمت في تنميق الرسائل، وتحسينها فهي تعد من الألوان البديعية التي تعطي الرسالة جرساً موسيقياً جميلاً وحلاوة وطلاوة تشد انتباه المتلقي وتبعده عن الملل.

وقد استخدمها الكُتاب في نثرهم لما لها من إيجاد إيقاع موسيقي جميل على رسائلهم ومن ذلك:

"ولما تحتم من تفويض أمر الملك إليه، وما كان لوقته المعلوم قد تأخر، وتحيّن حينه فكمل زيادة كزيادة الهلال حتى بادر تمامه فأبدر، اقتضى حسن المناسبة لنصائح الجمهور، والمراقبة لمصالح الأمور ... والثغور، والمقاربة من فواتح كل أمر ميسور، أن نفوض إليه ولاية العهد الشريف بالسلطنة الشريفة المعظمة، المكرمة المنظمة"[3].

فالموازنة واضحة في الفقرة السابقة من الرسالة بين التراكيب (لنصائح الجمهور ،ولمصالح الأمور).

تلك الموازنة تعطي نغماً موسيقياً جميلاً، وتجذب انتباه المستمع.

---

(1) جواهر البلاغة، 405.

(2) المثل السائر، 1/ 272. وأيضاً الطراز لأسرار البلاغة: يحي بن حمزة العلوي، دار الكتب العلمية، د.ط، د.ت، بيروت، لبنان 38/3.

(3) النجوم الزاهرة، 7/ 341.

ومن ذلك "والنيل له الآيات الكبر وفيه العجائب والعبر ،ومنها وجود الوفا و بلوغ الصفا "[1]فالموازنة واضحة جلية بين (وجود الوفا وبلوغ الصفا) فقارئ الرسالة يحس بتلك الموسيقى الجميلة التي توجدها الموازنة.

ومن ذلك أيضاً: مرسوم بالمسامحة بالبواقي مما في ذمم الجند والرعايا " إن الله خص أيامنا الزاهرة بالفتوح التي أنامت الرعايا فيمهاد أمنها وأنالت البرايا مواقع يمنها ومنها"[2])

الموازنة تظهر ما بين الكلمات (أنامت الرعايا ، أنالت البرايا). وقد أضفت موسيقى جميلة على تلك الرسالة.

ومن ذلك أيضاً "إن أمراء دولتك فهم أنصار سلفك الصالح وذوو النصائح فيما آثروه من المصالح ، وخلفاء طاعتهم في السر والنجوى ،وأعوانهم في البر والتقوى ""[3].

الموازنة ظاهرة (في السر والنجوى ،والبر والتقوى(فمثل هذه الكلمات تعطي جرساً موسيقياً جميلاً.

ومن ذلك أيضاً "نشهد أن محمداً عبده ورسوله الذي جلا الغمة، وهدى الأمة، ... صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين أمروا بالتيسير، واقتنعوا من الدنيا باليسير وأضحوا طرق الإحسان لسالكها فسهل على المقتدي بهم في الحنو على الأمة الصعب ويسر العسير"[4].

إن الموازنة واضحة جلية بين الكلمات (جلا الغمة ، هدى الأمة).

ومن ذلك :"وهو الذي بقواعد السلطنة أدرى وبقوانينها الأعرف وعلى الرعايا الأرأف ...وأمراء الجيوش فهم السور الواقي ... وهم ذخائر الملوك وأخاير السلوك"[5] الموازنة تظهر بين التراكيب (الرعايا الأعطف ، الرعايا الأرأف)و(ذخائر الملوك ، وأخاير السلوك)مثل هذه التراكيب يعطي جرساً موسيقاً جميلاً لنص الرسالة .

---

(1) حسن المحاضرة ،369/2
(2) صبح الأعشى ،29/13
(3) السابق، 10/ 59.
(4) السابق، 13/ 28.
(5) النجوم الزاهرة ،343/7

زمن ذلك أيضاً "فوض إليه كل ما هو من لوازم خلافته لله في أرضه :ما ذكر وما لم يذكر تفويضاً لازماً وتقليداً جازماً وعقداً محكماً وعهداً محكماً في مصالح الإسلام والمسلمين "[1] الموازنة بين

(تفويضاً لازماً وتقليداً جازماً وعقدا محكماً وعهداً محكماً)هذه التراكيب اضفت نغماً إيقاعاً جميلاً على الرسالة تطرب السمع وتجذب الانتباه.

وبالتالي إن الموازنة تعطي الرسالة جرساً موسيقياً جميلاً، يبعد الملل عن المتلقي أو القارئ، كما يدل على قدرة الكاتب على تأليف المفردات المناسبة وتحقيق الانسجام، وإبراز ثوب الرقة والجمال وقوة التأثير.

كما لوحظ أن الموازنة التي ظهرت في الرسائل لم تكن متكلفة، بل سهلة واضحة موافقة للطبع ومناسبة للذوق ومساهمة في إبراز المعنى بصورة جميلة ومؤثرة.

ختاماً لا بد من القول إن كتاب الرسائل قد أجادوا استخدام ألوان البديع بما يخدم النص من توضيح له أو إظهار براعة الكاتب وقدرته على تطويع اللغة وإظهار الجرس الموسيقي المتنوع وإعطاء سمة إيقاعية للنص.

---

(1) صبح الأعشى ،53/10

المبحث الرابع

السمات التصويرية

يعد التصوير الفني من أهم خصائص الأدب، وهو شاهد على قوة الإبداع لدى الكاتب؛ لأنه العنصر الذي يتيح للأديب أن يؤلف الصور الجديدة المبتكرة .

بل يساعد على تحقيق علامة من علامات تميز النص الأدبي، حيث إن "الصورة وحدها هي التي يمكن أن تعطي للأسلوب لوناً من الخلود".[1]

وقد حظي التصوير الفني بمنزلة سامية عند النقاد والدارسين؛ وذلك لأن الصورة الفنية طريقة من طرق التعبير التي يستخدمها الكاتب لما لها من تأثير قوي على النص لتحسينه وتزيينه[2].

وترى الباحثة أن من أهم ما يرسم السمات التصويرية في فن الرسائل التشبيه والاستعارة والكناية، حيث أجمع البلغاء والنقاد على أهميتها في رسم الصورة في النص.

حيث تلفت الأنظار إلى المعنى المراد داخل النص، يستدل عليه القارئ حسب تفكيره وقدرته على إعمال عقله لوصول للمعنى الأصلي المراد، وقدرته على تذوق النص ليصل إلى الشعور بجمال الصورة.[3]

وستدرس الباحثة في هذا المبحث أهم السمات التصويرية في فن الرسائل في العصر المملوكي. التشبيه والاستعارة والكناية.

أولاً: التشبيه

التشبيه فن من فنون البلاغة، وعنصر من عناصر الأسلوب وهو يدل على سمة الخيال، وجمال التصوير، وبراعة الكاتب، كما يزيد المعنى قوة ووضوحاً فهو "عقد مماثلة بين أمرين أو أكثر، قُصد اشتراكهما في صفة أو أكثر بأداة لغرض يقصده المتكلم".[4]

---

(1) علم الأسلوب: صلاح فضل، مؤسسة مختار، 1992م القاهرة، 273.

(2) الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب: جابر عصفور، المركز الثقافي العربي، ط 3، 1992، بيروت، 323.

(3) ينظر: السابق، 323، 328.

(4) جواهر الأدب: 247، والمثل السائر: 1 / 373، 389 وأيضاً تحرير التحبير: ابن أبي الأصبع المصري، تحقيق حنفي شرف، القاهرة 1995، 159

وعرّفه القزويني: "الدلالة على مشاركة أمر لآخر في معنى.[1]

وهو يعد عنصراً أساسياً في الشعر والنثر على حد سواء فاستخدمه الشاعر في شعره، والكاتب في نثره، حيث جاء في الشعر وسائر الكلام[2] وتظهر مهارة الأديب من خلال قدرته على إجادة التشبيه وتوظيفه لأجل خلق صورة فيها حركة وحياة.

وقد استخدم كُتّاب هذا العصر التشبيه لأهميته في إبراز المعنى وتوضيحه، مع إعطائه نوعاً من التوكيد، وقد كان يتفاوت في الكثرة والقلة من نوع رسائل إلى آخر.

وقد كان من الملاحظ على الرسائل استخدام التشبيه في مواضع الوصايا من العهود والتقاليد والتواقيع، وقد كانت قليلة نوعاً ما في نصوص الرسائل السياسية وذلك لاهتمام الكاتب بموضوع الرسالة، وكونه متقيداً بقيود كتابة موضوع الرسالة لإيصاله بشكل واضح، كما وقد تنوعت التشبيهات في الرسائل العلمية ما بين المقدمة والموضوع والخاتمة، وتنوعت أيضاً في الرسائل الاجتماعية فكان الكاتب حراً طليقاً يستخدم ألوان البلاغة كما يشاء.

وقد لوحظ غلبة التشبيه البليغ على رسائلهم. والبليغ هو ما حذفت منه الأداة ووجه الشبه.[3]

ومن ذلك" رأينا أن نفوض إليه حكم كل ما أمضى الله فيه حكمنا من البلاد... فعليه المعتمد في فصل الأحكام... وهو الفرع الذي زكا ولا يزكو إلا الفرع إذا كان طيب الأصل... فهو بحمد الله كعبه تحج إليها الآمال.[4]

وهي رسالة تقليد من السلطان الظاهر بيبرس لولده السعيد لولاية السلطنة، وهنا قد أورد التقليد مع مدحه وذكر سبب اختياره، وشبهه بفرع الشجرة الطيب صاحبة الأصل الطيب.

فهو إن عدل فوالده عادل، وإن أحسن فوالده محسن، وإن انتصر فوالده منتصر، وإن جاهد فوالده مجاهد فحقاً هذا الشبل من ذاك الأسد.

---

(1) الإيضاح، 2/ 328.

(2) معجم البلاغة العربية، 296.

(3) معجم المصطلحات البلاغية وتطورها: أحمد مطلوب، مكتبة لبنان، بيروت لبنان، 2000م، 330.

(4) السلوك، 969/1 .

"ولمّا كان الجناب العالي هو السيف الذي على عاتق الدولة نجاده، والليث الذي لم يزل في سبيل الله إغاثته وإنجاده، والغيث الذي يخصب بمعدلته البلد، والأسد الذي ساكن البحر مهابته".[1]

وهي من تقليد لسيف الدين السلحدار بنيابة صفد، في هذا الجزء من الرسالة يذكر الكاتب سبب اختياره لهذا المنصب، فقد شبهه ووصفه بأنه سيف على الأعداء، أسد يُهاب منه ويسير في سبيل الله وشبهه بأنه الغيث الذي يسقي البلد وبهذا استحق هذا المنصب.

ومن ذلك أيضاً:

"أما الوصايا فأنت يا ولدنا الملك الأشرف أعزك الله بها، ولسماع شدوها وحدوها الطرب فعليك بتقوى الله... وكثّر لمن حولك التموين والتمويل، وضاعف الخير في كل مضاف لمقامك... وأمراء الجيوش فهم السور الواقي".[2]

وهذا من عهد الملك المنصور لابنه الملك الأشرف صلاح الدين فأراد أن يوصيه وبدأ بتقوى الله، فهنا قد شبه الوصايا كأنها شدو الطيور في جمالها وطربها كيف لا وقد بدأها بتقوى الله.

كما أوصاه بالإحسان ومضاعفة الخير لأمراء الجيوش فقد شبههم بالسور الواقي فهم من يحموا حمى الوطن.

ومن ذلك أيضاً "أن يُنبت حَب حُب هذا الدين في قلبه"[3]

وهي من رسالة رد فيها الملك المنصور قلاوون على إيلخان أحمد تكدار، حيث أرسل له تكدار رسالة يعلمه فيها اعتناقه للإسلام، ورد عليه المنصور بالرسالة دعا له فيها بالثبات وحب الدين الإسلامي. وهنا قد شبه حب الدين والامتثال له كأنه حب أو بذور وقد دعا الله أن ينبته في قلبه.

وتمنى أن يكون حب الدين في قلبه كالنبات ينمو ويترعرع ويزداد.

وهكذا فإن للتشبيه روعةً وجمالاً وموقعاً حَسناً في الكلام، يزيد المعاني رفعةً ووضوحاً وشرفاً.

كما إن للتشبيه دلالات نفسية كالترغيب والترهيب والتعظيم والتحقير[4] ،ويظهر هذا جلياً في الرسائل ومن ذلك: "فلذلك رغب إلى المجلس العالي" المسمى" وخطب الجهة المصونة المحجبة النقية

---

(1) صبح الأعشى، 205/12.

(2) النجوم الزاهرة ، 341/7.

(3) السلوك، 981/1.

(4) ينظر: صبح الأعشى، 14/ 255.

التقية، العفيفة، غصن الإسلام جمال ذوات الستور، قرة عين الملوك والسلاطين السيدة" سولى" بنت فلان صان الله حجابها، فأكرم موارد قصده وحباه أنفس درة في عقده"[1]

وهي من صداق بدر الدين الخطيب على بنت شمس الدين الخطيب، ففي هذه الفقرة يمدح العروس وقد شبهها بأنها أنفس جوهرة في العقد وقد وهبه إياها فكلاهما يتمتع بالغلاء والرفعة والصون.

فالكاتب في الفقرة السابقة قد راعى الحالة النفسية والمكانة الاجتماعية التي تتمتع بها العروس فعظمها ومدحها وأحسن اختيار التشبيه.

وعلى سبيل التعظيم أيضاً "اقتضى حسن الاختيار الشريف الملكي الناصري لولده المقام العالي السيفي، أحسن الله لهما الاختيار، وأجرى بإرادتهما اقتدار الأقدار أن تزف أتم الشموس إلى ستوره الرفيعة".[2]

وهو من نسخة صداق المقام الشريف العالي السيفي أنوك ولد الناصر محمد قلاوون، ففي هذه الفقرة يمدح العروس فهي بنت بكتمر الساقي فقد شبهها بأنها شمس بل أتم الشموس قد زفت لولده. وظهرت مراعاة الحالة النفسية في التشبيه وشبهت العروس بأنها الشمس.

فحق بذلك أن يعطي التشبيه جمالاً وبهاءً للكلام، ومن ذلك أيضاً: "وقد كان الجناب الكريم العالي الأميري الكبيري العالمي... معز الإسلام والمسلمين...أعز الله نصره وهو واسطة عقد الأولياء.[3]

وهي من رسالة تقليد الأمير سيف الدين سلار المنصوري بنيابة السلطنة الشريفة، فبعد المقدمة ونص التقليد بدأ يتحدث الكاتب ويمدح سيف الدين سلار ويعلل بهذا سبب اختياره.

ومدحه وعظّمه في تشبيهه هذا، فقد شبهه بأنه واسطة العقد الجوهرة أو اللؤلؤة الكبيرة الموجودة في نصف العقد فعظمه وجمله ومدحه وزاده بهاءً على بهاء.

ومن الدلالات النفسية التي ينقلها التشبيه "التحقير" أو التهكم أو الاستهزاء ومن ذلك "والرب الذي أعطاك قلعتها منك قلعها"[4] فهذه من رسالة انتصار أرسلها الظاهر بيبرس لبوهمند السادس

---

(1) صبح الأعشى، 319/14.

(2) السابق ، 305/14.

(3) نهاية الأرب، 8/ 137.

(4) السلوك، 1/ 966.

يعلمه فيها أخذ قلعة أنطاكية والسيطرة عليها فقد وصف في الرسالة كيف تم الاستيلاء عليها، وشبه هنا أنطاكية عند السيطرة عليها كاقتلاع الشجرة من الأرض.

فهذا التشبيه كما يبدو ينقل دلالة نفسية وهي التحقير و الاستهزاء كونه انتصر عليه.

كما أن التشبيهات التي استخدمها الكتاب في الرسائل لم تكن زركشة مزوِقة للنص فحسب، لكنها تعكس مشاعر كُتابها[1].

وقد كثرت التشبيهات التي تعكس مشاعر الكاتب ومن ذلك: "هذه المكاتبة إلى الجناب العالي تخصه بسلام يَسري كالماء انسجاماً، يروق كالزهر ابتساماً".[2]

فكاتب هذه الرسالة يدور في صدره حبٌ كبيرٌ للجناب العالي، وعبر عن ذلك ونقل ذلك الشعور من خلال السلام الذي بعثه إليه وشببه بالماء في انسجامه وبالزهر في ابتسامه. فهذه التشبيهات ساعدت على إظهار ذلك الشعور.

ومن ذلك أيضاً "الحمد لله الذي رفع للعلماء مقداراً وأجزل نعمه عليهم، إذ أعلى لهم مناراً، ووفق بسواء الطريق من اقتدى بهم إيراداً وإصداراً، أُشرعت هممهم العلية في حلبة السباق فهي لا تُجارى، وتحلو بالمفاخر جهاراً وقد عجز غيرهم أن يتحلى بها إسراراً، أبرزهم في هالات المفاخر أقماراً".[3]

وهي من إجازة علمية ومن خلال المقدمة فقد حمد الكاتب الله عز وجل الذي رفع مكانة العلماء.

ومن تلك الفقرة يُلاحظ تعظيم وإجلال الكاتب للعلماء، ونقل ذلك الشعور من خلال تشبيهه العلماء بالأقمار في السماء، فهم يزدادون جمالاً، وإجلالاً بالشهادات والإجازات العلمية التي يحصلون عليها.

وهكذا فإن التشبيهات كانت نتيجة لقناعات داخلية عند الكاتب وقد تفاعلت كلماته مع عواطفه وأظهرها.

---

(1) الكتابة الفنية، 413.

(2) حسن المحاضرة، 2/ 369.

(3) صبح الأعشى، 14/ 323.

ومن الملاحظ عمق ألفاظ التشبيه ودلالتها في الرسائل فهو يساعد على تشكيل لوحة جميلة مترابطة، وقد اعتمد الكُتاب على التشبيه – دون تكلف – واهتموا به كثيراً. كونه نوعاً من الأنواع البلاغية تجذب الانتباه وتوضح المعاني حيث قال العسكري: "إن التشبيه يزيد المعنى وضوحاً ويكسبه تأكيداً، لهذا اتفق عليه جميع المتكلمين من العرب والعجم ولم يستغن أحد منهم عنه.[1]

ثانياً: الاستعارة

تعد الاستعارة أحد أهم فنون البلاغة، وأحد أهم أركان التعبير عن المشاعر، فهي تعمل على إظهار التصوير وتدل على براعة الكاتب وعنصر مهم لا يستغن عنه الشاعر أو الناثر.

فهي "استعمال اللفظ في غير ما وضع له لعلاقة المشابهة بين المعنى المنقول عنه والمعنى المستعمل فيه مع قرينة صارفة عن إرادة المعنى الأصلي"[2].

وقد عرّفها العسكري:" نقل العبارة عن موضع استعمالها في أصل اللغة إلى غيره لغرض"[3]

وتعمل الاستعارة على شرح المعنى وإبانته أو تأكيده والمبالغة فيه. إن استخدام الاستعارة واعتمادها على التشخيص أو التجسيم يساعد على إظهار جمال التصوير وبراعته وقدرة الكاتب على تطويع اللغة .

فهي "تعطيك الكثير من المعاني باليسير من اللفظ حتى تُخرج من الصدفة الواحدة عدة من الدرر، وتجني من الغض الواحد أنواعاً من الثمر" [4]

فهي تعد من أوائل فنون التعبير الجميلة في اللغة العربية وقد استخدم كتاب الرسائل الاستعارات بما يخدم الصورة ويظهرها.

---

(1) الصناعتين، 265.

(2) جواهر البلاغة، 303.

(3) الصناعتين، 295.

(4) أسرار البلاغة في علم البيان ،عبد القاهر الجرجاني، تحقيق محمد الإسكندراني ،دار الكتاب العربي ،بيروت، ط 1996،1م، 41.

وقد لوحظ تنوع الاستعارة المستخدمة ومنها المكنية[1]ومنها التصريحية[2]

ومن تلك الاستعارات في الرسائل:

"ضاعف الله نعمة الجناب، وسر نفسه بأنفس بشرى، وأسمعه من الهنا كل آية أكبر من الأخرى، وأقدم عليه من المسار ما يتحرز ناقله ويتحرى، وساق إليه كل طليقة إذا تنفس صبحها"[3]

وهي من بشارة بوفاء النيل بدأها الكاتب بالدعاء للملك صاحب الجناب العالي، وتمنى أن تُسر نفسه بالبشريات ويسمع التهاني، وتُنقل إليه الأخبار المفرحة مع طلعة كل صباح.

وقد شبه هنا الصباح وطلوعه كأنه الإنسان إذا تنفس حذف الإنسان وأبقى صفة من صفاته وهو التنفس على سبيل الاستعارة المكنية.

ومن ذلك أيضاً "ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة يستظل الإيمان تحت لوائها وتعبق الأكوان، بما تنطق به الألسنة من أروائها"[4].

وهي جزء من مقدمة تقليد بنيابة السلطنة بصفد، فحمد الله الكاتب على نعمه وشهد له بالوحدانية.

وقد شبه الشهادة بالوحدانية لله كأنها شجرة أصلها ثابت وفرعها في السماء حذف الشجرة وجاء بصفة من صفاتها وهي يُستظل بظلها على سبيل الاستعارة المكنية.

وأيضاً شبه تلك الشهادة بالأزهار التي تُعبق الأكوان برائحتها العطرة وذلك على سبيل الاستعارة المكنية. إن الكاتب في تلك الاستعارة قد أظهر جمالاً بارعاً فقد أحسن في ذلك. كيف لا يكون ونحن بلا إله إلا الله ندخل الجنة.

---

(1) الاستعارة المكنية :هي ما اختفى فيها لفظ المشبه به واكتفى بذكر شيء من لوازمه دليلاً عليه .معجم مصطلحات البلاغة، أحمد مطلوب ،مكتبة لبنان، بيروت، لبنان،2000م، 88.

(2) الاستعارة التصريحية :هي ما صرح فيها بلفظ المشبه به دون المشبه المعجم المفصل في علوم البلاغة، إنعام عكاوي ،دار الكتب العلمية ،ط 3،بيروت لبنان،1996م، 101.

(3) حسن المحاضرة :369/2.

(4) صبح الأعشى، 205/12

ومن ذلك أيضاً: "ومن أحضر معه من مماليك وجواري فله من قيمتهم ما يزيد على ما يريده ومن أحضر منهم فقد أخرج من الظلمات إلى النور."[1] وهي من رسالة أمان أرسلها المنصور قلاوون للتجار الذين يصلون مصر، ودعاهم ليأتوا بالمماليك والجواري رغبة منه في تكثير جيش المسلمين، واعتبر أن من جاء من المماليك والجوراي كأنهم أخرجوا من ظلمات الكفر والاستعباد إلى نور الإسلام وهدايته. وهنا قد شبه الضلال والكفر والاستعباد كأنه الظلمات وشبه الهدى والإسلام والإيمان بأنه النور على سبيل الاستعارة التصريحية فحذف المشبه وصرح بالمشبه به.

ومن ذلك أيضاً "نحمده على أن أطلع في أفق ملكنا الشريف شمساً فيسعد سعودها زاهرة".[2]

وهي من رسالة تقليد للإمام محمد الرازي الشافعي ليتولى وظيفة النظر في دواوين الإنشاء.

فحُمد الله عز وجل لوجود شمس وهو الإمام الرازي في سماء الملك. فقد شبه هنا الكاتب الإمام الرازي كأنه الشمس التي تنير الطريق على سبيل الاستعارة التصريحية.

ومن ذلك أيضاً: "فأطلعنا في أفق السلطنة كوكباً سعيداً كان لحسن الاستخلاف معداً"[3] وهي من رسالة عهد من المنصور قلاوون لابنه الملك الأشرف صلاح الدين خليل، فحمد الله، وصلى على رسوله في المقدمة، وبدأ يمدح ابنه لاستحقاقه منصب رياسة السلطنة، فقد شبه ابنه الملك صلاح الدين كأنه كوكب في سماء السلطنة على سبيل الاستعارة التصريحية.

ومن خلال الاستعارات السابقة وغيرها الكثير وجدت أنها أبلغ من الحقيقة "والعدول إليها أولى، لما تُعطي من المعاني التي لا تحصل من لفظ الحقيقة".[4]

حيث إن تشبه الملك بالكوكب أفضل بكثير من مدحه وعرض مناقبه فكلمة كوكب لها دلالات معروفة عند الناس، فذكرها واستعملها ربما يؤدي المعنى أكثر مما لو ذكرت الحقيقة. "فإن الاستعارة تتضمن ما لا تتضمنه الحقيقة من زيادة وفائدة".[5]

---

(1) صبح الأعشى، 340/13.

(2) قهوة الإنشاء، 418.

(3) النجوم الزاهرة، 341/7 .

(4) تحرير التحبير، 101.

(5) الصناعتين، 295.

وقد ظهرت الاستعارات في رسائل الكُتاب بشكل أدبي بارع بعيد عن التكلف أو الإفراط فيه، كما أنها لم تستخدم للزركشة والتزويق فحسب بل إنها أيضاً تعكس مشاعر كتابها.[1]

ومن ذلك "تحمده على نعمه التي غمرت رعاياه بإدامة الإحسان إليهم، وغمرت ممالكنا بما تتعاهد به أهلها من نشر جناح الرأفة عليهم.[2]

وهي من رسالة مرسوم بالمسامحة بالبواقي مما في ذمم الجند والرعايا في الشام، وفي المقدمة حمد الله عز وجل على نعمه التي غمرت الرعايا بالإحسان.

ونشرت جناح الرأفة عليهم فهنا شبه الرأفة بأنها حمام ينشر جناحه على الرعية على سبيل الاستعارة المكنية.

فأراد الكاتب هنا أن يصور لنا اهتمام الملك برعيته وانشغاله بمصالحهم وأراد أن يعبر عن تقدير الكاتب بهذا الاهتمام واحترامه للملك. فصوره بالحمامة التي تفرد جناحها على أولادها. فاستخدام تلك الصورة وتلك الاستعارة ليوصل لنا ذلك الشعور شعور الاهتمام شعور الخوف على الأبناء.

ويظهر ذلك أيضاً في موضوع آخر "وهو فإن الله تعالى لما خص أيامنا الزاهرة بالفتوح التي أنامت الرعايا في مهاد أمنها، وأنالت البرايا مواقع يمنها ومنّها، وكفّت أكف الحوادث عن البلاد وأهلها، ونشرت عليهم أجنحة البشائر في حَزن الأرض وسهلها".[3]

فيتحدث الكاتب هنا عن الانتصارات التي حققها الملك، قد كفّ وأبعد الحوادث عن البلاد وأهلها، ثم انتشرت البشائر في جميع بقاع الأرض تخبر بالنصر وتنشر الطمأنينة.

فقد شبه البشائر بالطيور التي تفرد أجنحتها: بالبشارات، وتنشر خبر النصر في كل مكان وتلك الصورة على سبيل الاستعارة المكنية.

ومن ذلك "ابتهج النيل فتخلق بوحامه، وهامت أفواه دوائره، ومن هذا المعشوق إلى القُبل وابتسم ثغر الاسكندرية[4].

---

(1) الكتابة الفنية، 413.

(2) صبح الأعشى، 28/13.

(3) السابق، 29/13.

(4) قهوة الانشاء، 274.

وهي من بشارة بولادة أحد الأبناء ، وبهذه الولادة قد ارتفعت المصائب وسُر الجميع وابتهج النيل وابتسم ثغر الإسكندرية. وهنا شبه الكاتب النيل بالإنسان الذي يبتهج ويفرح لميلاد هذا الطفل، حذف الإنسان وجاء بصفة من صفاته الابتهاج على سبيل الاستعارة المكنية. وأيضاً شبه الإسكندرية بالإنسان الذي له ثغر ويبتسم ابتهاجاً بالمولود حذف الإنسان وجاء بصفة من صفاته وهي الابتسامة على سبيل الاستعارة المكنية.

فمن المشاعر التي أراد الكاتب أن ينقلها للقارئ الابتهاج والفرح والسعادة بالمولود وخاصة إذا كان ذكراً.

فنقل تلك المشاعر في الصورة التي رسمها بأن جعل النيل إنسان يبتهج والإسكندرية شخص يبتسم ثغره.

ومن ذلك أيضاً "فما سرى ذهنه في استقصاء عرض إلا وكانت الصحة له مرافقة ولا جس يد إلا عُقدت الخناصر عليه، ولا حصل بين الجسم والصحة منافرة إلا وكان الصلح بينهما على يديه"(1)

وهو من توقيع برهان الدين إبراهيم ليتولى منصب رياسة الطب، وفيها يتحدث عن برهان الدين يمدحه ليعلل سبب اختياره لهذه المهنة، وهنا قد شبه الجسم والصحة كأنهما شخصان متخاصمان متنافران، ويكون الصلح بينهما على يد برهان. حذف الأشخاص وجاء بصفة من صفاتهم المنافَرة فالصلح على سبيل الاستعارة المكنية. وذلك بمعنى عند المرض فبرهان الدين يشخّص المرض ويحدد العلاج الذي يساعد على الشفاء. فأراد هنا أن يصف شعور الإنسان عند مرضه من تعب ومشقة وألم وقد صور بهذه الصورة المنافرة التي تحصل بين الجسم والصحة عند المرض.

ومن تلك الاستعارات من رسالة وفاء النيل" سقى الأرض سلافته الخمرية فخدمته بحلول النبات وأدخله إلى جنات النخيل والأعناب فالق النوى والحب فأرضع جنين النبت وأحيا له امهات العصف والآب، وصافحته كفوف الموز فختمها بخواتمه العقيقية " (2)

(1) قهوة الانشاء، 37.

(2) ثمرات الاوراق، 230.

وهكذا من الملاحظ اهتمام كتاب الرسائل بالاستعارة وحرصهم على تدبيج رسائلهم بها .وحقاً قد كانت أحد أهم فنون البلاغة المستخدمة لتزيين كتاباتهم بالاستعارة فهي "أحد أعمدة الكلام وعليها المعول في التوسع والتصرف وبها يتوصل إلى تزيين اللفظ وتحسين النظم والنثر"[1]

ثالثاً: الكناية

تعد الكناية مظهراً من مظاهر البلاغة، ولا يدركها إلا صاحب الطبع اللطيف فهي تقدم الحقيقة بصورٍ جديدة كما لها وقع مميز في نفس المتلقي.

وتعدُّ أيضاً أحد أهم فنون البلاغة. وتدل على براعة الكاتب وقدرته على تطويع اللغة.

وقد عرّفها الجرجاني: "إثبات معنى من المعاني فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة، لكن يجيء إلى معنى هو تاليه وردفه في الوجود"[2].

وعرفها الهاشمي: لفظ أريد به غير معناه الذي وضع له مع جواز إرادة المعنى الأصلي لعدم وجود قرينة مانعة من إرادته[3].

والكناية تقف مع التشبيه والاستعارة في رسم بلاغة الرسائل وهي من العناصر التي يلجأ إليها الكاتب لتشكيل صورته وتدل على فطنة وذكاء الكاتب، وقد وظّف كتاب الرسائل الكناية توظيفاً جيداً في رسائلهم تدل على البراعة والقدرة على تشكيل الصورة.

ومن ذلك: "الوصايا كثيرة ولكن لا يُهدى التمر إلى هَجر، ولا يهدي النور إلى الشمس ولا إلى القمر"[4] من تقليد محمد الرازي لوظيفة النظر في دواوين الإنشاء وهي من نهاية الرسالة في حديثه عن الوصايا. استخدم المثل كناية عن المنزلة التي وصل إليها الرازي فالوصايا منه تُستملى، وهو أهلها ولا يحتاج للوصايا كالتمر الذي لا ينفع إهداؤه لبلدة تبيع التمر.

---

(1) الوساطة بين المتبني وخصومه، علي الجرجاني، تحقيق محمد إبراهيم، علي البجاوي، مطبعة عيسى الحلبي، ط4، 1966م، 428.

(2) دلائل الإعجاز، 66.

(3) جواهر البلاغة، 346.

(4) قهوة الإنشاء، 417.

ومن ذلك أيضاً: "وقد أجمع الناس على أن الرازي هو شيخ الإسلام الذي أتى بتحصيل الحق... ولو شاهد شمسنا التي أتت من المشرق" فبهت الذي كفر" وقال آمنت بمحمد ورسائله وصحابته"[1]

في هذه الفقرة الكاتب يمدح الرازي الذي هو شيخ الاسلام في عصره فقد كان نعم الرجل وتقلّد وظيفة النظر في دواوين الإنشاء بجدارة، واستخدم الكاتب "بُهت الذي كفر" و"آمنت بمحمد" كناية عن المنزلة الرفيعة التي تقلدها الرازي والاعتراف بأحقيته وجدارته.

ومن ذلك أيضاً "فإن كنتم تريدون الصلح والإصلاح وبواطنكم كظواهركم متتابعة في الصلاح... فيرسل إلينا من خواص دولتكم رجلاً يكون منكم ممن إذا قطع بأمر وقفتم عنده، لنتكلم معه فيما منه الصلاح لذات البين وإن لم يكن كذلك عاد بخفي حنين[2]

هذه فقرة من رسالة رد على رسالة صلح أُرسلت من ملك التتار محمود غازان إلى الناصر قلاوون، فقال فيها: أن أردتم الصلح فعلاً فأرسلوا رجلاً ثقة نتحدث معه عن الصلح، وإن لم تكن لديكم نية الصلح فسيعود بلا فائدة .وهنا استخدم عبارة بواطنكم كظواهركم كناية عن الرغبة الصادقة في الصلح عند محمود غازان وجنوده، واستخدم عبارة: "عاد بخفي حنين" كناية عن عدم الفائدة إذا لم يرغبوا في الصلح بل سيعود الرجل صفر اليدين.

ومن ذلك أيضاً: "على نعشه فأخذت بنات نعشه حظها من عزائه ومشى على الماء من دموع الناس فاستوت المياه والأخشاب عند بكائه"[3] وهي فقرة من تعزية بوفاة المقر الأشرف صارم الدين إبراهيم وتحدث عن موكب تشييعه، واستخدم عبارة "مشى على الماء من دموع الناس فاستوت المياه والأخشاب" كناية عن تعامله الطيب مع الناس وكرم أخلاقه حتى بكوا بكاء مريراً كثيراً فتلك الدموع من كثرتها حملت النعش.

وفي بعض الأحيان تُعد الكناية أفضل من الإفصاح والكلام وربما تستخدم أكثر من الإفصاح "فالكناية أبلغ من الإفصاح بالذكر"[4]؛ فهي تجعل الملتقى يقف على فهم المراد مع جعل الباب مفتوحاً

---

(1) قهوة الإنشاء ،417.

(2) النجوم الزاهرة، 113/8.

(3) قهوة الإنشاء، 296.

(4) الطراز، 426/1، وأيضاً الايضاح،468/3، وأيضاً خزانة الأدب، 263.

لاحتمالية معانٍ أخرى للعبارة ذاتها. ومع هذا فإن الكناية تحتاج إلى براعة وفطنة وذكاء وانتباه المتلقي ليصل للمعنى المراد. وقد كان من شروطها قرب فهم المعنى الثاني من أجل الحقيقة[1].

من تلك الكنايات:

"إن الله تعالى لما خص أيامنا الزاهرة بالفتوح التي أنامت الرعايا، في مهاد أمنها، ... وكفت أكف الحوادث عن البلاد وأهلها، ونشرت عليهم أجنحة البشائر في حَزن الأرض وسهلها"[2]

تحدث في الفقرة السابقة عن الفتوحات التي خص الله بها الدولة وانتصارها واستخدم الكاتب "أنامت الرعايا في مهاد أمنها" و"نشرت عليهم أجنحة البشائر" كناية عن كثرة الانتصارات التي حُققت فكانت داعية لنقل البشائر.

ومن تلك أيضاً "فليباشر ذلك على ما عُهد من مبادئ أدواته التي هي غاية المنتهي، والوصايا كثيرة "وأرسل حكيماً ولا توصه"[3]

من توقيع برهان الدين رياسة الطب في الديار المصرية فتحدث عن الوصايا وعبارة أرسل حكيماً ولا توصه كناية عن عدم حاجته للوصايا فهو الحكيم فأرسله فلا حاجة له للوصايا.

ومن ذلك "نحمده على نعمه التي غمرت رعايانا بإدامة الإحسان إليهم وغمرت ممالكنا بما نتعاهد به أهلنا من نشر جناح الرأفة عليهم[4]من مرسوم بالمسامحة بالبواقي مما فيه ذمم الجند والرعايا بالشام فالمقدمة حمد الله عز وجل وعبارة نحمده على نعمه التي غمرت رعايانا، فهذه العبارة كناية عن كثرة نعمة الله علينا وأوجبت الحمد.

ومن ذلك أيضاً "قد أتحفنا الجناب ببسط هذه البشرى ليأخذ منها حظه بالوافر ويُقرّع مسامع الصم بإعلان البشائر ويملأ بطون الدفاتر [5].

---

(1) ينظر: الإيضاح، 456

(2) صبح الأعشى، 29/13.

(3) قهوة الإنشاء، 37.

(4) صبح الأعشى، 28/13.

(5) قهوة الإنشاء، 79.

من بشارة بحلول ركاب المولى الشريف للديار المصرية فاستخدم الكاتب " يقرع مسامع الصم بإعلان البشائر ويملأ بطون الدفاتر" كناية عن كثرة البشائر التي تُنقل ابتهاجاً بعودة الملك للبلاد حتى جعلت مسامع الصم تُقرع، وملئ بطون الدفاتر بالتهاني والبشائر ومن خلال السابق لوحظ استخدام كُتّاب الرسائل للكناية استخداماً جيداً.

حيث ساعدتهم مع التشبيه والاستعارة على رسم صورهم وتجميل وتحسين رسائلهم.

وهكذا فالكناية تتطلب البراعة والفطنة من الكاتب ليحسن الاستخدام، ومن المتلقي ليحسن الفهم، كما يكمن جمال الكناية في بعدها عن المألوف، وتساعد على تأكيد المعنى، كما تساعد على إعمال العقل وتشغيل مداركه وتعمل على زيادة الصورة وضوحاً وجمالاً وحسناً وبهاءً.

ولابد من القول إن التصوير بأنواعه جاء في الرسائل بشكل عفوي لم يظهر عليه التصنع ولم يبالغ في توظيفه، بل زاد من التأثر على المتلقي، وزاد النص جمالاً، وعمل على أداء دوره على أكمل وجه.

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، الحمد لله الذي ينير عقول البشر، الحمد لله الذي بفضله يتم العمل.

في خاتمة بحثي أتمنى من الله العزيز الحكيم أن أكون قد وُفقت في دراستي هذه، التي تناولت فيها فن الرسائل في العصر المملوكي، هذا العصر الذي غفل عنه الدارسون ونعتوه بالتخلف والانحطاط، وهو عصر الموسوعات .

وفي هذه الدراسة قسمت بحثي إلى مقدمة وتمهيد وثلاثة فصول خاتمة.

- تناولت **المقدمة:** أهمية الدراسة، ومبرراتها، والدراسات السابقة، وخطة الدراسة ، ومنهجها.
- و**التمهيد:** قُسم لمبحثين: المبحث الأول: اهتم بالرسائل في الأدب العربي القديم. والمبحث الثاني: اهتم بدراسة البيئة العامة للعصر المملوكي السياسية، الاقتصادية، الاجتماعية، العلمية.
- تناول **الفصل الأول:** فن الرسائل في العصر المملوكي وأشهر كتابها. فبدأته بمبحث أول: عددت فيه العوامل المؤثرة في فن الرسائل ودرست بالمبحث الثاني: أشهر كتاب الرسائل في هذا العصر.
- أما **الفصل الثاني:** تخصص بدراسة أنواع الرسائل وموضوعاتها، فبدأته بمهاد نظري: تحدثت فيه عن تصنيف الرسائل، وتناولت في المبحث الأول: الرسائل السياسية. والمبحث الثاني: الرسائل الاجتماعية. والمبحث الثالث: الرسائل العلمية. فقد عرضت في كل مبحث عدداً لا بأس به من نماذج كل نوع.
- **والفصل الثالث** خصصته للدراسة الفنية، وقد قُسم لأربعة مباحث .الأول منها: تحدث عن بناء الرسالة، والثاني: السمات اللغوية والأسلوبية والثالث: السمات الإيقاعية والمبحث الرابع: السمات التصويرية.
- وأنهيت الدراسة: **بخاتمة** لخصت فيها أبرز نتائج البحث الذي توصلت إليها، والتوصيات، ثم قائمة المصادر والمراجع، ثم فهرس الموضوعات، وأنهيت بحثي بملخص الدراسة.

وأخيراً أعرض أهم النتائج التي توصلت إليها الدراسة وهي:

1- تعتبر الرسائل سجلاً حافلاً بأحداث الحياة السياسية: الداخلية والخارجية.

2- عكست الرسائل الحياة الاجتماعية والترابط الاجتماعي السائد في ذلك العصر.

3- عكست أيضاً الحياة العلمية والثقافية والتي تساعد في الوقوف في وجه من ادعي بانحطاط وتخلف علم وأدب العصر المملوكي.

4- اتسمت الرسائل بالسمة الدينية ويظهر ذلك جلياً من خلال توظيف كتاب الرسائل آيات من القران الكريم وأحاديث نبوية شريفة في رسائلهم.

5- تميزت رسائلهم بالوضوح وجزالة الألفاظ والبعد عن الغرابة .

6- اهتمام كتاب الرسائل بفن الشعر، ويظهر ذلك جلياً من خلال تضمين رسائلهم أبياتاً من الشعر.

7- اهتمام كتاب الرسائل بتنميق رسائلهم و رونقتها وذلك من خلال استخدام ألوان البلاغة فيها من سجع وجناس وطباق واستعارة وتشبيه وكناية.

8- اهتمام كتاب الرسائل بعناصرها: (البسملة، العنوان، الحمدلة، الصلاة على الرسول، المضمون، الخاتمة).

9- اهتمامهم بالأمثال وظهر ذلك من خلال استخدام الأمثال في رسائلهم.

10- أكثروا من صفات المرسل إليه ومدحه(الجناب، العالي، السلطاني، القاضي، العمدة الحجة، وارث العلوم، الأجل المبجل...)

11- يغلب على الرسائل صفة الإسهاب والإطناب.

12- الحياة :السياسية والاجتماعية والعلمية والاقتصادية الموطدة الأركان التي كانت سائدة في العصر المملوكي.

التوصيات المقترحة خلصت الدراسة إلى عدة توصيات منها:

- توجيه عناية الدارسين إلى العصر المملوكي فهو ما يزال بكراً يحتاج إلى العديد من الدراسات التي توفيه حقه وتبرز درره.
- تحقيق المزيد من مخطوطات الكُتّاب في العصر المملوكي.

- عمل دراسات توازن بين أدب العصر المملوكي والعصور التي سبقت، تلك العصور التي وصف أدبها بالقوة والأصالة لبيان مكانة أدب العصر المملوكي بين عصور الأدب ونفي التهم عنه.
- تشجيع الجامعات على تدريس أدب العصر المملوكي وإعطائه حقه كباقي عصور الأدب.

المصادر المراجع

1. إبناء الغمر بأبناء العمر: أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، تحقيق حسن حبشي، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، مصر، 2011م.

2. إحكام صنعة الكلام: محمد الكلاعي، تحقيق محمد الداية، دار الثقافة، ط.1، بيروت، لبنان،1966م،

3. الأدب الأموي: إبراهيم علي أبو خشب ، الهيئة المصرية، الإسكندرية مصر، 1977، د. ط.

4. الأدب العربي بين العصرين المملوكي والعثماني، نبيل أبو علي، دار المقداد، غزة، 2007م.

5. الأدب العربي في الأندلس: عبد العزيز عتيق، دار النهضة، ط1، بيروت، 1976.

6. الأدب العربي وتاريخه في عصر المماليك والعثمانيين والعصر الحديث، محمود رزق سليم، مطابع دار الكتاب العربي، 1957م.

7. أدب الكاتب: ابن قتيبة، شرح علي فاعور، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، لبنان، 1988م.

8. أدب الكتاب: أبو بكر الصولي، تحقيق أحمد حسن بسج، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، د. ط، د. ت

9. الأدب في العصر الملوكي: فنون النثر، محمد زغلول سلام، منشأة المعارف، الإسكندرية، مطبعة المدني، د. ت، د. ط .

10. الأدب في موكب الحضارة: شوقي ضيف، مكتبة الأنجلو ،ط5، القاهرة ، 1968م.

11. أسرار البلاغة في علم البيان: عبد القاهرة الجرجاني، تحقيق محمد الإسكندراني، دار الكتاب العربي بيروت، ط1، 1996م.

12. أسواق مصر في عصر سلاطين المماليك، قاسم عبدو قاسم، مكتبة سعيد رأفت، القاهرة، 1978م.

13. الأعلام، خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، ط5، 1980م.

14. أعيان العصر وأعوان النصر: صلاح الدين الصفدي، تحقيق على أبو زيد وآخرون، تقديم مازن المبارك، دار الفكر، ط1، 1998م.

15. الاقتضاب في شرح أدب الكاتب، البطليوسي، تحقيق مصطفى السقا، حامد عبد المجيد الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1981م. د. ط.

16. ألحان السواجع بين البادي والمراجع، صلاح الدين الصفدي، تحقيق وتقديم محمد عبد الحميد سالم، الهيئة المصرية العامة للكتاب 2005م.

17. الأمثال: أبو الخير الهاشمي، دار سعد الدين، ط1 دمشق، 1423هـ.

18. الإيضاح في علوم البلاغة: محمد جلال الدين القزويني، تعليق، محمد خفاجي، دار الكتاب اللبناني، ط4_ 1975م بيروت، لبنان.

19. البداية والنهاية، إسماعيل بن عمر بن كثير، مكتبة المعارف ط7 ، بيروت، 1988م.

20. البداية والنهاية: إسماعيل بن كثير، تحقيق أحمد عبد الوهاب، دار الحديث، ط1، القاهرة، 1992م.

21. بدائع الزهور في وقائع الدهور: محمد بن أحمد بن إياس، الهيئة المصرية العامة، ط3، القاهرة، 1983م.

22. البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع: محمد بن علي الشوكاني، دار المعرفة، بيروت.

23. البرد الموشي في صناعة الإنشاء: موسى الموصلي، تحقيق عفاف صبرة، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، لبنان، 1990م.

24. بلاغة الكتاب في العصر العباسي، محمد نبيه حجاب، مكتبة الطالب الجامعي، ط2 ، 1986م.

25. تاريخ ابن خلدون: ابن خلدون، تحقيق: خليل شحادة، دار الفكر، ط2، بيروت، لبنان، 1988م.

26. تاريخ الأدب العربي من مطلع القرن الخامس الهجري إلى الفتح العثماني، عمر فروخ، دار العلم الملايين، ط4 بيروت، لبنان، 1981م.

27. تاريخ الأدب العربي، العصر العباسي الأول: شوقي ضيف، دار المعارف، ط8، 1972

28. تاريخ الأدب العربي، العصر المملوكي: عمر موسى باشا، دار الفكر، دمشق، ط1، 1989م.

29. تاريخ الأدب العربي: عمر فروخ، دار العلم الملايين ط4 بيروت لبنان، 1981م

30. تاريخ الترسل النثري عند العرب في الجاهلية: محمود المقداد، دار الفكر، ط1، دمشق ، سوريا، 1993 م.

31. تاريخ الترسل النثري عند العرب في صدر الإسلام، محمود المقداد دار الفكر، ط1، دمشق، سوريا، 1993 .

32. تاريخ الخلفاء: جلال الدين السيوطي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر، القاهرة، د. ت.

33. تاريخ الطبري، تاريخ الرسل والملوك، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، ط 4، القاهرة، مصر،، د.ت.

34. تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام، محمد سهيل طقوس دار النفائس، ط2، بيروت، لبنان، 1997م.

35. تحرير التحبير: ابن أبي الأصبع المصري، تحقيق حنفي شرف، القاهرة، 1995م.

36. تطوير الأساليب النثرية: أنيس المقدسي، دار العلم للملايين، ط6، بيروت، لبنان، 1979.

37. التعريف بالمصطلح الشريف: ابن فضل الله العمري، تحقيق محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، لبنان، 1988م.

38. تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون: خليل بن آيبك الصفدي تحقيق: محمد أبو الفضل ابراهيم، دار الفكر العربي، مطبعة المدني، 1969م.

39. ثمرات الأوراق: ابن حجة الحموي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، د. ط، بيروت 2005م.

40. جمهرة الأمثال: أبو هلال العسكري، تحقيق محمد إبراهيم، عبد المجيد قطامش، دار الفكر، د. ط ، 1988م.

41. جمهرة رسائل العرب: أحمد صفوت، مكتبة مصطفى البابي،ط2، القاهرة، 1971م.

42. جواهر الأدب في أدبيات وانشاء لغة العرب، أحمد الهاشمي، مؤسسة المعارف، بيروت.

43. جواهر البلاغة: أحمد الهاشمي، دار إحياء التراث،ط12، بيروت ،لبنان.

44. جواهر السلوك في أمر الخلفاء والملوك: ابن إياس، تحقيق محمد زينهم، الدار الثقافية، ط1، 2006م، القاهرة.

45. حركة التأليف العلمي في مصر والشام في العصر الملوكي الأول: جلال يوسف العطاري، دار الفكر، ط1، الأردن، 2011م.

46. الحركة الشعرية من المماليك في حلب الشهباء، أحمد الهيب، مؤسسة الرسالة، ط1، بيروت، 1986م.

47. حسن التوسل إلى صناعة الترسل، شهاب الدين محمود الحلبي، المطبعة الوهبيّة، مصر، 1298هـ.

48. حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة: جلال الدين السيوطي، دار إحياء الكتب العربية، ط1، 1968.

49. حلية الأولياء وطبقات الأصفياء: أبو نعيم الأصبهاني، دار الكتاب العربي،ط4، بيروت، لبنان، 1985.

50. حياة الحيوان الكبرى: كمال الدين الدميري، دار الكتب العلمية ط2، بيروت، لبنان، 1424هـ.

51. خزانة الأدب وغاية الأرب، ابن حجة الحموي، شرح عصام شعتيو، دار الهلال، ط أخيرة، 2004م.

52. الدرر الكامنة في أعيان المائة الثمانية، ابن حجر العسقلاني، دار الجيل، د. ت، د. ط، بيروت.

53. دلائل الإعجاز: عبد القاهر الجرجاني، تحقيق محمد شاكر، مطبعة المدني، ط3، 1992م.

54. دولة الإسلام في الأندلس، محمد عنان، مكتبة الخفاجي، ط2، القاهرة، مصر، 1990.

55. ديوان ابن نباتة المصري: شركة علاء الدين، بيروت د.ت، د. ط.

56. ديوان أبي فراس الحمداني: شرح: خليل الدويهي، دار الكتاب،ط4، بيروت، 1999م.

57. ديوان المتنبي: دار بيروت،، د. ط، بيروت، لبنان، 1983م.

58. ديوان امرؤ القيس: دار الأرقم، بيروت، لبنان، د. ط، د.ت.

59. ديوان طرفة بن العبد: تحقيق مهدي ناصر الدين، دار الكتب العلمية، ط2، 2002م.

60. ديوان عمرو بن معدي يكرب الزبيدي: مطاع الطرابيشي، مطبوعات مجمع اللغة العربية، ط2، 1985م، دمشق.

61. الرسائل الديوانية: عبد الحليم الهروط، دار جرير، ط1، عمان، الأردن، 2006م.

62. الرسائل الفنية في العصر العباسي: محمد محمود الدروبي، دار الفكر، ط1، عمان، الأردن، جامعة آل البيت، 1990م.

63. ريحانة الكتاب: لسان الدين بن الخطيب، مكتبة الخفاجي، القاهرة، 1980، د. ط.

64. السلوك لمعرفة دول الملوك، تقي الدين المقريزي، مطبعة لجنة التأليف والنشر ط2، 1957، القاهرة.

65. سنن ابن ماجه، محمد القزويني، تحقيق: محمد عبد الباقي، دار إحياء، د. ط، د. ت.

66. سير أعلام النبلاء، شمس الدين الذهبي، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، ط3، 1985م.

67. شذرات الذهب في أخبار من ذهب: أبو الفلاح عبد الحي الحنبلي، دار الفكر، د. ت، د. ط.

68. شرح نهج البلاغة: لابن أبي الحديد، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الجيل، ط1، بيروت، 1987م.

69. صبح الأعشى في صناعة الإنشاء: أبو العباس القلقشندي، نسخة الطبعة الأميرية وزارة الثقافة، المؤسسة المصرية العامة للتأليف، د.ت، د. ط.

70. صحيح البخاري: أبو عبد الله محمد البخاري، تحقيق: محمد بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، ط1، ، بيروت، لبنان. 1422هـ

71. الصفدي وآثاره في الأدب والنقد، محمد عبد المجيد لاشين، دار الآفاق العربية، ط1، 2000م.

72. الصناعتين: أبو هلال العسكري، تحقيق مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، ط2، بيروت، لبنان، 1984م.

73. الصورة الفنية من التراث النقدي والبلاغي عند العرب، دار جابر عصفور، المركز الثقافي العربي، ط3،بيروت، 1992م .

74. الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، شمس الدين السخاوي، منشورات دار الحياة، بيروت لبنان.

75. الطبقات ابن سعد، تحقيق محمد علي أدبلي، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1986.

76. طبقات الشافعية: تاج الدين أبي نصر عبد الوهاب السُبكي، تحقيق مصطفى عبد القادر، أحمد عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1999م.

77. الطراز لأسرار البلاغة: يحيى بن حمزة العلوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ، د. ط ، د. ت.

78. طومان باي آخر سلاطين المماليك في مصر: عبد المنعم ماجد، 1978، مكتبة الانجلو، نسخة أخيرة، د. ط.

79. العصر الإسلامي: شوقي ضيف، دار المعارف، ط6، د.ت، القاهرة.

80. العصر الجاهلي: شوقي ضيف، دار المعارف، ط10، مصر.

81. العصر العباسي الأول، شوقي ضيف، دار المعارف، مصر ، 1972م.

82. العصر المماليكي في مصر وبلاد الشام: سعيد عبد الفتاح عاشور، مكتبة الانجلو، ط3، 1994م.

83. عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي، محمود رزق سليم، مكتبة الآداب، المطبعة النموذجية، ط2- 1962م.

84. عصر سلاطين المماليك، التاريخ السياسي، والاجتماعي، قاسم عبدو قاسم ، عين الدراسات، ط1، الهرم 1998م.

85. العقد الفريد، ابن عبد ربه، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت 1404هـ.

86. علم الأسلوب: صلاح فضل، مؤسسة مختار، 1992،، د. ط، القاهرة.

87. العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ابن رشيق القيرواني، تقديم صلاح الهواري، وهدى عودة، مكتبة الهلال، ط1، 1996م بيروت لبنان.

88. الغصون اليانعة في أدب العصور المتتابعة، حسن عبد الرحمن سليم، جامعة الإمارات،ط1، 2005م.

89. الفن ومذاهبه في النثر العربي، شوقي ضيف، دار المعارف، ط5، مصر.

90. فنون النثر في الأدب العباسي: محمود صالح، دار جرير، ط2، عمان الأردن، 2006م.

91. فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات: عبد الحي الكتاني، تحقيق: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، د. ت، د.، ط .

92. فوات الوفيات، محمد شاكر الكتبي، تحقيق: إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، لبنان، د. ط ، د. ت.

93. قهوة الإنشاء: تقي الدين ابن حجة الحموي، تحقيق، رودولف فيسيلي، ط1، بيروت، لبنان، 2005م.

94. الكتابة الفنية: حسني ناعسة، مؤسسة الرسالة، ط1، 1978م، سوريا.

95. لسان العرب: جمال الدين محمد بن منظور، دار صادر، ط3 بيروت، 1990.

96. المثل السائر، ابن الأثير، تحقيق: أحمد الحوفي، بدوي طبانة، دار النهضة، ط2، القاهرة مصر.

97. المثل السائر: ابن الأثير، المكتبة العصرية، د. ط بيروت، 1995م.

98. مجمع الأمثال: أبو الفضل الميداني، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار المعرفة، بيروت، لبنان.

99. مختارات من النثر العربي القديم: توفيق أبو الرب، دار الأمل، إربد، الأردن.

100. المرشد الى فهم أشعار العرب وصناعتها: عبد الله الطيب، الكويت، ط3، 1989م.

101. مسند الإمام أحمد بن حنبل: تحقيق: شعيب الأرناؤوط، عادل مرشد، مؤسسة الرسالة، ط1، بيروت، 1997م.

102. مسند الشاميين: الحافظ أبو قاسم سليم الطبراني، تحقيق: حمدي عبد المجيد السلفي، مؤسسة الرسالة، ط1، 1989م، بيروت لبنان.

103. معجم البلاغة العربية: بدوي طبانة، دار المنارة، ط3 جدة، 1988م.

104. معجم البلدان: شهاب الدين ياقوت الحموي، دار صادر، بيروت، ط1، 1990م.

105. معجم المصطلحات البلاغية وتطويرها: أحمد مطلوب، مكتبة لبنان، بيروت، لبنان، 2000م.

106. المعجم المفصل في علوم البلاغة: أنعام عكاوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط3- 1996م.

107. المغول بين الانتشار والانكسار، علي محمد الصلابي، دار الأندلس ،الجديدة، ط1، مصر 2009.

108. المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، يوسف بن تعزي بردي، تحقيق نبيل عبد العزيز، مركز تحقيق التراث، 1988

109. المواعظ والاعتبار بذكر الخطط الآثار، تقي الدين المقريزي، المكتبة الدينية الثقافية، القاهرة، 1987.

110. الموالاة والمعاداة في الشريعة الإسلامية: محماس بن عبد الله بن محمد الجلعود، ط1، 1987م.

111. موسوعة التاريخ الإسلامي، العصر المملوكي، مفيد الزبيدي، دار أسامة، عمان، الأردن، 2006، د. ط.

112. نثر الدرر: أبو سعد منصور الأبي، تحقيق: خالد محفوظ، دار الكتب العلمية، ط1 بيروت، لبنان، 2004م.

113. النثر الفني في القرن الرابع: زكي مبارك، دار الجيل، بيروت

114. النثر عند لسان الدين الخطيب: عبد الحليم الهروط، دار جرير، عمان، الأردن 2010م.

115. النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة: جمال الدين بن تعزي بردي، تقديم وتعليق: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية ط1، بيروت، لبنان، 1992.

116. نظرية علم النص: حسام أحمد فرج, تقديم سليمان العطار, محمود حجازي, مكتبة الأدب, القاهرة, ط1, 2007م.

117. نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب, شهاب الدين التلمساني, تحقيق: احسان عباس, دار صادر، د. ط, بيروت, لبنان, 1988م.

118. نقد النثر: نبيل ابو علي, الهيئة المصرية العامة, د. ط , 1993

119. نهاية الأرب في فنون الأدب: شهاب الدين النويري, دار الكتب والوثائق القومية, القاهرة, ط1.

120. نهر الذهب في تاريخ حلب: كامل بن حسين الحلبي, دار القلم, ط2, بيروت.

121. النيل والمجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك: قاسم عبدو قاسم, دار المعارف, ط1, القاهرة, 1978م.

122. الوافي بالوفيات, صلاح الدين الصفدي, تحقيق أحمد الأرناؤوط، تركي مصطفى, دار إحياء التراث, بيروت, لبنان, 2000.

123. الوثائق الإسلامية للعصر المملوكي: محمد حمادة, مؤسسة الرسالة, ط1، سوريا 1980

124. الوساطة بين المتنبي وخصومه: علي الجرجاني, تحقيق محمد إبراهيم, علي البجاوي, مطبعة عيسى الحلبي, ط4, 1966م.

125. يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، أبو منصور عبد الله بن محمد الثعالبي، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، دار الفكر بيروت، د.ت، د. ط.

الملخص

تناولت الدارسة (فن الرسائل في العصر المملوكي دراسة تحليلية)واشتملت على مقدمة وتمهيد (الرسائل في الأدب العربي القديم، والبيئة العامة للعصر المملوكي).

وثلاثة فصول (الفصل الأول: فن الرسائل في العصر المملوكي وأشهر كتابها)، والفصل الثاني (أنواع الرسائل وموضوعاتها) والفصل الثالث(الدراسة الفنية)، وأنهيت البحث بخاتمة أجملت فيها نتائج البحث وأهم التوصيات .

هدف الرسالة :

توسيع الأفق بأبواب ظلت مغلقة أعواماً طويلة ،في عصر أهملت فيه الدراسة ظلماً ،وأجحفت بحقه بهتاناً، وهو العصر المملوكي ،فاخترت إحدى نوافذه ،المسماة بفن الرسائل ، وحاولت التوسع في هذه النافذة قدر الإمكان، ليكون لي الشرف لأنقل إلى كل مهتم ما وجدت فيه ، ولأنفي عن ذلك العصر التهم المنسوبة إليه.

منهج الدراسة:

المنهج التكاملي بما يحويه من مناهج تمكن البحث من الإحاطة بجميع مكونات النص الأدبي من حيث الشكل والمضمون.

نتائج الدراسة:

كشفت الدراسة عن الدور الكبير الذي احتله فن الرسائل في هذا العصر ، ، فهو بحق يعكس الحياة العامة، ويعتبر فناً من فنون الأدب ،و يعد إرثاً قيماً يتسم بسمات فنية رائعة.

Summary

The study took the(Letters Art in the Mamluk Era An Analytical Study) included introduction and preamble (letters in Classical Arabic Literature and The general environment of the Mamluke era) and three Chapters(chapter one : (Letters Art in the Mamluk Era) Chapter two: The types of letters . chapter three (The technical study) Search Ended conclusion outlined the results of the search and the most important recommendations.

Aims of the study

The study aims to expand our horizons through opening doors closed for many long years . The study of the Maamluk period was unjustly ignored , and therefore I choose one of its key areas which is the Letters Art in the Mamluk Era in order, to have the privilege of conveying to those interested what I have found and to negate all charges Leveled against this period .

Methodology

The study used integrative critical approach which includes methods that assist the researcher to fully examine all aspects if the Literary text both in from and content .

Results of the study:

The study discovered the big role occupied by the art of letters in this century, which is indeed reflects the general life, and considered as one of the literature arts, which is a valuable legacy with a wonderful art characteristics.

فهرس الموضوعات

رقم الصفحة	العنوان
ب	الإهـداء
ج	شكر وتقدير
د	شكر وعرفان
هـ	المقدمة
	التمهيد
2	المبحث الأول: نشأة فن الرسائل
2	نشأة فن الرسائل
3	أولاً: نشأة الرسائل السياسية
8	ثانياً : نشأة الرسائل الاجتماعية
12	المبحث الثاني: البيئة العامة للعصر المملوكي
12	أصل المماليك
13	البيئة السياسية
18	البيئة الاقتصادية
21	البيئة الاجتماعية
22	البيئة العلمية والثقافية
	الفصل الأول فن الرسائل في العصر المملوكي وأشهر كتابها
26	المبحث الأول: عوامل نشأة فن الرسائل ومكانتها
26	أولاً: العوامل السياسية
27	ثانياً: العوامل الاجتماعية
28	ثالثاً: العوامل العلمية
29	مكانة فن الرسائل

الموضوع	الصفحة
المبحث الثاني: أشهر كتاب الرسائل في العصر المملوكي	32
صلاح الدين الصفدي	32
محي الدين عبد الظاهر	33
ابن حِجة الحموي	35
القلقشندي	37
ابن فضل الله العمري	38
ابن نُباتة المصري	40
شهاب الدين محمود الحلبي	41
جلال الدين القزويني	43
علاء الدين بن عبد الظاهر	44
عمر بن الوردي	44
الفصل الثاني أنواع الرسائل وموضوعاتها	
مهاد نظري رؤى تنظيرية تصنيف الرسائل	47
المبحث الأول: الرسائل السياسية	51
أولا: الرسائل الملوكية	51
ثانيا: العهود والمبايعات	59
ثالثاً: التقاليد	63
رابعاً: التواقيع والمراسيم	69
خامسا: البشارات	74
المبحث الثاني : الرسائل الاجتماعية	79
أولاً: رسائل المديح	79
ثانياً: رسائل التهنئة	83
ثالثاً: رسائل الشكر	86
رابعاً: رسائل التعزية	88
خامساً: رسائل العتاب	90

المبحث الثالث :الرســـائل العلميـــة	93
أولاً: الإجازة العلمية	93
ثانياً: إجازة العراضة	100
ثالثاً الإجازة بالرواية الأدبية	105
الفصل الثالث الدراسة الفنية	
المبحث الأول: بناء الرسالة، وضوابطها الفنية	111
أولاً: البسملة	111
ثانياً: العنوان	113
ثالثاً: الحمدلة	113
رابعاً: الصلاة على الرسول الكريم – صلى الله عليه وسلم–	115
خامساً: التخلص	117
سادساً: موضوع الرسالة	118
المبحث الثاني: السمات اللُغوية والأسلوبية	122
أولاً: جزالة الألفاظ	122
ثانياً التناص	126
أ– تناص القرآن الكريم	126
ب– تناص الحديث الشريف	130
ج– تناص الشعر	132
د– تناص الأمثال	136
ثالثاً: الجمل الدُعائية	138
رابعاً: الإيجاز والإطناب	139
خامساً: أسلوب الأمر	144
المبحث الثالث: السمات الإيقاعية	146
أولاً: السجع	146
ثانياً: الجناس	148

ثالثاً: الطباق	153
رابعاً: الموازنة	155
المبحث الرابع: السمات التصويرية	158
أولاً: التشبيه	158
ثانياً: الاستعارة	163
ثالثاً: الكناية	168
الخاتمة	172
المصادر المراجع	175
الملخص	184
Abstract	185
فهرس الموضوعات	186